٢ القسم الثاني: تحقيق المخطوط

١.٢ سورة سبأ[٤٩٤]

بسم الله الرحمن الرحيم

"بسم الله الذي خلق السماوات والأرض آية لكل عبد منيب، الرحمٰن الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر من عدوٍّ وحبيب، الرحيم الذي هو السميع، القريب، المَلِك، الماجد، المجيب، وسورة السبأ مكية، وهي خمس وخمسون آية، وقيل:أربع وخمسون، وكلماتها ثمانمائة وثلاث وثمانون، وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة عشر، وانتظام أول هذه السورة بآخر تلك السورة، أن تلك السورة في مدح الله تعالى، وهذه السورة في حمد الله تعالى، وانتظام السورتين أن تلك السورة مدنية في بيان المعاملة، وهذه السورة في بيان العقيدة، وبهما يَعبُدُ اللهَ تعالى عِبَادُهُ، فاشتملت [السورتان][٤٩٥] على مدح الموافقين، وذمّ المخالفين وعقابهم، وروى أبيّ بن كعب – رضي الله عنه –عن النبي ﷺ أنه قال: "من قرأ سورة سبأ لم يبق نبيٌّ مرسلٌ إلا كان له رفيقا ومُصَافِحا"[٤٩٦][٤٩٧].

---

[٤٩٤] في الأصل (السبأ).

[٤٩٥] في الأصل (السورتين)، والصحيح (السورتان) لأنها فاعل مرفوع بالألف.

[٤٩٦] الثعلبي: *الكشف والبيان*،٧/٢٢. الواحدي: *الوسيط في تفسير القرآن المجيد*،٣/٤٨٦. وقد حكم جماعة من أهل العلم على حديث أبي هذا في فضائل السور بأنه باطل موضوع. العقيلي: *الضعفاء الكبير*،١/١٥٦. النووي: *إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق – ﷺ –*،١/٢٦٤. وقال الشوكاني: "وهذا الحديث طرق كلها باطلة موضوعة ... ولا خلاف بين الحفاظ بأن حديث أبي بن كعب هذا موضوع، وقد اغترّ به جماعة من المفسرين فذكروه في تفاسيرهم؛ كالثعلبي

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُوْلئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

"قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[سبأ: ١] يجوز فيه ثلاثة أوجه: ١- الأمر بالحمد على إضمار (قل) أو (قولوا). ٢- حمد الله تعالى نفسه تعليما لعباده. ٣- الإخبار أن استحقاق الحمد لله تعالى.

والواحدي والزمخشري، ولا جرم فليسوا من أهل هذا الشأن". الشوكاني: محمد بن علي (ت. ١٢٥٠هـ)، *الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة*، تحقيق: عبد الرحمن بن يحي المعلمي، ص٢٩٦.

[٤٩٧] *التيسير في التفسير*، ١٢/٢٢١.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾[سبأ:١] أي المحمود في الآخرة، وهو المستحق [للحمد][٤٩٨] فيها كما هو مستحق في الدنيا، وهو المالك في الآخرة. قال الله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[الفاتحة:٤] لا مُلك إلا له، ولا مالك إلا هو، وهو المنعم على المطيعين في الجنّة، وما فيها من النعيم المقيم، والأجر العظيم، وهم يحمدونه فيها قال الله تعالى:﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾[فاطر:٣٤]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَانا لِهٰذا﴾[الأعراف:٤٣]، ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[يونس:١٠]، ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾، أي في إنشاء الآخرة، لأن خلق الدنيا صار حكمه بخلق الآخرة، ولولاها لكان خلق الدنيا للفناء، وهو عبث"[٤٩٩].

"ويقال: أهل الجنّة يحمدونه في ستة مواضع: أحدها: حين نودي: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[يـــس:٥٩]، فإذا تميز المؤمنون من الكافرين، يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[المؤمنون:٢٨]، والثاني: حين جازوا الصراط، قالوا:﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾، والثالث: لما نودي إلى باب الجنّة، واغتسلوا بماء الحيوان، ونظروا إلى الجنّة، قالوا:﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَانا لِهٰذا﴾، والرابع: لما دخلوا الجنّة استقبلهم الملائكة بالتحية، قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾[الزمر:٧٤] الآية، والخامس:

---

[٤٩٨] في الأصل (لله)، وصححتها من: النسفي: *التيسير في التفسير*.

[٤٩٩] *التيسير في التفسير*، ١٢/٢٢٢.

حين استقروا في منازلهم، قالوا: الحمد لله ﴿ٱلَّذِى أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾[فاطر:٣٥]، والسادس: كلما فرغوا من الطعام، قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ربِّ الْعالَمِينَ﴾[الفاتحة:٢]"[٥٠٠].

"﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[سبأ:١] أي المحكم لأفعاله، المصيب في أفعاله، وأقواله"[٥٠١]، ﴿الْخَبِيرُ﴾ العالم بالأشياء على حقائقها، ويقال: الحكيم حكم بالبعث، الخبير العليم بهم، وبأعمالهم.

"﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾[سبأ:٢] يعني ما يدخل في الأرض، من المطر، والأموات، والمكنون، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾[سبأ:٢] من النبات، والكنوز، والأموات، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ﴾[سبأ:٢] من مطر، أو وحي، أو رزق، أو مصيبة، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾[سبأ:٢] يعني ما يصعد إلى السماء من الملائكة، وأعمال بني آدم"[٥٠٢]، ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾[سبأ:٢] لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، ويغفر لهم بالتوبة، فهو المستحق للحمد بذلك. ويقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ما يدخل فيها، أي في جوفها من جمادٍ، ونامٍ، وحيوان، "﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي يكون على ظهرها من هذا، فيعلم أعيانها، ومقاديرها، وأحوالها، ومدة بقائها، ووقت فنائها، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ﴾ من ملك وغير ذلك، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة الحفظة، وما يكتبون، ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾"[٥٠٣].

---

[٥٠٠] بحر العلوم، ٧٨/٣.

[٥٠١] التيسير في التفسير، ٢٢٢/١٢.

[٥٠٢] بحر العلوم، ٧٨/٣.

[٥٠٣] التيسير في التفسير، ٢٢٣/١٢.

"﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾[سبأ:٣] أي وقال المنكرون للبعث، الواصفون الله تعالى بضد ما ذكره من القدرة، والحكمة، والعلم. ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ وإنكارهم لذلك إما أن يكون لأنه ليس في قدرة الله تعالى عندهم، وقد بيّن قدرته بخلق السماوات والأرض، أو لأنه ليس بإقامة القيامة بمجازاة المطيع، والعاصي حكمه، أو لأنه لا يعلم بأعمال العباد ليجازيهم على وفق عملهم، وقد بيّن أنه حكيم عليم، فبطل قولهم بما قُدّم ثم زاد في البيان [فقال][٥٠٤]: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[سبأ:٣] نفى قولهم وأقسم على كونها، وأكد باللام والنون"[٥٠٥].

﴿عَٰلِمِ الْغَيْبِ﴾[سبأ:٣] قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم - رحمهم الله - بكسر الميم نعتا لِربّي، والباقي بالرفع[٥٠٦]، على الابتداء، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف. ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾[سبأ:٣] يعني لا يغيب عنه، ولا يبعد. ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ يعنى وزن ذرة، والذرة النملة الصغيرة الحميراء. ويقال: التي ترى في شعاع الشمس، إذا وقعت في كوة. ﴿فِى السَّمَٰوٰتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ﴾[سبأ:٣] أي مثقال ذرة. ﴿وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[سبأ:٣] قيل: هو اللوح المحفوظ، وما يرجع منه إلى أعمال العباد فهو في كتاب الحفظة.

---

[٥٠٤] سقط من الأصل، وكتبتها من *التيسير*.

[٥٠٥] *التيسير في التيسير*، ١٢/٢٢٣.

[٥٠٦] الذي قرأ بالرفع من السبعة هما نافع وابن عامر، وفي قوله: ﴿عَٰلِمِ الْغَيْبِ﴾ ثلاث قراءات: (عالمِ) بالكسر، و(عالمُ) بالرفع، و(علاَّمِ) بالكسر. ابن مجاهد: *السبعة في القراءات*، ص ٥٢٦.

﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ﴾[سبأ:٤] وهذا يتصل بقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، أي ليثبت الذين آمنوا بالله تعالى، وعملوا الصالحات، أي الطاعات. ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾[سبأ:٤] لذنوبهم. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[سبأ:٤] أي رزق حسن في الجنّة.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِى ءَايَتِنَا مُعَجِزِينَ﴾[سبأ:٥] معنى سابقين، يعني سبق كل واحد منهما بالتكذيب. ويقال: سابقين في إبطال آياتنا، بالافتراء عليها. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو– رحمهما الله – معجزين بغير ألف، والتشديد يعني مثبّط الناس عن تأملها. ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾[سبأ:٥] برفع الميم، صفة العذاب يعني عذاب شديد، وهو قراءة ابن كثير، وحفص عن عاصم، والباقي بالجر صفة لرجز. قال مقاتل: "قال سفيان بن حرب: حلف باللات والعزى، أن البعث غير كائن، فأمر الله تعالى رسوله أن يحلف ردا عليه، فقال: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾"[٥٠٧].

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[سبأ:٦] أي ويرى بقلبه، وهو العلم، ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ هم أصحاب رسول الله ﷺ – رضي الله عنهم –. وقيل: مؤمنو أهل الكتاب. ﴿الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهو القرآن، هو الحق، معمول ثانٍ لقوله:﴿وَيَرَى﴾ أي هؤلاء يرون في القرآن حقا، ويعلمونه صدقا، وأنه يهدي إلى طريق الحق، وهو طريق الله، ودين الله العزيز، الذي لا يغالب الحمد، المستحق للحمد.

---

[٥٠٧] مقاتل: *تفسير مقاتل*،٣/٥٢٣.

"﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[سبأ:٧] وقال هؤلاء المنكرون للساعة لإخوانهم، إنكم بعد أن تبلوا في قبوركم، وتتقطع أجسادكم فيها، أو تأكلكم السباع – والمزق: الخرق، والتمزيق: التكثير، والتكرير– أنكم تعودون خلقا جديدا، كما كنتم من قبل البلى والتقطع ؟! وهذا تعجيب بصيغة الاستفهام، كقولك: هل رأيت مثل هذا؟!

﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾[سبأ:٨] ألف الاستفهام دخلت على ألف المختلــَبة، فأسقطتها، للاستغناء عنها. ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾[سبأ:٨] أي جنون، وهذا قولهم. أيضا يقولون: لا ندري ما يخبر به، ويضيفه إلى الله تعالى، هو على جهة الافتراء على الله تعالى؟ وهو أمر فظيع، أم به جنون فهو يتكلم بما لا ندري؟ فأجابهم الله فقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾[سبأ:٨] أي ليس هو مفتريا على الله تعالى، ولا إنه جنون، ولكن المنكرين للبعث في العذاب في الآخرة، إذا صاروا إليها. وفي الضلال البعيد عن الحق في الدنيا، وقيل: في العذاب، أي في العناء، والأذى، لما يجتهدون فيه من إضلال الناس، وصدهم عن الحق، مع بطلان سعيهم"[٥٠٨].

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[سبأ:٩] أي كيف هو محيط بهم، ومن كل جهة رموا بأبصارهم إليها، رأوها وهم محصورون فيها[٥٠٩]، فيستدلوا بذلك على أنهم في سلطان الله تجري عليهم أحكامه. ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْنُسْقِطْ

---

[٥٠٨] التيسير في التفسير، ١٢/٢٢٦-٢٢٧.

[٥٠٩] في التيسير (محضرون بينهما).

عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾[سبأ:٩] لا يمتنعون عن شيء من ذلك، فيحذروا الافتراء على رسولي، و[يتركوا][٥١٠] الإشراك بي، والتعجيز لي عن إعادتهم بعد موتهم، ولا يستدلوا بقدرتي على خلقهما، على قدرتي على بعثهم بعد موتهم، وهو كقوله:﴿قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[يـس:٧٨] إلى قوله: ﴿أَوَ لَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾[يـس:٨١]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾[سبأ:٩] أي راجع إلى الله تعالى، مقبل عليه، متدبر في آياته، فهو المنتفع بها.

[فصل في التفسير بالرأي]

"قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ اعلم أن السور المفتتحة بالحمد، خمس سور، سورتان منها في النصف الأول، وهما: الأنعام، والكهف. وسورتان في النصف الآخر، وهما: هذه وسورة الملائكة.والخامسة: هي فاتحة الكتاب، تقرأ مع النصف الأول، ومع النصف الآخر، والحكمة منها، أن نعم الله تعالى مع كثرتها، وعدم [قدرتنا][٥١١] على إحصائها، منحصرة في قسمين: نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء. فإن الله تعالى خلقنا أولًا برحمته، وخلق لنا [ما يقوم بنا][٥١٢]، وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة، فإنه يخلقنا مرة أخرى، ويخلق لنا ما يدوم فلنا حالتان: الإبداء، والإعادة. وفي كل حالة له تعالى علينا نعمتان: نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء.

---

[٥١٠] في الأصل (ولا يتركوا)، وصححتها من *التيسير*.

[٥١١] في الأصل (قدرتها)، وصححتها من: الرازي: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن التيمي خطيب الري (ت. ٦٠٦هـ/١٢١٠م)، *مفاتيح الغيب*،٢٥/١٩٠.

[٥١٢] في *مفاتيح الغيب* (ما نقوم به)،٢٥/١٩٠.

فقال في النصف الأول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ﴾[الأنعام:١] إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد، ويدل عليه قوله تعالى فيه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾[الأنعام:٢]، إشارة إلى الإيجاد الأول. وقال في السورة الثانية، وهي الكهف، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ﴾[الكهف:١-٢] إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء، فإن الشرائع بها البقاء، ولولا شرع ينقاد له الخلق، لاتبع كل واحد هواه، ولوقعت المنازعات في المشتبهات، وأدت إلى التقاتل، والتعادي. ثم قال في هذه السورة: الحمد لله، إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾، وقال في الملائكة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ والملائكة بأجمعهم لا [يكونون][٥١٣] رسلا إلا يوم القيامة، يرسلهم الله على المسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[الأنبياء:١٠٣] وقال تعالى عنهم: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ﴾[الزمر:٧٣]. وفاتحة الكتاب لما [اشتملت][٥١٤] على ذكر النعمتين بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ربِّ الْعالَمِينَ﴾ إشارة إلى النعمة العاجلة، وقوله: ﴿مٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ إشارة إلى النعمة الآجلة، قريب في الافتتاح، وفي الاختتام. ومعنى قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:الشكر لله، واعلم أن الشكر على النعمة، والله تعالى جعل ما في السماوات والأرض لنفسه بقوله: ﴿لَهُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ﴾ ولم يبين لنا حتى يجب الشكر، وذلك أن الحمد يفارق الشكر في

---

[٥١٣] في الأصل (لا نكون)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/١٩٠.

[٥١٤] في الأصل (اشتمل)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/١٩٠.

المعنى، وهو أن الحمد أعمّ فيُحمد من فيه صفات حميدة، وإن لم ينعم على الحامد أصلا، فإن الإنسان يحسن منه أن يقول في حق عالم لم يجتمع به أصلا، إنه عالم بارع، كامل. فيقال له إنه يحمد فلانا، ولا يقال إنه يشكر، إلا إذا ذكر نعمته، أو ذكره على نعمه، فالله تعالى محمود في الأزل، لاتصافه بأوصاف الكمال، ونعوت الجلال، ومشكور لا يزال على ما أبدى من الكرم، و[ابتدأ][٥١٥] من النعم، فلا يلزم ذكر النعمة للحمد، بل يكفي ذكر العظمة، وفي كونه مالك السماوات والأرض عظمة كاملة، فله الحمد على أن قوله: ﴿لَهُ مَا فِى السَّمَٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ﴾ يوجب شكرا أتمّ مما يوجبه قوله:﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ﴾[البقرة:٢٩]، وذلك لأن ما في السماوات والأرض إذا كان لله، ونحن منتفعون به، لا هو، يوجب ذلك شكرا لا يوجبه كونُ ذلك لنا. ثم قال:﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾، ليُقاس نِعم الآخرة بنِعَم الدنيا، ويُعلم فضلها بدوامها، وفناء العاجلة. ولهذا قال:﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾، إشارة إلى أن خلق هذه الأشياء بالحكمة والخير، والحكمة صفة ثابتة لله تعالى، لا يمكن زوالها، فيمكن منه إيجاد أمثال هذه مرة أخرى في الآخرة. وفي العلم الذي يتصل به الفعل، فإن من يعلم أمرا، ولا يأتي بما يناسب له علمه، لا يقال له حكيم، ومن يأتي بأمر عجيب على سبيل الاتفاق، من غير علم، لا يقال له حكيم، فالفاعل الذي فعل على وفق العلم، هو الحكيم والخبير، هو الذي يعلم عواقب الأمور، وبواطنها. فقوله: حكيم، أي في ابتداء الخلق كما ينبغي، خبير: أي بالانتماء، يعلم ماذا يصدر من المخلوق، وما لا يصدر، وإلى ماذا يكون مصير كل واحد. فهو حكيم في الابتداء، خبير في الانتهاء.

---

[٥١٥] في *مفاتيح الغيب* (وأسدى)،٢٥/١٩١.

ثم بين الله تعالى كمال خبره بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ ما يعرج فيها من الحبة وغيرها، وما يخرج [من][٥١٦] السنابل و[الحبات][٥١٧]، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من أنواع رحمته، منها المطر، والملائكة، والقرآن.﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الكلمة الطيبة، ومنها الأرواح، ومنها الأعمال الصالحة. وإنما قال:﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ و لم يقل (إليها)، إشارة إلى قبول الأعمال الصالحة، ومرتبته الزكية. وهذا لأن كلمة (إلى) للغاية، فلو قال: وما يعرج إليها، لفهم الوقوف عند السماوات. فقال: وما يعرج فيها، ليفهم نفوذها فيها، وصعودها منها. ولهذا قال الله: ﴿يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[فاطر:١٠]،لأن الله هو المنتهى، ولا مرتبة فوق الوصول إليه. وأما السماء في دنيا وفوقها منتهى. قوله: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ رحيم بالإنزال، حيث بين أن الرزق من السماء. غفور: عندما تعرج إليه الأرواح والأعمال، فرَحِمَ أولًا بالإنزال، وغفر ثانيا عند العروج"[٥١٨].

ثم وإن هذه النعمة التي يستحق الله لها الحمد، وهو نعمة الآخرة أنكرها قوم، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾، ثم ردّ عليهم، وقال: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[سبأ:٣] أخبر بإتيانها، وأكده بدليل، وهو قوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وبيان كونه دليلا، هو أن المسيء قد يبقى في الدنيا مدة مديدة، وفي اللذات العاجلة، ويموت عليها، والمحسن قد يدوم في دار الدنيا في الآلام الشديدة مدة، ويموت فيها، فلولا دار تكون الأجزية

---

[٥١٦] في الأصل (منها)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/١٩١.

[٥١٧] في *مفاتيح الغيب* للرازي (والأحياء)،٢٥/١٩١.

[٥١٨] مفاتيح الغيب، ٢٥/١٩٠-١٩٢.

فيها، لكان الأمر على خلاف الحكمة. ومع هذا أكد بقوله: ﴿عَٰلِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُبِينٍ﴾، "وذلك أنه إذا كان عالما بجميع الأشياء، يعلم أجزاء الأحياء، ويقدر على جمعها، فالساعة ممكنة القيام. وقد أخبر[عنها][519] الصادق، فتكون واقعة. وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فِى السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ﴾، فيه لطيفة، وهي أن الإنسان له جسم، وروح، والأجسام أجزاؤها في الأرض، والأرواح في السماء، فقوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارة إلى علمه بالأرواح. وقوله: ﴿وَلَا فِى الْأَرْضِ﴾، إشارة إلى علمه بالأجسام. وإذا علم الأرواح والأشباح، وقدر على جمعها، لا يبقى استبعاد في المعاد. وقوله: ﴿وَلَا أَصْغَرُ﴾، وذلك إشارة إلى أن مثقال الذرة ليس للتحديد، بل الأصغر منه لا يعزب.

ثم لما بين علمه بالصغائر والكبائر، ذكر أن جمع ذلك وإثباته للجزاء،﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، ذكر فيهم أمرين: الإيمان، والعمل الصالح. وذكر لهم أمرين: المغفرة، والرزق الكريم. فالمغفرة جزاء الإيمان، وكل مؤمن مغفور له، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء:٤٨]، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: "يُخرَج من النار[520] من قال لا إلـه إلا الله، وفي قلبه وزن ذرة من إيمان"[521]، والرزق الكريم [من][522] العمل الصالح، وإنما وصف

---

[519] في الأصل (عنه)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/١٩٢.

[520] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/١٩٢.

[521] البخاري: كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (٤٤)، من حديث أنس بن مالك، ولفظه: "وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ".

الرزق بالكريم، لأنه بمعنى [ذي[٥٢٣]]كرم، أو لأنه يأتي من غير طلب، بخلاف رزق الدنيا فإنه يطلبه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، لما بيّن حال المؤمنين يوم القيامة، بيّن حال الكافرين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾، معناه والذين كذبوا بآياتنا، وحينئذ يكون هذا في مقابلة ما تقدم، لأن قوله تعالى: آمنوا، معناه: صدقوا، وهذا معناه: كذبوا. ومعنى ﴿مُعاجِزِينَ﴾ أي ظانين أنهم يفوتون الله، وعلى هذا [يكون][٥٢٤] كون الساعي ساعيا بالباطل في غاية الظهور، و﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ في مقابلة ﴿لَهُمْ رِزْقٌ﴾[الصافات:٤١]، قوله:﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وتفسيره قد تقدم، وإنما قال بلفظة صالحة للتبعيض، لأنه إشارة إلى سعة رحمته، وقلة عذابه.

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ لما بيّن حال من يسعى في التكذيب في الآخرة، بيّن حاله في الدنيا، وهو أن سعيه باطل، ثم بيّن أن من أوتي علما [لا يغتر بتكذيبه][٥٢٥]، ويعلم أن ما أنزل إلى محمد ﷺ حقّ وصدق. وقوله: ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ يفيد الحصر، أي ليس الحقّ إلا ذلك. وقوله: ﴿يَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، بيان لكونه هو الحقّ، فإنه هادٍ إلى هذا

[٥٢٢] في الأصل (على)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/١٩٢.

[٥٢٣] في الأصل (ذا)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/١٩٣.

[٥٢٤] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/١٩٣.

[٥٢٥] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/١٩٤.

الصراط، وهو يفيد رغبة ورهبة، فإنه إذا كان عزيزا يكون ذا انتقام ينتقم من الذي يسعى في التكذيب، وإذا كان حميدا يشكر سعي من يصدق ويعمل صالحا"[٥٢٦].

"ثم قال تعالى: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ﴾ وجه الترتيب: هو أن الله تعالى لما بيّن أنهم أنكروا الساعة، وردّ عليهم بقوله: ﴿بَلى وَرَبّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وبيّن ما يكون بعد إتيانها من جزاء المؤمن على عمله الصالح، وجزاء الساعي في تكذيب الآيات بالتعذيب على السيئات، بيّن حال المؤمن والكافر بعد قوله: ﴿بلى وَرَبّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، فقال المؤمن: الذي أنزل إليك من ربّك الحق وهو يهدي، وقال الكافر: الذي يقوله باطل. ومن غاية اعتقادهم في إبطال ذلك قالوا على سبيل التعجب: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

ثم قال تعالى بعده: ﴿أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ هذا يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون تمام قول الذين كفروا، ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب لمن قال: هل ندلكم؟ كأن السامع لما سمع قول القائل: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ﴾ قال له: [أهو][٥٢٧] يفتري على الله كذبا؟ إن كان يعتقد خلافه، أو به جنون؟ إن كان لا يعتقد خلافه. ثم إنه تعالى أجابهم مرة أخرى وقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ﴾[٥٢٨]،في مقابلة قولهم: ﴿أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، وقوله: ﴿وَالضَّلَلِ الْبَعِيدِ﴾ في مقابلة قولهم: ﴿بِهِ جِنَّةٌ﴾ فكلاهما مناسب، أما

---

[٥٢٦] *مفاتيح الغيب*، ١٩٢/٢٥-١٩٤.

[٥٢٧] في الأصل (هو)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،١٩٥/٢٥.

[٥٢٨] في الأصل (بل الذين كفروا في العذاب)، وهو خطأ في كتابة الآية.

العذاب فلأن نسبة الكذب إلى الصادق شهادة تودي إلى أنه من بين من يستحق العذاب، فجعل العذاب عليهم حيث [نسبوه إلى الكذب][٥٢٩]، وأما الجنّون فلأن نسبة الجنّون إلى العاقل دونه في الإيذاء، لأنه لا يشهد عليه بأنه يعذب، ولكن ينسبه إلى عدم الهداية، فبيّن أنهم الضالون، ثم وصف ضلالهم بالبعد، لأن من سمى المهتدي ضالا يكون أضل، والنبي ﷺ [كان][٥٣٠] هادي كل مهتد.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لما ذكر الدلالة بكونه عالم الغيب، وكونه جازيا على السيئات والحسنات، ذكر دليلا آخر، وذكر فيه تهديدا. أما الدليل فقوله: ﴿السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنهما يدلان على الوحدانية، وكما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[لقمان:٢٥]، ويدلان على الحشر لأنهما يدلان على كمال قدرته ومنها الإعادة. وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾[يـــس:٨١]، وأما التهديد فبقوله: ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْنُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أي لكل من يرجع إلى الله [ويترك التعصب]"[٥٣١].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

---

[٥٢٩] في الأصل (نسبوا العذاب)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/١٩٥.

[٥٣٠] في الأصل (كل)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/١٩٥.

[٥٣١] في الأصل (وترك الغضب)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/١٩٥.

"قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ يشير بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ﴾ إلى الثناء على نفسه، والمدح لذاته، إخبارا عن كمال [جلاله][٥٣٢]، واستحقاقه لنعوت عزه وجماله، فهو في الأزل حامد لنفسه محمود، واحد موجود،[وفي الآزال][٥٣٣] معبود، و[بالطلبات][٥٣٤] مقصود. ﴿ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ﴾ مِلكا ومُلكا، [لا شريك][٥٣٥] لأحد فيهما، فلا ملك ولا مالك إلا هو. ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ ذكر بلام التمليك، وذكر الحمد بالألف واللام، وهي لاستغراق الجنّس، يعني كل حمْدٍ حَمَدَ به الحامدون في السماوات والأرض، وفي الدنيا والآخرة، وكل حمد يحمد به أحد من خلقه، راجع إليه، لأنه هو[أهل][٥٣٦] الحمد، والحمد ملك له، [لا شريك][٥٣٧] لأحد فيه، و[أنه][٥٣٨] حمد نفسه بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وأنزله على خلقه ليحمدوه بحمد قديم لذاته القديم، فإن الحمد المحدث تدركه الأفهام المحدثة، لا يصلح لذاته القديم، ولهذا ليلة المعراج. كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ: "اثنِ علي، قال: لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك"، يعني الثناء المحدث من محدث لا يصلح لذاتك القديم، إلا ثناؤك القديم الصادر من ذاتك القديم من

---

[٥٣٢] في الأصل (جماله)، وصححتها من: نجم الدين الكُبرى: أحمد بن عمر بن محمد، (ت. ٦١٨هـ/١٢٢١م)، *التأويلات النجمية في التفسير الإشاري الصوفي*، دار الكتب العلمية – بيروت، ط (١)، ٢٠٠٩م،٥/٩٠.

[٥٣٣] في الأصل (ولا يزال)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/٩٠.

[٥٣٤] في *التأويلات النجمية* (وبالظلمات)،٥/٩٠.

[٥٣٥] في *التأويلات النجمية* (لا شركة)،٥/٩٠.

[٥٣٦] في *التأويلات النجمية* (أصل) ،٥/٩٠.

[٥٣٧] في *التأويلات النجمية* (لا شركة)،٥/٩٠.

[٥٣٨] في الأصل (وإنما)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/٩٠.

الأزل إلى الأبد، بلا بداية ولا نهاية، يصلح لذاتك الذي لا أول له ولا آخر له، بل أنت أول كل [شيء][٥٣٩]، وآخر كل آخر، وظاهر كل ظاهر، وباطن كل باطن. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فيما قدّر ودبّر. ﴿الْخَبِيرُ﴾ بما خلق كيف خلق، و[بما][٥٤٠] خلق.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض البشرية، بواسطة الحواس الخمسة، والأغذية الصالحة والفاسدة من الحلال والحرام. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من الصفات، والأعمال المنجية عنها. ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ﴾ سماء القلب، من الفيض الروحاني، والإلهامات [الربّانية][٥٤١] ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيها﴾ من [آثار][٥٤٢] الفجور والتقوى، وظلمة الضلال ونور الهدى. ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ لمن تولاه. ﴿الْغَفُورُ﴾ الغفور لذنوب أهل ولايته.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾، أي وقالت النفوس الكاذبة المكذبة، أن القيامة ليست آتية، وكذبوا الرسل، وما قبلوا دعوتهم ولا شرائعهم، وتابعوا هواهم، وهذا الكفر من التكذيب والتمني الفاسد، طبيعة النفوس كلها، فمن وكله الله بالخذلان إلى طبيعة نفسه، [تكون هذه الخصال سجنه أبدا][٥٤٣]،وإذا أراد الله بعبد خيرا ينظر إلى قلبه بنظر العناية، ويسمعه قوله: ﴿قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الساعة، و[ينطقه][٥٤٤] بهذا الإقرار، وتصديق الرسل، وقبول الشريعة والعمل بها. وهو﴿عالِمِ الْغَيْبِ﴾ غيب القلوب، والشهادة شهادة

---

[٥٣٩] في الأصل (أول)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/٩١.

[٥٤٠] في الأصل (لما)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/٩١.

[٥٤١] في الأصل (الرباني)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/٩١.

[٥٤٢] في الأصل (آثا)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/٩١.

[٥٤٣] في الأصل (يكون من سجيتها أبدا)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/٩١.

[٥٤٤] في *التأويلات النجمية* (وينطبق) ،٥/٩١.

النفوس. ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مما يجري ﴿فِى السَّمٰوٰتِ﴾ سماوات القلوب، ﴿وَلَا فِى الْأَرْضِ﴾ أرض النفوس. ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلاَّ فِى كِتٰبٍ مُبِينٍ﴾ مكتوب عنده في أم الكتاب، وبتقديره يجري ما يجري على أهل القلوب كما اقتضت الحكمة الإلــٰهية، والمشيئة القديمة.

﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّٰلِحٰتِ﴾ خير الجزاء، ﴿أُوْلٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوب النفوس، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ من كرم الحق وفضله للأرواح والقلوب، والمواهب السنية.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِى ءَايٰتِنَا﴾ أي في إبطال [القرآن][٥٤٥] أنه منا، هذا يشير إلى الفلاسفة الذين يقولون أن محمدا – عليه السّلام – كان حكيما من الحكماء، وبالحكمة أخرج هذا الناموس الأكبر– يعنون النبوة والشريعة– ويزعمون أن القرآن كلامه، أنشأه من تلقاء نفسه، يسعون في هذا المعنى معاجزين، مجاهرين جهرا تاما في إبطال الحق، وإثبات الباطل. ﴿أُوْلٰئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ الرجز: أسوء الطرد والإبعاد.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من عند الله موهبة لا من عند الناس. ﴿ٱلَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ من النبوة، والقرآن، والحكمة. ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ وإنما [يرون][٥٤٦] هذه الحقيقة، لأنهم ينظرون بنور العلم الذي [أريتهم][٥٤٧] من الحق، فإن الحق لا يُرى إلا بالحق، كما أن النور لا يُرى إلا بالنور، ولما يرى الحق بالحق، كان الحق هاديا لأهل الحق، وطالبه إلى طريق الحق،

---

[٥٤٥] سقط من الأصل، وكتبته من *التأويلات النجمية*،٥/٩٢.

[٥٤٦] في الأصل (يريدون)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/٩٢.

[٥٤٧] في الأصل (أوتيهم)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/٩٢.

وذلك قوله: ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ العزيز لأنه لا يوجد إلا بهدايته، الحميد لأنه لا يرد الطالب بغير وجدان، كما قال: "أَلَا مَن طَلَبَنِي وَجَدَنِي".

ثم أخبر عن منكري البعث بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالاستهزاء ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يشير إلى تراكم الغفلة على القلوب، وظلمات الشهوات النفسانية، وغلبات الصفات الذميمة الحيوانية، إذا استولت أرخت حجبها بين الروح والقلب، فيُحرَم القلب[عن الاستنارة][٥٤٨] بنور الروح، ويسودّ بظلمات صفات النفس، ويقسو حتى ينسى الله، وينسى عالم الأرواح هو الآخرة، ويقول مستهزئا ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ويتعجب من هذا الكلام، ولا يتفكر أن أجزاءه كانت متمزقة حين هو ذرة أخرجت من صلب آدم، كيف جمع الله ذرات شخصه المتفرقة، وجعلها خلقا جديدا، كذلك يجمع الله الأجزاء الممزقة للبعث.

ويقول منكرا متعجبا ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾؟! فقال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ من الغفلة وكثرة الحجب، ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ من العمى والصمم، ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ وهو البعد عن الحضرة. ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾[٥٤٩] سماء القلب، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أرض النفس، أي ما بين أيديهم من صفات القلب، وما

---

[٥٤٨] في *التأويلات النجمية* (من الاستفادة) ٥/٩٣.

[٥٤٩] في الأصل (أَوَلَم)، وهو خطأ في كتابة الآية.

[خلفهم][550] من صفات النفس. ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ أرض البشرية بغلبات صفاتهم، ﴿أَوْنُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي نقلب عليهم صفة من صفات القلب، ونهلكهم بها، لأن كل صفة من صفات القلب وإن كانت حميدة، فإذا جاوزت حدّها تؤول إلى [الضدّ][551]، فتصير ذميمة، كالسخاوة، فإنها حميدة من صفات القلب، فإذا جاوزت حدّها يكون تبذيرا، وهو ذميم، ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾[الإسراء:٢٧]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ راجع إلى الله، يرى الآيات بنور الله"[552].

[فصل في التفسير الصوفي النظري]

"قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بجعله مظاهر لصفاته الظاهرة، وكمالاته الباهرة. ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ بتجليه على الأرواح بالكمالات الباطنة، والصفات الجمالية، أي له الحمد بالصفات الرحمانية في الدنيا ظاهرا، وله الحمد بالصفات الرحيمية في الآخرة باطنا.﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم ترتيب عالم الشهادة بمقتضى حكمته.﴿الْخَبِيرُ﴾ الذي نفذ علمه في بواطن عالم الغيب بلطافته.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من الملكوت الأرضية، والقوى الطبيعية. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ بالتجريد من النفوس الإنسانية، والكمالات الخلقية، والأرواح القدسية، مع المعارف الحقيقية. ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من المعارف، والحقائق الروحانية. ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ من

---

[550] في الأصل (وما بينهم)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/٩٣.

[551] في *التأويلات النجمية* (الصفة)،٥/٩٣.

[552] *التأويلات النجمية*، ٥/٩٠-٩٤.

هيئات الأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة.﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بإفاضة الكمالات السماوية النورانية.﴿الْغَفُورُ﴾ بستر الهيئات الأرضية الظلمانية.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي العلماء العارفون، المحققون، يرون حقية ما أنزل إليك عيانا، لأن المحجوب لا يمكنه معرفة العارف، إذ كل عارف بشيء لا يعرفه [إلا بما في نفسه][٥٥٣]، فمن لم يكن له حظ من العلم، ونصيب من المعرفة، لا يعرف العالم العارف، وعلمه لخلوّه عمّا به يمكن معرفته. ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ﴾[طريق][٥٥٤] الوصول إلى الله. ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي يغلب المحجوبين، ويمنعهم بالقهر والقمع.﴿الْحَمِيدِ﴾ الذي ينعم على المؤمنين العارفين بأنواع اللطف، ووصفهم بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾"[٥٥٥] هذا هو الباطن، والإقرار بظواهرها واجب، والله أعلم بسرائر الأمور.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ

---

[٥٥٣] في تفسير القرآن الكريم لابن عربي (إلا بما فيه من معناه)،٢/١٤٨. ابن عربي: محمد بن علي بن محمد، أبو بكر الأندلسي، المعروف بمحيي الدين (ت. ٦٣٨هـ/١٢٤٠م)، *تفسير القرآن الكريم ابن عربي*، تحقيق: مصطفى غالب، دار الأندلس – بيروت، ط (٤)، ١٩٧٨م.

[٥٥٤] سقط من الأصل، وكتبتها من *تفسير ابن عربي*،٢/١٤٨.

[٥٥٥] *تفسير ابن عربي*، ٢/١٤٨–١٤٩.

يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ (١٣)﴾.

[فصل في التفسير بالرواية]

ثم أخبر عن فضله بعد أن أخبر عن عدله، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ "أي ولقد آتينا داود – عليه السّلام – أمرا، يعني: النبوة، والمُلك، فضلناه به على غيره من أهل عصره، وهو ما قال: ﴿يَٰجِبالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ قلنا يا جبال رجعي معه ما يأتي به من ذكر الله تعالى، سبحي مع داود، ﴿وَالطَّيْرَ﴾ والطير منصوب بترع الخافض، يعني أوّبي معه ومع الطير، ويقال: أنه معطوف على (فضلا). ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ يعني جعلنا الحديد مثل العجين، وقال قتادة – رحمه الله –: كان الحديد في يده مثل الشمع يصرفه كيف يشاء، من غير نار، ولا مطرقة، وكان يتخذ منه الدروع. ﴿أَنِ اعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ بمعنى قلنا له: اعمل الدروع الواسعة. ﴿وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ﴾ أي قدّر طولها وعرضها، وضيقتها وسعتها، ويقال: قدّر في تأليفه، والسّرد في اللغة: تَقدِمَةُ الشيء إلى الشيء متّسقا بعضه في أثر بعض متتابعا[٥٥٦].

﴿وَاعْمَلُوا صَٰلِحًا﴾ أي وأدّوا الفرائض. ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعني عالما، وإنما خاطب بلفظ الجماعة كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾[المؤمنون:٥١] أراد به النبي ﷺ خاصة، ويقال: أنه أراد به وقومه بقرينة: ﴿إِنِّى بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وهذا ترغيب وترهيب.

---

[٥٥٦] ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، *لسان العرب*، ٣/٢١١.

﴿وَلِسُلَيْمنَ الرِّيحَ﴾ يعني سخرنا لسليمان الريح. ﴿غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾ يعني تسير به الريح عند الغداة مسيرة شهر فتحمله مع جنوده من بيت المقدس إلى إصْطَخْر[٥٥٧]، ﴿وَرَواحُها شَهْرٌ﴾ يعني تسير عند آخر النهار مسيرة شهر من إصْطَخْر إلى بيت المقدس. ﴿وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ يعني أذبنا له عين النحاس،[فأجريناها][٥٥٨] له حتى سالت، كما ألـنّا الحديد لداود – عليه السّلام – دلالة على نبوته. وقال مجاهد– رحمه الله–: سالت من صنعاء ثلاث ليال بأيامها، وقال شهر بن حوشب: جرى له عين النحاس من صنعاء فيعمل به ما أحب. ﴿وَمِنَ الجنّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني وسخرنا لسليمان من الجنّ من يعمل بين يديه.﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي بأمر ربّه. ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا﴾ يعني ومن يعص سليمان فيما أمره.﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ﴾ قال بعضهم: كان معه ملك، ومعه سوط، فإذا خالف سليمان أحد من الشياطين، ضربه بذلك السوط. وقال مقاتل: يعني عذاب الوقود في الآخرة[٥٥٩].

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشاءُ﴾ سليمان ﴿مِنْ مَحَٰرِيبَ﴾، قال ابن كيسان– رحمه الله–: أي المجالس الشريفة، والمنازل الرفيعة، ورحال المساجد. ﴿وَتَمثِيلَ﴾ يعني على صور الرجال من الصخر والنحاس، لأجل الهيبة في الحرب وغيره، ويجعل صورة الأنبياء – صلوات الله عليهم

---

[٥٥٧] إصْطَخْر: حاليا مدينة (شيراز)، التي توجد في جنوب إيران، أول من أنشأها ملك الفرس إصْطَخْر بن طهمورث، وهي أشهر مدن فارس وأقدمها. ياقوت: معجم *البلدان*،١/٢١١. الحميري: *الروض المعطار*، ص٤٣–٤٤.

[٥٥٨] في الأصل (فأجرينا)، وصححتها من *التيسير*.

[٥٥٩] الصحيح أن مقاتل قال: الوقود في الدنيا كان ملك بيده سوط من نار من يزغ عن أمر سليمان ضربه بسوط من نار فذلك عذاب السعير. مقاتل: *تفسير مقاتل*،٣/٥٢٧.

أجمعين- والصالحين، ليقتدي بهم، وليزيد للناس رغبة في الإسلام. ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ يعني قصاعا كالحياض الكبيرة، يجلس على كل قصعة واحد ألف رجل أو أقل أو أكثر. ﴿وَقُدُورٍ راسِيٰتٍ﴾ أي ثابتات في الأرض، وكان يتخذ القدور من الجبال. قال مقاتل: كان ملكه ما بين مصر وكابل[٥٦٠]. وقال بعضهم: جميع الأرض، وقيل: كان يسع في كل قدر ألف شاة. ﴿اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أي وقلنا لهم: اعملوا لله على الخلوص شكرا لنعمه عليكم. ويقال: اعملوا يا آل داود شكرا لما أعطيتكم من الفضل. ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ أي قليل من شكر على الأحوال كلها. ويقال: قليل من يرى عجزه عن الشكر. ويقال: وقليل من يشكر لي بلسانه وبقلبه، فيرى نعمة الله عليه، وببدنه فيتجه في طاعة ربّه. وقال الإمام القُشيري[٥٦١]- رحمه الله -:الشكور من زاد شكره على شكر أمثاله"[٥٦٢]. والنعمة بالشكر تعلو وتزيد، وللشاكر عند الله تعالى من المزيد، قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[إبراهيم:٧]، ومن رأى نعم الله متواترة عليه شكر، ونعمائه المترادفة عليه ذكر، وقال الحمد لله ربّ العالمين، حمدا دائما لربّوبيته، وكرَم وجهه، وعزّ جلاله، أعطي ثواب جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل.

---

[٥٦٠] مقاتل: *تفسير مقاتل*،٣/٥٢٧.

[٥٦١] القشيري: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوريّ، أبو القاسم، ولد في عام (٣٧٦هـ/٩٨٦م)، كان عالما بالدين وشيخ خراسان في عصره. أقام بنيسابور وتوفي فيها في (٤٦٥هـ/١٠٧٢م). من مؤلفاته: (*التيسير في التفسير*)، و(*لطائف الإشارات*)، و (*الرسالة القشيرية*)، وغيرها. السبكي: *طبقات الشافعية*،٥/١٥٣. حاجي خليفة: *كشف الظنون*،١/٤٥٧-٢/١٥٥١. الزركلي: *الأعلام*،٤/٥٧.

[٥٦٢] التيسير في التفسير، ١٢/٢٢٨-٢٣٦، القشيري: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، *لطائف الإشارات*، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، ط (٣)،٣/١٧٩.

[فصل في التفسير بالرأي]

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّى بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [٥٦٣].

"قوله تعالى:﴿مِنَّا﴾ إشارة إلى بيان فضيلة داود – عليه السّلام – كما يقال آتاه منه خلقه يفيد أنه كان من خاصّ ما يكون له، ومثله قوله تعالى:﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ﴾[التوبة:٢١] فإن رحمة الله واسعة تقبل إلى كل أحد في الدنيا، لكن رحمته في الآخرة على المؤمنين من عنده لخواصّه، فقال:﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾، قوله:﴿يَٰجِبالُ أَوِّبِى مَعَهُ﴾ معناه يا جبال سيري معه، وفي قوله: يُسبّحن، قالوا هو من السباحة، وهي الحركة المخصوصة. قوله: ﴿وَالطَّيْرَ﴾ قُرِئَ والطيرَ بالنصب حملا على محل المنادى[٥٦٤]، وبالرفع حملا على لفظه. قوله:﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ وهو عطف على ﴿ءَاتَيْنا﴾، تقديره: [آتيناه فضلا][٥٦٥] وألنّا له الحديد، وتفسيره قد تقدم. ثم قال تعالى:﴿أَنِ اعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ قيل: أن اعمل (أن) ههنا للتفسير فهي مفسرة، بمعنى أي اعمل سابغات، وهي تفسير (ألنّا) وتحقيقه لِأن يعمل، يعني ألنّا الحديد ليعمل سابغات، ويمكن أن يقال: ألهمناه أنِ اعمل، وأنْ مع الفعل المستقبل للمصدر فيكون ألنّا له الحديد وألهمناه عمل سابغات، وهي الدرع الواسعة. ﴿وَقَدِّرْ

---

[٥٦٣] سقط من الأصل كلمة (فضلا)، وهو خطأ في كتابة الآية.

[٥٦٤] ابن جني: *المحتسب*، ٨/١.

[٥٦٥] في الأصل (آتينا فضله)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ١٩٦/٢٥.

فِي السَّرْدِ﴾ قال المفسرون: أي لا تُغلّظ المسامير [فيتمدد][٥٦٦] الثقب، ولا توسع الثقب فتقلقل المسمار فيها. وقوله:﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ إشارة إلى أنك غير مأمور به أمر إيجاب، إنما هو اكتساب، والكسب يكون بقدر الحاجة، وباقي الأيام والليالي للعبادة، فقدر ذلك في العمل، ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب، بل حصل به القوت فحسب، ويدل عليه قوله تعالى:﴿وَاعْمَلُوا صَٰلِحًا﴾ أي لستم مخلوقين إلا للعمل الصالح، فاعملوا ذلك وأكثروا منه، فقدروا الكسب، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله:﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وقد ذكرنا مرارا أن من يعمل لَملِك شغلا، ويعلم أنه بمرأى من الملِك يحسن العمل، ويتقيد، ويجتهد فيه.

ثم لما ذكر المنيب الواحد ذكر منيبا آخر وهو سليمان، كما قال تعالى:﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[ص:٣٤]، وذكر ما استفاد هو بالإنابة فقال:﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ والمسخر لسليمان كانت ريحا مخصوصة لا هذه الرياح، لأنها لمنافع عامة في أوقات الحاجات، ويدل عليه قوله: أنه لم يقرأ إلا على التوحيد، فما قرأ أحد الرياح.

واعلم أن الله تعالى ذكر ثلاثة أشياء في حق داود – عليه السّلام –: فالجبال المسخرة لداود من جنس الريح لسليمان، وذلك لأن الثقيل مع ما هو أخف منه إذا تحرّكا يسبق الخفيف الثقيل، ويبقى الثقيل مكانه، لكن الجبال كانت أثقل من الآدمي، والآدمي أثقل من

---

[٥٦٦] في *مفاتيح الغيب* (فيتسع)، ٢٥/١٩٦.

الريح، فقدر الله أن سار الثقيلُ مع الخفيف،[أي][٥٦٧] الجبال مع داود، وسليمانُ وجنودُه مع الريح، الثقيلُ مع الخفيف أيضا، والطير من جنس تسخير الجنّ، لأنهما لا يجتمعان [مع الإنسان][٥٦٨]، الطير لنفوره من الإنس، والإنس لنفوره من الجنّ، فإن الإنسان يتقي مواضع الجنّ، والجنّ أبدا يطلب اصطياد الإنس، والإنس يطلب اصطياد الطير، فقدر الله أن صار الطير لا ينفر من داود، بل يستأنس به ويطلبه، وسليمان لا ينفر من الجنّ، بل يسخّره ويستخدمه، وأما القطر والحديد فتجانسهما غير خفي، واعلم أن ههنا لطيفة: وهي أن الآدمي ينبغي أن يتقي الجنّ ويجتنبه، والاجتماع به يفضي إلى المفسدة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّيٰطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾[المؤمنون:٩٧- ٩٨]، فكيف طلب سليمان الاجتماع بهم؟ وذلك أن قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ إشارة إلى أن ذلك الحضور لم يكن فيه مفسدة. ولطيفة أخرى: وهي أن الله تعالى قال ههنا: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بلفظ الربّ، وقال:﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا﴾ ولم يقل: عن أمر ربّه، وذلك لأن الربّ لفظ ينبئ عن الرحمة، فعند ما كانت الإشارة إلى حفظ سليمان – عليه السّلام –، قال: ربّ، وعندما كانت الإشارة إلى تعذيبهم، قال: أمرنا، بلفظ التعظيم الموجب لزيادة الخوف. وقوله تعالى: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ﴾ وتفسيره قد تقدم. ثم قال تعالى:﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوابِ﴾ لما ذكر البناء الذي هو المسكن بيّن ما

---

[٥٦٧] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/١٩٨.

[٥٦٨] في الأصل تكرار لجملة (مع الإنسان)،٢٥/١٩٨.

يكون في المسكن من ماعون الأكل، فقال:﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ وتفسير جفان كالجواب قد تقدم.

واعلم أنه تعالى قدّم المحاريب على التماثيل، لأن النقوش تكون في الأبنية والجفان، وقدّم الجفان في الذكر على القدور، مع أن القدور آلة الطبخ، والجفان آلة الأكل، والطبخ قبل الأكل، وذلك لما بيّن الأبنية المَلَـكية أراد بيان عظمة السماطِ الذي يُمدّ فيها، وأشار إلى الجفان لأنها تكون فيه، وأما القدور فلا تكون فيه، ولا تُحضَرُ هناك، ولهذا قال: راسيات أي غير منقولات. ثم لما بين حال الجفان العظيمة، كان يضع الطعام فيها بيّن في أي شيء يُطبخ، فأشار إلى القدور المناسبة للجفان. وإنما ذكر في حقّ داود اشتغاله بآلة الحرب، وعن سليمان بحالة السلم لأن داود وقع في زمان الملوك الجبابرة فكان اشتغاله آلة الحرب مناسبا لداود – عليه السّلام –، وإن سليمان كان وقع في زمان العظمة بالإطعام والإنعام، فذلك مناسب لسليمان – عليه السّلام –.

واعلم أنه لما قال عقيب قوله:﴿أَنِ اعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾، ﴿اعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، قال عقيب ما يعمله الجنّ له:﴿اعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا أن هذه الأشياء لا ينبغي أن يجعل الإنسان نفسه مستغرقة فيها، وإنما الواجب الذي ينبغي أن يكثر منه هو العمل الصالح، الذي يكون شكرا، وفيه إشارة إلى عدم الالتفات إلى هذه الأشياء، وقلة الاشتغال به كما في قوله:﴿وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ﴾ أي اجعله بقدر الحاجة. وانتصاب (شكرا) يحتمل أن يكون مفعولا له، ويحتمل أن يكون مصدرا، وتقديره: اشكروا شكراً، ويكون المصدر من غير لفظ الفعل، فقوله: (اعملوا) قام مقام (اشكروا)، ويحتمل أن يكون مفعولا، كقولنا: ضربت زيدا. قوله

تعالى:﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ إشارة إلى أن الله خفف الأمر على عباده، وذلك لأنه لما قال:﴿اعْمَلُوا ءَالَ داوُدَ شُكْرًا﴾ فُهِمَ منه أن الشكر واجب، لكن شكر نعمه كما ينبغي لا يمكن، لأن الشكر بالتوفيق، وهو نعمة تحتاج إلى شكر آخر، وهو بتوفيق[آخر][٥٦٩]، وذلك يتسلسل، فقال تعالى إن كنتم لا تقدرون على الشكر التام فليس في ذلك حرج، فإن عبادي قليل منهم الشكور. أو يقال قوله: (قليل) يدل على أن في عباده من هو شكور لأنعمه، بقدر الطاقة البشرية هو الواقع وقليل فاعله، والشكر الذي يناسب نعم الله فلا قدرة عليه، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها. أو يقال: الشكر التام ليس إلا من رضي الله عنه، وقال له: يا [عبدي][٥٧٠] ما أتيت من الشكر القليل قبلته منك وكتبت لك أنك شاكر لأنعُمي بأسرها، وهذا القبول نعمة عظيمة لا أكلفك شكرها"[٥٧١].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

"قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ يشير بهذا إلى داود الروح، والفضل الذي أعطاه منه هو[الفيض][٥٧٢] الإلــٰهي بلا واسطة، ولما ذكره بلفظ النكرة يدل على أنه أعطاه شيئا من الفضل، وهو مما يتعلق به تعالى، إذ قال:﴿مِنَّا﴾، والفرق بينه وبين نبينا ﷺ أنه تعالى ذكر فضله في حق داود على صيغة النكرة، وهي تدل على نوع من الفضل، وقال في حق نبينا:﴿وَكانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ والفضل الموصوف بالعظيم يدل على كمال الفضل،

---

[٥٦٩] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/١٩٩.

[٥٧٠] في الأصل (عبادي)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/١٩٩.

[٥٧١] *مفاتيح الغيب*،٢٥/١٩٥-١٩٩.

[٥٧٢] في الأصل (الفضل)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/٩٤.

وكذلك قوله:﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ لما أضاف الفضل إلى الله اشتمل على جميع الفضل، كما لو قال: أخذ دار فلان، اشتمل على جميع الدار. وبقوله:﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ يشير إلى أن الذكر من اللسان يعبر إلى أن يصل إلى الروح ويصير ذاكراً لله، ثم بالمداومة ينعكس نور الذكر من النفس على البدن، فيستوعب جميع أجزاء البدن، ظاهرها وباطنها، ثم ينعكس من أجزاء العنصرية على العناصر الأربعة، مفردها ومركبها، وينعكس من النفس على النفوس، أعني النفس [الإنسانية][٥٧٣]، والنفس الحيوانية، والنفس النجومية، وينعكس نور الذكر من النور الإنساني على عالم الأرواح إلى أن يستوعب جميع العالم ملكه وملكوته، وإلى هذا المقام أشار بقوله تعالى:﴿وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[الإسراء:٤٤]، ثم يعبر الذكر عن المخلوقات ويصعد إلى ربّ العالمين، كما قال تعالى:﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[فاطر:١٠]، فيذكره الله تعالى كما يذكره الذاكر، ففي هذا المقام يتصف العبد بصفة الربّ، ويتخلق بخلقه في الذاكر به والمذكور به، فكما أن الله تعالى يكون ذاكرا ومذكورا، فبحقيقة هذا المقام يعلم حقيقة قوله:﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أنه مذكور به الحق تعالى، وينبئ [عن][٥٧٤]هذا المعنى قوله:﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾، يشير بالجبل إلى عالم المُلك، وبالطير إلى عالم الملكوت. وبقوله:﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ يشير إلى إلانة القلب. وقوله:﴿أَنِ اعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ وهي الحكمة البالغة، التي تظهر من قلبه على لسانه. ﴿وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ﴾ أي في سرد الحديث، بأن يتكلم بالحكمة على قدر عقول الناس. وأشار بقوله:﴿وَاعْمَلُوا صَٰلِحًا﴾

---

[٥٧٣] في الأصل (النامية)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/٩٤.

[٥٧٤] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٥/٩٥.

أشار إلى أعماله الظاهرة والباطنة، أن يعمل في العبودية كل واحد منها عملا يصلح لهما، ولذلك خلقت. ﴿إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ﴾[كل واحدة منهن][٥٧٥]. ﴿بَصِيرٌ﴾ وبالبصارة خلقكن، وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود: يا داود كانت تلك الزلة مباركة عليك، فقال: يا ربّ فكيف تكون تلك الزلة مباركة؟ فقال: كنت تجيء كما يجيء المطيعون، فالآن تجيء كما يجيء أهل الذنوب. ومنها ما أوحى الله إليه: "يا داود أنين المذنبين أحبّ إلي من صراخ العابدين"[٥٧٦]. ويقال: كان داود يقول: اللّهم لا تغفر [للخطائين][٥٧٧]. غيرة منه، وصلابة في الدين، فلما وقع له ما وقع، كان يقول: اللهم اغفر للمذنبين. [وقيل][٥٧٨]: لما تاب الله عليه، واجتمع الإنس والجنّ والطير بمجلسه، فلما رفع صوته، وأدار[لسانه[٥٧٩]]في حنكه، على حسب عادته، تفرقت الطيور، وقالوا: الصوت صوت داود، والحال ليست تلك. فبكى داود – عليه السّلام – وقال: ما هذا يا ربّ؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود هذا من وحشة الزلة، وكانت أنس[الطاعة][٥٨٠].

وبقوله:﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾ يشير إلى القلب وسيره إلى عالم الروح، وسرعته في السير، للطافته بالنسبة إلى كثافة النفس وإبطائها في السير، وذلك لأن

---

[٥٧٥] في الأصل (كل واحد منكن)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/٩٥.

[٥٧٦] البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي الخراساني، شعب الإيمان، فصل في الطبع على القلب أو الرين، رقم (٦٨٦٤)، ٣٩٦/٩. ولكن الرواية في كتاب البيهقي: "أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام: أنين المذنبين أحب إلي من صراخ الصديقين".

[٥٧٧] في الأصل (الخطائين).

[٥٧٨] في الأصل (وقال)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٩٦/٥.

[٥٧٩] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٩٦/٥.

[٥٨٠] في الأصل (والطاعة)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٩٦/٥.

مركب النفس في السير هو البدن وهو كثيف، بطيء السير، ومركب القلب في السير هو الجذبة الإلـٰهية، وهو من صفات لطفه، كما قال – عليه السّلام –: "قلوب العباد عند الله يقلبها كيف يشاء"[٥٨١]، ويقلبها إلى الحضرة برياح العناية، واللطف كما قال – عليه السّلام –: "قلب المؤمن كريشة في فلاة يقلبها الريح ظهرا عن بطن"[٥٨٢]، وهذا حقيقة قوله:﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ﴾ أي لسليمان القلب سخرنا ريح العناية، وهو ابن داود الروح، ويجري هو بالسر، ولهذا المعنى قيل: أن سليمان في سيرته [لاحظ ملكه يوما فمال الريح ببساطِه[٥٨٣]]، فقال سليمان الريح لداود الروح: استوِ، فقال داود الروح: استو أنت ما دمت مستويا بقلبك كنت مستويا. كذلك حال السر مع القلب، وإذا زاغ القلب أزاغ الله بريح الخذلان لأنه بساط السر، فـــ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرعد:١١]. وبقوله:﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ يشير إلى عين الحقائق والمعاني. ﴿وَمِنَ الجِنّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ وسخرنا له صفات [الشيطان][٥٨٤]، ليعمل بين يديه بإذن ربّه، على وفق أمره ونهيه، لا بطبيعته الشيطانية، ومن هنا قال – عليه السّلام –:

---

[٥٨١] الحديث لم يرد بهذه الصيغة، ولكنه في سنن الترمذي بلفظ: عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: "نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء". الترمذي: سنن *الترمذي*، باب ماجاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم (٢١٤٠).

[٥٨٢] ابن حنبل: *المسند*، رقم (١٩٦٦١)، وهو بهذا اللفظ: "إنما سمي القلب من تقلبه، إنما مثل القلب كمثل ريشة معلقة في أصل شجرة تقلبها الريح ظهرا لبطن". البيهقي: شعب *الإيمان*، الخوف من الله تعالى، رقم (٧٨٠)، ٢٠٧/٢. وأورده البيهقي بلفظ: "مثل القلب كريشة في أرض فلاة تقلبها الرياح ظهرا لبطن".

[٥٨٣] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٩٦/٥.

[٥٨٤] في الأصل (الشيطانية)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٩٦/٥.

"إن الله سلطني على شيطاني فأسلم على يدي فلا يأمرني إلا بخير"[٥٨٥]. ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ﴾ أي سعير المحبة وعذابها، أي نار المحبة تحرق شوكتها.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ﴾ أي لسليمان القلب، ﴿مَا يَشاءُ﴾ وتكون أعمالهم على وفق مشيئته، لا على وفق طبيعتهم ومشيئتهم، ﴿مِنْ مَحَارِيبَ﴾ أي مما يتوجه به إلى الله، فإن الله اختص الشيطان بهذه الصفة من بين سائر المخلوقات، أعني التوجه إلى الله، والسجود له، والإباء، والاستكبار عن [سجدة][٥٨٦] غيره، [وهذا أخلص عبودية لله][٥٨٧]، وأخص وصف وأشرفه الموجودات إذا كان بإذن الله، وأردى خصلة [وأخس][٥٨٨] وصف وأخبثه إذا كان بالطبيعة، وخلاف أمر الله وموجبا للطرد واللعن، كما كان حال إبليس إذ قال تعالى له: يا إبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[الأعراف:١٢] خلقتني من نار، والنار من شأنها طلب العلوّ، والتوجه إلى الحضرة، وخلقته من طين، والطين من شأنه طلب السفلى، والإعراض عن الحضرة، فالله تبارك وتعالى لما خمّر طينة آدم بيده، عجن فيها كل خاصية وصفة اختص بها شيئا من المخلوقات، ليكون عالما بجميع الأشياء بتلك الخصائص، ليقدر على التصرف فيها بخلافة الحق، وليتوسل بها في الرجوع الذي هو مخصوص

---

[٥٨٥] مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، رقم (٢٨١٤). بلفظ: "ما منكم من أحد، إلا وقد وكل به قرينه من الجن. قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير".

[٥٨٦] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٥/٩٧.

[٥٨٧] في الأصل (وبهذا أخص عبودية الله)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/٩٧.

[٥٨٨] في الأصل (وأخص)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/٩٧.

به إلى الحضرة، وبخاصية الإباء، والاستكبار الشيطاني، وأنفته عن[السجود لغير الله][٥٨٩]، يتوجه القلب إلى الله بإعراضه عن غيره، ويقول:﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام:٧٩] يعني الذين أشركوا بتوجههم إلى الدنيا، أو إلى الآخرة، وقال:﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢] ثم قال:﴿وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام:١٦٣] وقوله:﴿وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي إعراضي عن المخلوقات، وإبائي، واستكباري، بالأمر لا بالطبع، ولو وكّل الروح إلى الخاصية الروحانية التي [جبل][٥٩٠] الروح عليها، ما كانت رغبته في العبور عن مقام الروحانيات، كالملائكة عن المقام المعلوم [الروحاني][٥٩١]، وقول بعضهم: لو دنوت أنملة لاحترقت، ولما كان الإنسان محمول العناية وبجذبة: ﴿ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ﴾[الفجر:٢٨]، رجع من أسفل سافلين الموجودات إلى الحضرة فلم يسجد لشيء منها، وعبر عن المقامات كلها إلى أن بلغ سدرة المنتهى، فأراد أن يقف عندها كجبريل، ويقول: "لو دنوت أنملة لاحترقت"، عملت له صفة [الشيطنة النارية التي لا تبالي بالنار محراقا][٥٩٢] محرابا من المحبة، فبتلك الصفة أفدى نفسه لنار نور الإلـٰهي، وعبر ببذل وجوده عن نار الله التي تطّـلع على الأفئدة. ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ يشير إلى مأدبة الله تعالى التي لا نهاية لها، التي يأكل منها الأنبياء والأولياء، إذ يبيتون عنده كما قال – عليه السّلام –:

---

[٥٨٩] في الأصل (سجود غير الله)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/٩٧.

[٥٩٠] في الأصل (جهل)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/٩٨.

[٥٩١] في الأصل (الروني)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/٩٨.

[٥٩٢] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٥/٩٨.

"أبيت عند ربّي يطعمني ويسقيني". ﴿اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ يشير به إلى شكر داود الروح، وسليمان القلب، ومن آله السر، والخفي، والنفس، والبدن، فإن هؤلاء كلهم من متولدات الروح، شكر البدن: استعمال الشريعة لجميع أعضائه، وجوارحه، و[مَحالّ][٥٩٣] الحواس الخمس، ولهذا قال:﴿اعْمَلُوا﴾. وشكر النفس: بإقامة شرائط التقوى، وشكر القلب بمحبة الله وخلوه عن محبة ما سواه. وشكر الروح: مراقبة عن التفاتة بغير الله. وشكر السر: ببذل وجوده على نار المحبة، كالفراش على شعلة الشمعة. وشكر الخفي: قبول الفيض بلا واسطة في مقام الوحدة مخفيا بنور الوحدة. وبقوله:﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ يشير إلى قلة من يصل إلى مقام [الشكورية][٥٩٤]، وهو الذي يكون شكره، فللعوام شكرهم بالأقوال، كقوله:﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾[النمل:٩٣]، وللخواص شكرهم بالأعمال، كقوله:﴿اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾، ولأخص الخواص بالأحوال، وهو الاتصاف بصفة الشكور، والشكور هو الله، لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[فاطر:٣٤] بأن يعطي على عمل فانٍ عشر ثواب باق"[٥٩٥].

[فصل في التفسير الصوفي النظري]

---

[٥٩٣] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٥/٩٨.

[٥٩٤] في الأصل (الشكرية)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/٩٩.

[٥٩٥] *التأويلات النجمية*، ٥/٩٤-٩٩..

"قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي آتينا داود الروح منا فضلا، بعلو[الرتبة][٥٩٦]، وتسبيح المشاهدة، والتفكر، والكمالات العلمية، والعملية، بأن قلنا ﴿يَٰجِبَالُ﴾ الأعضاء، ﴿أَوِّبِى﴾ أي سبّحي ﴿مَعَهُ﴾ بالتسبيحات المخصوصة بك، من الانقياد، والتمرن في الطاعات، بالحركات والسكنات، والأفعال والانفعالات، التي أمرناك بها، وطير القوى الروحانية بالتسبيحات القدسية من الأذكار، والإدراكات، والاستفاضات، والاستشراقات من الأرواح المجردة. ﴿وَأَلَنَّا لَهُ﴾ حديد [الطبيعة][٥٩٧] الجسمانية العنصرية. ﴿أَنِ اعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ من هيئات الورع والتقوى، فإن الورع الحصين في الحقيقة، هو لباس الورع الحافظ من صوارم دواعي أغادي النفوس، وسهام نوازغ الشيطان. ﴿وَقَدِّرْ﴾ بالحكمة العملية، [والصنعة][٥٩٨] المتقنة العقلية والشرعية، في [ترغيب الأعمال المزكية][٥٩٩]. ﴿وَاعْمَلُوا﴾ أيها العاملون لله عملا ﴿صَٰلِحًا﴾ يصعدكم في الترقي إلى الحضرة الإلٰـهية، ويعدّكم لقبول الأنوار القدسية.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ﴾ ريح [الهوى][٦٠٠] النفسانية، ﴿غُدُوُّها شَهْرٌ﴾ أي جريها غداة طلوع نور الروح، وإشراق شعاع القلب، وإقبال نهار السر، في تحصيل الأخلاق، والفضائل، والطاعات، والعبادات. ﴿وَرَوَاحُها شَهْرٌ﴾ أي جريها رواح غروب الأنوار الروحية في الصفات النفسية،

---

[٥٩٦] في الأصل (الربوبية)، وصححتها من *تفسير ابن عربي*،٢/١٤٩.

[٥٩٧] في الأصل (طبيعة)، وصححتها من *تفسير ابن عربي*،٢/١٤٩.

[٥٩٨] في الأصل (والصفة)، وصححتها من *تفسير ابن عربي*،٢/١٤٩.

[٥٩٩] في الأصل (تركيب الأعمال المركبة)، وصححتها من *تفسير ابن عربي*،٢/١٤٩.

[٦٠٠] في الأصل (القوى)، وصححتها من *تفسير ابن عربي*،٢/١٤٩.

وزوال تلألؤ أشعتها في ترتيب مصالح المعاش من الأقوات، والأرزاق، والملابس، والمناكح، وما يتعلق بصلاح [النظام][٦٠١] وقوام البدن. ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ﴾ قطر الطبيعة البدنية [الجامدة][٦٠٢] بالتمرن في الطاعات والمعاملات.﴿وَمِنَ﴾ جنّ القوى الوهمية الخيالية ﴿مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ بحضوره في التقديرات، المتعلق بصلاح العالم، وعمارة البلاد، ورفاهية العباد. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بتسخيره إياها، ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ بمقتضى الطبيعة، وينحرف عن طريق الصواب، بالميل إلى الزخارف النفسية، واللذات البدنية، ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ بالرياضة القوية، بضرب السياط النارية، من الدواعي العقلية، القهرية، المخالفة للطبيعة الشيطانية.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ﴾ المقامات الشريفة، ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ الصور الهندسية، ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ من ظروف الأرزاق المعنوية، وأغذية العلوم الروحانية، والواردات الغيبية واسعة كالحياض. ﴿وَقُدُورٍ راسياتٍ﴾ من تهيئة الاستعدادات لإعداد موارد أمور العلوم والمعارف، بالآراء القوية الثابتة. ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ﴾ الروح بما سخرنا لكم، وأفضنا عليكم من نعم الكمالات، ﴿شُكْرًا﴾ باستعمال هذه النعم في طريق السلوك، والتوجه إليّ، وأداء حقوق العبودية، بالفناء في [فيّ لا في][٦٠٣] تدبير إصلاح الكمالات البدنية. ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ

---

[٦٠١] في الأصل (نظام)، وصححتها من *تفسير ابن عربي*،٢/١٥٠.
[٦٠٢] في الأصل (الجامد)، وصححتها من *تفسير ابن عربي*،٢/١٥٠.
[٦٠٣] سقط من الأصل، وكتبتها من *تفسير ابن عربي*،٢/١٥٠.

الشَّكُورُ﴾ الذي يعمل باستعمال النعم في طاعة الله، العمل الخالص لوجه الله تعالى"[٦٠٤]، هذا هو الباطن والإقرار بظواهرها واجب والله أعلم بسرائر الأمور.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ (١٤) لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ (١٨) فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

ثم أخبر عن أخبار قضائه على أنبيائه وأوليائه، بقوله تعالى:﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ "يعني على سليمان، فكان سليمان يبني بيت المقدس، وكان لا يتمّ ذلك إلا بالجنّ، فأمرهم بالعمل، إلى أن فرغوا، قال: لا تخبروهم بموتي. فكان قائما في الصلاة متكئا على عصاه، وكان سليمان يطوّل الصلاة، وكان الجنّ إذا حضروه رأوه قائما فرجعوا، ويقولون إنه قائم في الصلاة، فيقبلون على أعمالهم. وروى إبراهيم بن الحكم، عن أبيه، عن عكرمة، قال: كان

[٦٠٤] تفسير ابن عربي، ٢/١٤٩–١٥١.

سليمان إذا مرّ بشجرة، يعني بشيء من نبات الأرض، قال لها: ما شأنك؟ فتخبره الشجرة أنها لداء كذا، ولمنفعة كذا، فيدفعها إلى الناس حتى ينتفعوا بها، فمرّ بشجرة، فقال: ما اسمك يا شجرة؟ فقالت: أنا خرنوبة، [فقال][٦٠٥]: ما شأنك؟ قالت: لخراب المسجد، فتعصى منها سليمان عصا. فكانت الجنّ يقولون للإنس: إنا نعلم الغيب. وإن سليمان سأل الله تعالى أن يخفي موته، فلما قضى الله تعالى على سليمان، لم يدر الجنّ والإنس ولا أحد كيف مات، ولم يطلع أحد على موته، والجنّ تعمل بأشدّ ما كانوا عليه، حتى خرّ سليمان، فنظروا كيف مات، فلم يدروا، ونظروا إلى العصا، فرأوا العصا قد أُكلت، يعني قد أُكل منها، وفي العصا أرضة، فنظروا إلى أين أكلت الأرضة من العصا، فجعلوا له علما، ثم ردوا فيها الأرضة فأكلت شهرا، فنظروا كم أكلت في ذلك الشهر مما أكلت من قبل، فكانت لموته اثني عشر شهرا، فتبيّن للجن ﴿أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾، فقالت الجنّ: إن لها علينا حق – يعني للأرضة –، فهم يبلغونها الماء فلا تزال لها طينة رطبة"[٦٠٦].

"وقيل: كان قائما في محرابه، فجاءه ملك الموت – صلوات الله عليه – ليقبض روحه، فقال: أمهلني حتى أوصي إلى أهلي، فقال: لا زمان، فقال: اتركني حتى اجلس، قال: لا، قال: فكيف تقبضني؟ قال: اتكِ على منسأتك، فاتكأ عليها، فقبضه، فبقي كذلك حولا، ثم أكلت الأرضة أسفل عصاه فانكسرت، فخرّ سليمان – صلوات الله عليه– فظهر ذلك

---

[٦٠٥] في الأصل (فقالت).

[٦٠٦] بحر العلوم، ٣/٨٣–٨٤.

لهم"[٦٠٧]، "فذلك قوله تعالى:﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ﴾، يعني ما دلّ الجنّ على موت سليمان ﴿إِلاَّ دَآبَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾، يعني عصاه، واشتقاقه من نسأ ينسأ إذا زجر الدابة، ثم تسمى العصاة منسأته، لأنه يزجر بها الدابة. ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ يعني سقط سليمان، ﴿تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ يعني ظهر عند ذلك للإنس أن الجنّ لا يعلمون الغيب. ويقال: تبينت الجنّ يعني ظهر لهم أنهم لو عملوا الغيب ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾، فتفرقوا عند ذلك.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ بالكسر والتنوين اسم قبيلة، وبالنصب أرض، وهو قراءة ابن كثير[٦٠٨]، وأبي عمرو، والأول أشبه. روي عن النبي ﷺ "أنه سئل عن سبأ، فقال: هو اسم رجل"[٦٠٩]. ويقال: هو سبأ بن يشجب بن قحطان. وأولاد سبأ سبعة: حمير، وكهلان، وعمرو، والأشعر، وأنمار، ومرو، وعاملة، وهم بنو سبأ، وكثر نسلهم حتى أن خزاعة، والأوس، والخزرج، وغسان، من جملتهم. ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ قرأ الكسائي بكسر الكاف، وقرأ حمزة وحفص بفتحهما، وقرأ الباقون (مساكنهم) على الجمع. فقوله: ﴿مَسْكَنِهِمْ﴾ أي أرضهم، وبلدهم. ومساكنهم: منازلهم.﴿ءَايَةٌ﴾ أي علامة تدل لوحدانيتي، ويقال: تدل على أن لهم إلــٰهاً خلقهم، وأنعم عليهم، لأن ما أعطاهم من أنواع الشجر، وألوان الثمر، خارج

---

[٦٠٧] التيسير في التفسير، ٢٣٨/١٢.

[٦٠٨] نسب حاجي باشا قراءة (سبأَ) بالنصب لابن كثير براوييْه، ولكن قراءتهما مختلفة، فالبزّي قرأ بفتح الهمز من غير تنوين، وقُنْبُل قرأ بإسكان الهمزة. ابن الجزري: *النشر*،٣٣٧/٢.

[٦٠٩] أبو داود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني، *سنن أبي داود*، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، كتاب الحروف والقراءات، ٣٤/٤، رقم (٣٩٨٨). الترمذي: *سنن الترمذي*،٢١٤/٥، رقم (٣٢٢٢). ابن حنبل: *المسند*، ٥٢٨،٥٢٧/٣٩، رقم (٨٧)، ٥٣٠،٥٢٩/٣٩، رقم (٨٩).

عن وسع البشر. ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ هي ترجمة قوله:﴿ءَايَةٌ﴾، قال ابن عباس – رضي الله عنهما – كانت سبأ على ثلاثة فراسخ من صنعاء، وكانت أخصب البلاد وأطيبها، وأكثرها ثمرا، كانت المرأة تضع على رأسها مكيلا، فتطوف ما بين الأشجار، وقد امتلأ المكيل من ألوان الثمر، من غير أن تمس منها شيئا. وكانت مياههم تخرج من جبل، فبنوا فيه سدا بالصخرة، وجعلوا ثلاثة أبواب: أعلى، وأوسط، وأسفل، فكانوا يسرحون المياه إلى أشجارهم وكرومهم منها، وكان عن يمين الوادي ويسارهم بساتين، وكروم، وأنهار، وكان بين اليمين واليسار موضع رفيع فيما بين النهرين، فأرسل الله تعالى ثلاثة عشر من الرسل، فكذبوهم، وكفروا بهم، وبطروا النعمة، وقالوا للرسل: ما لله علينا من نعمة. وقال الضحاك: كان ذلك في الفترة بين عيسى ونبينا ﷺ، وكانت الفترة ستمائة سنة، ويقال: خمسمائة سنة وخمسين سنة، ولما كذبوا بعث الله تعالى جرذة، فنقب ذلك السدّ بجنب بستان رجل منهم، يقال له عمران بن عامر وهو اب الأنصار والأزد، وغسان، وخزاعة، فدخل البستان، فإذا هي جرذة تنقب العرم، وقد سال، ثم نظر إلى الجرذة تنقل أولادها من أسفل الجبل إلى أعلاه، وكان كاهنا، فقال: ما نقلت هذه أولادها من أسفل [الجبل][61] إلى أعلاه إلا وقد حضر هلاك هذه البلدة. فدعا ابن أخ له، فقال: إذا رأيتني قد جلست في جماعة من قومي فأتيني فقل: أي عمي أعطني ميراثي من أبي، فإني سأقول لك: وهل ترك أبوك شيئا؟ فاردد

[61] سقط من الأصل، وكتبتها من السمرقندي: نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، أبو الليث، (ت. ٣٧٣هـ/٩٨٥م)، بحر العلوم،٣/٨٥.

[علي][٦١١] وكذبني، فإذا كذبتني فإني سألطمك فالطمني، فأتى فعل ما أمره، فقال عمران بن عامر: لله علي كذا وكذا أن أسكن هذه البلاد، من يشتري مالي؟ فلما عرفوا منه الجِدّ، قال هذا: أعطك كذا، وقال هذا: أعطيك، فينظر إلى أجودهم صفقة، فقال: عجل لي مالي، فقد حلفت أن لا أبيت بها، فعجل له ماله، وارتحل من يومه ذلك. واتسع ذلك الخرق حتى الهدم، وغرق بلادهم، وتفرقوا في البلدان، فذلك قوله:﴿لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ أي في منزلهم. ﴿ءَايَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾، يعني بساتين عن يمين الوادي وعن شماله، فأرسل الله تعالى إليهم الرسل، فذكروا لهم النعم، فقيل لهم:﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ يعني من فضل ربّكم عليكم، ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ فيما [رزقكم][٦١٢] ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ يعني هذه بلدة لكم طيبة لينة بلا سبخة، ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ لمن تاب عن الشرك.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان، وقالوا: من يأخذ منا هذه النعم؟! ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾[العرم هو اسم][٦١٣] لذلك الوادي. ويقال: اسم للفأرة التي قرضت النهر حتى سال عليهم الماء، وجرى في بساتينهم وفي بيوتهم فخربّها، وأخذ كل إنسان منهم بيد ولده وامرأته، فصعدوا بهم الجبل. ﴿وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ يعني بدلهم الله تعالى مكان الفاكهة، ذواتي أكل خمط، يعني الأراك. وقيل: الخمط كل نبت مرّ لا يمكن أكله. ﴿وَأَثْلٍ﴾ يعني الطرفاء، ﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ والسدر كانوا يستظلون في ظله،

---

[٦١١] سقط من الأصل، وكتبتها من بحر العلوم، ٣/٨٥.

[٦١٢] في الأصل (رزقتكم)، وصححتها من بحر العلوم، ٣/٨٥.

[٦١٣] سقط من الأصل، وكتبتها من بحر العلوم، ٣/٨٥.

ويأكلون من ثمره. قرأ أبو عمرو (أكلِ خمطٍ) بكسر اللام بغير تنوين، والباقون بالتنوين. فمن قرأ بالتنوين أراد ذواتي ثمر يؤكل، ثم قال خمط بدل من أكل. والمعنى ذواتي خمط وأكل ثمرة. ومن قرأ بغير تنوين، أضاف [الأكل][٦١٤] إلى الخمط، فذلك قوله:﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ﴾ يعني ذلك الذي أصابهم عقوبتهم عاقبناهم ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ بكفرهم، ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ يعني وهل يعاقب بمثل هذه العقوبة إلا الكفار بنعمة الله. ويقال: الكفور الكافر. ومعنى الآية أن المؤمن يكفر عنه السيئات بالحسنات، وأما الكافر فإنه يحبط عمله كله، فيجازى بكل سوء يعمله، كما قال:﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد:١]، أي أبطل أعمالهم وأحبطها، فلم ينفعهم منها شيء، وهذا معنى قوله: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ يعني متصلة على الطريق بحيث يرى بعضها من بعض. وفي رواية الكلبي: أنهم قالوا: إنا قد عرفنا نعمة الله علينا، فوالله لئن ردّ الله فيئتنا وجماعتنا، والذي كنا عليه، لنعبدنّه عبادة لم نعبدها، فردّ الله عليهم ما كانوا عليه، فأتاهم نعمة وجعل لهم من أرضهم إلى أرض الشام قرى متصلة بعضها إلى بعض، فذلك قوله:﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ ثم عادوا إلى الكفر، فأتاهم [الرسل][٦١٥] فذكروهم نعمه، فكذبوهم، فمزقهم الله كل ممزق[٦١٦]. ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ للمبيت، والمقيل من قرية إلى قرية، يعني بين قريتين ثلاث فراسخ، وقيل: سوّينا مسيرة

---

[٦١٤] في الأصل (الكل)، وصححتها من بحر العلوم،٣/٨٥.

[٦١٥] في الأصل (الرسول)، وصححتها من بحر العلوم،٣/٨٦.

[٦١٦] ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت. ٥٩٧هـ)، *زاد المسير في علم التفسير*، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط (١)، ١٤٢٢هـ،٣/٤٩٦.

ما بين كل قريتين فكانت لا تتفاوت. ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ أي قال رسولهم ذلك، أو معناه كانوا يسيرون كذلك، كما مرّ في قوله تعالى:﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾، ﴿ءَامِنِينَ﴾ يعني من الجوع، والعطش، واللصوص، والسباع، وتعرض الناس.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، ونافع- رحمهم الله- (ربّنا) بالنصب،(باعد بين أسفارنا) بالألف مكسورة العين، مجزومة الدال. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو- رحمهم الله - بغير ألف، مجزوما، أي بطروا وجهلوا قدر العافية، وسألوا الله أن يبعد أسفارهم. روي أنهم قالوا: ليت أن أسفارنا تباعدت، فكنا نركب البحار، ونقطع المفاوز، وهذا كجهل قوم موسى- صلوات الله عليه- في قولهم: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾[البقرة:٦١]، فبدلهم الله بجنتيهم جنتين، وخرب بلادهم، وأهلك أموالهم، وفرقهم في البلاد، وبعّد أسفارهم، وذلك قوله تعالى:﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالشرك، وتكذيب الأنبياء، وردّ العافية، واختيار حظوظهم خلاف ما يريد رسولهم.﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يعني أهلكهم الله تعالى، فصاروا أحاديث للناس بعدهم، يتحدثون لما جرى عليهم، ولم يبق أحد منهم في تلك القرى.﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي فرقناهم في كل وجه، فألقى الله الأزد بعمان، والأوس والخزرج بالمدينة، وهما أخوان، وأهل المدينة كانوا من أولاد إحدى القبيلتين الخزرج، والأخرى الأوس، فسموا باسم أبيهم، وخزاعة بمكة كانوا بنو خزاعة ولخم وجذام بالشام،

ويقال كلب وغسان بالشام في رواية.﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في هلاكهم، وتمزيقهم، ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي لعبرات"[٦١٧].

"﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي لكل مؤمن مستكمل خصال الإيمان، فإن الشكر والصبر حاصلها، أي هو المنتفع بهذه الآيات بالتأمل فيها، وإن كانت الآيات للكل على العموم"[٦١٨].

[فصل في التفسير بالرأي]

قوله تعالى:﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ اعلم أنه تعالى "لما بيّن عظمة سليمان، وتسخير الروح له، بيّن أنه لم ينج من الموت، وأنه قضى عليه الموت، تنبيهاً للخلق من أن الموت لا بدّ منه، ولونجا أحد منه لكان سليمان أولى بالنجاة. روي أن سليمان كان يقف في عبادة الله ليلة كاملة، ويوماً تاماً، وفي بعض الأوقات يزيد عليه، فكان له عصا يتكئ عليه واقفا بين يديه، ثم في بعض الأوقات كان واقفا على عادته في عبادته، إذ توفي، وظن جنوده أنه في العبادة، وبقي كذلك أياما، وتمادى شهورا، ثم أراد الله إظهار الأمر لهم، فقدر أن أكلت دابة الأرض عصاه، فوقع، وعلم حاله.

وقوله تعالى:﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ كانت الجنّ[٦١٩] تعلم ما لا يعلمه الإنسان، فظن أن ذلك القدر علم الغيب، ويقال:

---

[٦١٧] بحر العلوم، ٣/٨٤-٨٧.

[٦١٨] التيسير في التفسير، ١٢/٢٤٩.

[٦١٩] في الأصل تكرار لجملة (كانت الجنّ).

معنى قوله:﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي ما دل ملوك الجنّ إلا دابة الأرض. وقيل: ما دل آل داود. وقوله:﴿مِنْسَأَتَهُ﴾ من قولك: نسأت البعير، وغيره، إذا زجرته ليزداد في سيره، ويقال: (نسأ) ساق. قال مقاتل: كان داود – صلوات الله عليه– أسس بناء مسجد بيت المقدس موضع فسطاط، وكانت بقيت لهم سنة حتى يفرغوا من بنائه، وخاف سليمان – صلوات الله عليه – فقال لأهله: لا تخبروا الشياطين والجنّ بموتي، حتى تفرغوا من بناء المسجد، ودعا ربّه فقال: اللهم اعمِ على الشياطين والجنّ موتي، حتى يعلم الناس أن الجنّ والشياطين لا يعلمون[٦٢٠]. وقال ابن عباس – رضي الله عنهما–: كان الشياطين والجنّ [يدّعون][٦٢١] علم الغيب، وما يكون في غد، فابتلوا بموت سليمان – صلوات الله عنيه – إظهارا لجهلهم، وقدم الكلام فيه. وقال الواقدي – رحمه الله –: كان ملك الموت صديقا لسليمان – صلوات الله عليه – فسأله عن آية موته، فقال: إن آية موتك أن يخرج من الأرض شجرة يقال لها الخروبة فإذا وجدتها فقد حضر أجلك. فبينا سليمان – عليه السّلام – في منزله ذات يوم، طلعت شجرة، فقال لها سليمان – صلوات الله عليه – ما اسمك؟ قالت: الخروبة، فولج سليمان مسجده، واتكأ على عصاه، وقبضه الله تعالى. وقال مجاهد – رحمه الله –: لما رأى الشجرة تحنّط، وتكفن، وصعد كرسيه، واتكأ على عصاه. وقال الضحاك – رحمه الله –: مكث كذلك سنة، وكانت الشياطين والجنّ يدائبون في العمل، ويدخل كل يوم رئيسهم عليه، وينظر إليه، فيخرج ويقول

---

[٦٢٠] مقاتل: *تفسير مقاتل*،٣/٥٢٨.

[٦٢١] في الأصل (يدّعي).

لأصحابه: جدّوا فإنه قائم يصلي، فيجتهدون في العمل، إلى أن فرغوا، وقد مرت القصة بتمامها.

ثم قال:﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ لما بيّن حال الشاكرين لنعمه، بذكر داود وسليمان، بيّن حال الكافرين بأنعمه، بحكاية أهل سبأ، والبحث اللفظي في لفظ سبأ قد تقدم. وقوله:﴿ءَايَةٌ﴾ أي من فضل ربّهم. وقوله:﴿جَنَّتَانِ﴾ بيان لها. قال الزمخشري: قال:﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ مع أن بعض بلاد عراق فيه آلاف من الجنان، وأجيب: بأن المراد لكل واحد [جنتان][٦٢٢]، أو عن يمين بلدهم وشمالها جنان إن من الجنّة [جماعتان من الجنات][٦٢٣]، ولاتصال بعضها ببعض جعلها جنة واحدة. وقوله:﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ إشارة إلى تكميل النعم عليهم، حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوف ولا مرض. وقوله:﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ بيان أيضا لكمال النعمة، فإن الشكر لا يطلب إلا عند النعمة، ثم لما بيّن حالهم في مساكنهم، وبساتينهم، وأكلهم، أتمّ بيان كمال النعمة، بأن بيّن أن لا غائلة عليه، فقال:﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي عن المؤذيات، لا حيّة فيها، ولا عقرب، ولا وباء. وقال:﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي لا عقاب عليه، ولا عذاب في الآخرة، فعند هذا بان كمال النعمة، حيث كانت لذة خالية عن المفاسد المالية، ثم إنه تعالى لما بيّن ما كان من جانبه، ذكر ما كان من جانبهم، فقال:﴿فَأَعْرَضُوا﴾ بيّن كمال ظلمهم بالإعراض بعد ذكر الآيات، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾[الكهف:٥٧]، ثم بين كيفية

---

[٦٢٢] في الأصل (جنتين)، والصحيح (جنتان) لأنها خبر (أن) الناسخة.

[٦٢٣] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٠٠/٢٥.

الانتقام منهم، فقال:﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾[السجدة:٢٢]، وكيفيته أنه تعالى أرسل عليهم سيلا غرق أموالهم، وخرب دورهم، وفي العرم وجوه: أحدها: أنه الجرذ الذي كان سبب خراب السِّكر، وذلك أن بلقيس كانت قد عمدت إلى جبال بينهما شعب، فسدت الشعب، حتى كانت مياه الأمطار والعيون تجتمع فيها، وتصير كالبحر، وجعل لها أبواباً ثلاثة مترتبة بعضها فوق بعض، وكانت الأبواب يفتح بعضها فوق بعض، فنقب الجُرذ السِّكر، وانقلب البحر عليهم. وثانيها: أن العَرِم اسم للسِّكر، وهو جمع العَرِمَة، وهي الحجارة. وثالثها: للوادِ الذي خرج فيه الماء. وقوله:﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ الخمط كل شجرة لها شوك، وقوله:﴿أَثْلٍ﴾ الأثل نوع من الطرفاء، ولا يكون عليه ثمرة إلا في بعض الأوقات، يكون عليه شيء كالعفص [أو][٦٢٤] أصغر منه في طعمه وطبعه. والسدر معروف، وقال فيه قليل. لأنه كان أحسن [أشجارهم][٦٢٥] فقلّله الله. ثم بيّن أن ذلك مجازاة لهم على كفرانهم، فقال:﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ ولا يجازى بذلك الجزاء ﴿إِلاَّ الْكَفُورَ﴾، قال بعضهم: المجازاة يقال في النقمة، والجزاء في النعمة. لكن قوله تعالى:﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ﴾ يدل أن يجزي يستعمل في النقمة، ولعل من قال ذلك أخذه من أن المجازاة مفاعلة، وهي في أكثر الأمر تكون بين اثنين، يؤخذ من كل واحد جزاء في حق آخر. وفي النعمة لا تكون مجازاة لأن الله مبتدئ بالنعم. ثم قال:﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ أي بينهم وبين الشام، فإنها هي البقعة المباركة. وقوله: ﴿ظَاهِرَةً﴾ أي يظهر بعضها

---

[٦٢٤] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٠١/٢٥.

[٦٢٥] في الأصل (أشجار)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٠١/٢٥.

لبعض، يرى سواد القرية من القرية الأخرى، ثم ذكر حال خارج بلدهم، وذكر عمارتها بكثرة القرى، ثم ذكر تبديله ذلك بالمفاوز، والبوادي، والبراري، بقوله:﴿رَبَّنا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا﴾، وقوله:﴿فِيهَا السَّيْرَ﴾ الأماكن المعمورة تكون منازلها معلومة مقدرة، لا تتجاوز. فلما كان بين كل قرية مسيرة نصف نهار، فكانوا يغدون إلى قرية، ويروحون إلى أخرى. فهو المراد بالتقدير، والمفاوز لا يتقدر السير فيها، بل يسير الساير فيها بقدر الطاقة، حادا متى يقطعها. وقوله: ﴿سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾[٦٢٦] أي كان بينهم ليالي وأياما معلومة. وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ إشارة إلى كثرة العمارة، فإن خوف قطاع الطريق، والانقطاع من الرفيق، لا يكون إلا في مثل هذه الأماكن. وقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾[٦٢٧] قيل: أنهم طلبوا ذلك، وهو يحتمل وجهين: أحدهما: أن يسألوا بطرا، كما طلبت اليهود الثوم والبصل. ويحتمل أن يكون ذلك لفساد اعتقادهم، وشدة اعتمادهم على أن ذلك لا يقدر. ويمكن أن يقال: قالوا ربّنا باعد بلسان الحال، أي لما كفروا فقد طلبوا أن يبعد بين أسفارهم ويخرب المعمور من ديارهم. وقوله: ﴿وظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ يكون بيانا لذلك،﴿فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ﴾ أي فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلا. ﴿وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ بيان لجعلهم أحاديث. وقوله تعالى:﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي فيما ذكرناه من حال الشاكرين، ووبال الكافرين"[٦٢٨].

---

[٦٢٦] في الأصل تكرار للآية.

[٦٢٧] في الاصل (قالوا) وهو خطأ في كتابة الآية.

[٦٢٨] مفاتيح الغيب، ٢٥/١٩٩-٢٠٢.

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

قوله تعالى:﴿فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ "يشير إلى كمال قدرته وحكمته، هو الذي سخر الجنّ والإنس لمخلوق واحد مثلهم، وهم الألوف الكثيرة، والوحوش، والطيور، ثم قضى عليه الموت، وجعلهم مسخرين لجثة بلا روح، وبحكمته جعل دابة الأرض وهي حيوان ضعيف دليلا لهذه الألوف الكثيرة من الجنّ والإنس، يدلهم على علم ما لم يعلموا بفعله. وفيه أيضا إشارة إلى أنه تعالى جعل فعلها سبب لإيمان أمة عظيمة، وبيان حال الجنّ أنهم لا يعلمون الغيب، لقوله:﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجنّ﴾ أي حال الجنّ، ﴿أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾، وفيه إشارة أخرى إلى أن نَبيّين من الأنبياء اتكئا على عصوين، وهما موسى وسليمان- عليهما السلام - فلما قال موسى:﴿هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها﴾[طه:١٨]، قال ربّه:﴿أَلْقِها﴾[طه:١٩]، فلما ألقاها جعلها ثعبانا مبينا، يعني من اتكأ على غير فضل الله ورحمته يكون متكأه ثعبانه، ولما كان اتكاء سليمان على عصاه في قيام ملكه بها، واستمسك، بعث الله أضعف دابة لإبطال متكئه ومستمسكه، ليعلم أن من قام بغير الله زال بزواله، وأن كل مستمسك غير الله طاغوت من الطواغيت ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لَا انْفِصامَ لَها﴾[البقرة:٢٥٦].

وبقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ﴾ يشير إلى سبأ السر في مساكنهم آية من آيات الله، والآية هي ﴿جَنَّتانِ﴾، أي جنة الروح عن يمين السر، وجنة القلب عن شماله، وذلك لأن السر لطيفة خلقت من بين الروح والقلب، فما يرد

من فيض الروح، ووارد الحق تعالى [يصل][٦٢٩] إلى السر، ومنه يرد إلى القلب، وما يصدر من القلب من أنوار الذكر، والطاعات، أو ظلمة أوصاف النفوس، ومعاملاتها، يصعد إلى السر، ومن السر يصعد إلى الروح، فالسر بين هاتين الجنّتين في رغد من العيش، وسلامة من الحال، فأمر بالصبر على العاقبة، والشكر على النعمة.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ بلدة الإنسانية قابلة لبذر التوحيد، وهو كلمة لا إلـه إلا الله. ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ يستر عيوب عباده بنور معرفته، ويغفر ذنوبهم لعزة معرفته.﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الوفاء، وأقبلوا على الجفاء، وكفروا النعمة، وضيعوا الشكر، فبدلوا، [وبُدل لهم][٦٣٠] الحال.﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ سيل سطوات قهرنا.﴿وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ الشجرتين من أشجار الإيمان، والإتقان، والتقوى، والصدق، والإخلاص، والتوكل، [والأخلاق][٦٣١] الحميدة.﴿جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ﴾ من الكفر،﴿خَمْطٍ﴾ من النفاق،﴿وَأَثْلٍ﴾ من الشكر،﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ من الأوصاف الذميمة،﴿ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا﴾ أي بما غرسوا في بستاني القلب والروح أشجار هذه الأخلاق السوء.﴿وَهَلْ نُجازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ أي وهل تثمر الأشجار الخبيثة إلا الأثمار الخبيثة؟ فما عوملوا إلا بما استوجبوا، وما حصدوا إلا بما زرعوا، وما وقعوا إلا في الحفرة التي حفروا.

---

[٦٢٩] في الأصل (يدل)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/١٠٠.

[٦٣٠] في الأصل (وبدلهم)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/١٠٠.

[٦٣١] في الأصل (والأخلاص)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/١٠٠.

وبقوله:﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ يشير إلى مقامات القرب، وجوار ربّ العزة، والمنازل المتصلة بعضها ببعض إلى الحضرة، من التوبة، والزهد في الدنيا، والتوكل، وتزكية النفس، وتصفية القلب، وتخلية الروح.﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا﴾ في هذه المنازل،﴿السَّيْرَ﴾ إلى الله، وقلنا لهم:﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ﴾ أي السير في ليلة البشرية،﴿وَأَيَّامًا﴾ أي السير في أيام الروحانية، ﴿ءَامِنِينَ﴾ في أمور الشريعة، فما كان شأهم إلا التمادي في عصياهم، والإصرار على غيهم، وطغياهم، ووحشة النفس، وركاكة العقل، مالوا إلى الدنيا، ورغبوا في شهواها، وطلبوا البعد عن الحضرة في عبارة: قالوا ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، وتحقيق هذه الإشارات أن طلب الدنيا وشهواها، هو طلب البعد عن الله، وعن حضرته، فظلموا أنفسهم بما مالوا في الدنيا.﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ عبرة للطالبين، وتنبيها للراغبين، لئلا نقطع عليهم الدنيا بما فيها طريق الطلب، وسبيل الرشاد إلى الله عز وجل، ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي [مزقناهم][٦٣٢] في أودية الهلاك، لكل فرقة دركة من دركات جهنم البعد. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في هذه القصة، ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلالات، ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على ترك الدنيا وشهواها، ﴿شَكُورٍ﴾ لنعم عصمة الحق تعالى، وتوفيقه للعبودية"[٦٣٣].

[فصل في التفسير الصوفي النظري]

---

[٦٣٢] في الأصل (مزقنا)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠١.

[٦٣٣] التأويلات النجمية، ٥/٩٩-١٠١.

"قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ بالفناء في مقام السر، ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ أي ما اهتدوا إلى فنائه في مقام الروح، [وتوجهه][٦٣٤] إلى الحق في حال السر إلا بحركة الطبيعة الأرضية، وقواها البدنية الضعيفة، الغالبة على النفس الحيوانية، التي هي منسأته، إذ لا طريق لهم إلى الوصول إلى مقام السر، ولا وقوف على حال القلب، ولا شعور بكونه في طور وراء أطوارهم إلا برابطة اتصال الطبيعة البدنية بالنفس المتصلة به، المقهورة بالقوة الطبيعية، لضعفها بالرياضة، وانقطاع مدد القلب عنها، حينئذ لا يطلعون إلا على حال الدابة تأكل المنسأة، بالاستيلاء عليها، لأن النفس الحيوانية عند عروج القلب ضعفت، وسقطت قواها، ولم يبق منها إلا القوى الطبيعية الحاكمة عليها. ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ في صعقة الفناء، وذهل في الحضور والاشتغال بالحضرة الإلـهية،﴿تَبَيَّنَتِ الجنّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾٦٣٥ غيب مقام السر، بالاطلاع على المكاشفات، لكانوا مجردين، وما لبثوا في العذاب من الرياضات الشاقة، التي تمنعهم عن الحظوظ، والمرادات، ومقتضيات الطباع والأهواء. ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾٦٣٦ أهل مدينة البدن، ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ في مقارّهم ومحالهم، ﴿ءَايَةٌ﴾ دالة على صفات الله وأفعاله، ﴿جَنَّتَانِ﴾ جنة الصفات والمشاهدات عن يمينهم، من جهة القلب والروح التي هي أقوى الجهتين وأشرفهما، وجنة الآثار والأفعال عن شمالهم، من جهة الصدر والنفس، التي هي أضعف الجهتين وأخسهما. ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ من الجهتين، كقوله: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾[المائدة:٦٦]، ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ باستعمال نعم ثمراتها في

---

[٦٣٤] في الأصل (وتوجهوا)، وصححتها من تفسير ابن عربي،٢/١٥١.

[٦٣٥] سقط من الأصل كلمة (يعلمون)، وهو خطأ في كتابة الآية.

[٦٣٦] سقط من الأصل كلمة (كان)، وهو خطأ في كتابة الآية.

الطاعات، والسلوك فيه بالقربات.﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ باعتدال المزاج والصحة،﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ يستر هيئات الرذائل، وظلمات النفوس والطبائع، بنور صفاته وأفعاله.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن القيام بالشكر في التوسل بها إلى الله تعالى، بل عن الأكل من ثمراتها، التي هي العلوم النافعة الحقيقية، بالانهماك في اللذات والشهوات، والانغماس في ظلمات الطبائع والهيئات.﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ﴾ الطبيعة الهيولانية، بنقب جرذان سيول الطبائع العنصرية، سكر المزاج الذي سدته بلقيس النفس، التي هي ملكتهم، والعرم الجرذ،﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ من شوك الهيئات المؤذية، ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي ثمرة بشعة مُرّة، كقوله:﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[الصافات:٦٥]، ﴿وَأَثْلٍ﴾ الصفات السيئة، السبعية، البهيمية والشيطانية.﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ بقايا الصفات الإنسانية.

﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك العقاب، ﴿جَزَيْنَاهُمْ﴾ بكفرانهم النعم، ﴿وَهَلْ نُجَازِي﴾ ذلك ﴿إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ الذي يستعمل نعمة الرحمـٰن في طاعة الشيطان.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[٦٣٧] من الحضرة القلبية، والسرية، والروحية، والإلـٰهية، التي باركنا فيها بالتجليات الأفعالية، والصفاتية، والأسمائية، وأنوار المكاشفات والمشاهدات. ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ منازل مترتبة متواصلة، كالصبر، والشكر، والتوكل، والتسليم، وأمثالها.﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ إلى الله، وفي الله.﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ

---

[٦٣٧] في الأصل تكرار لكلمة (باركنا).

وَأَيَّامًا﴾ أي سيروا في منازل النفوس، ومناهل القلوب ومواردها، ﴿آمِنِينَ﴾ من القواطع الشيطانية، وغلبات الصفات النفسانية، بقوة اليقين، والنظر الصحيح على منهاج المبين.

﴿فَقالُوا﴾ بلسان الحال والتوجه إلى الجهة السفلية، المبعدة عن الحضرة القدسية، والميل إلى المهاوي البدنية، والمهالك الشيطانية، إلى أسفل سافلين، ﴿رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالاحتجاب عن أنوار القوى المباركة، بظلمات البرزخ[المنحوسة][٦٣٨].﴿فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ﴾ أمثالا سائرة بين الناس في الإهلاك والتدمير، ﴿وَمَزَّقْناهُمْ﴾ بالغرق، والتفريق"[٦٣٩].

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ماذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

---

[٦٣٨] في الأصل (المنسوخة)، وصححتها من تفسير ابن عربي،٢/١٥٣.

[٦٣٩] تفسير ابن عربي، ٢/١٥١–١٥٣.

ثم أخبر عن حال الشيطان مع الإنسان، بقوله تعالى:﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ "على أهل سبأ، وذلك أن إبليس قد قال:﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[ص:٨٢، ٨٣] وكان ظنا منه فصدق الله ظنه، ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا﴾ يعني طائفة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهم الذين قال الله تعالى:﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ﴾[الحجر:٤٢]، [وقال][٦٤٠] سعيد بن جبير، كان ظنه أنه قال: أنا ناري، وآدم طيني، والنار تأكل الطين"[٦٤١].

"قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، (صدّق) مشددا، أي حقق على هؤلاء العصاة الذين أنكروا البعث، وأعرضوا عن شكر الله تعالى، وكفروا به. وقرأ الباقون بالتخفيف، أي صدَق إبليس في ظنه، فخرج كما ظن. ﴿وَمَا كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَنٍ﴾ أي لا ولاية. وقيل: أي لا حجة على ما يدعوهم إليه. ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ﴾ إلا بمعنى (لكن)، يعني لكنا ابتلينا المكلفين بوساوسه، ليعلم المؤمن المخلص من الكافر في البعث"[٦٤٢].

"قال القتبي: علم الله على نوعين: أحدهما: علم ما يكون من إيمان المؤمنين، [وكفر الكافرين][٦٤٣] قبل أن يكون، وهذا علم لا يجب به حجة، ولا عقوبة. والآخر:علم الأمور الظاهرة، فتحقق به القول، ويقع بوقوعها الجزاء. يعني ما سلطناه عليهم إلا لنعلم إيمان المؤمنين ظاهرا موجودا.﴿وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي باليقين والشك. ويقال: عالم بقولهم. ويقال: عالم بما يكون منهم قبل كونه. ويقال: حفيظ يحفظ أعمالهم ليجازيهم.

---

[٦٤٠] في الأصل (وكان)، وصححتها من بحر العلوم،٣/٨٧.
[٦٤١] بحر العلوم، ٣/٨٧.
[٦٤٢] التيسير في التفسير، ١٢/٢٤٩-٢٥٠.
[٦٤٣] في الأصل (وكذا الكافرون)، وصححتها من بحر العلوم،٣/٨٨.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ يعني قل لكفار مكة: ادعوا الذين زعمتم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾أنهم آلهة ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني وزن نملة صغيرة، ﴿فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني إذا كان حالهم هذا، فمن أين جعلوا لهم الشركة في العبادة؟! ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ﴾ يعني في خلق السماوات والأرض من عون، ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ يعني معين من الملائكة الذين يعبدونهم، ثم ذكر أن الملائكة لا يملكون شيئا من الشفاعة، فقال عز وجل:﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ يعني لا تنفع الشفاعة لأحد الأنبياء ﴿إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أن يشفع لأحد من أهل التوحيد، يعني أن يأذن الله له. ثم أخبر عن خوف الملائكة، أنهم إذا سمعوا الوحي، خرّوا سُجّدا من مخافة الساعة، فكيف تعبدون من هذه حاله؟! فذلك قوله:﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ وذلك أن أهل السماوات سمعوا صوت الوحي كوقع الحديد على الصفا، وذلك صوت الوحي. ويقال: سمعوا صوت نزول جبريل – عليه السّلام –، فخرّوا سُجّدا مخافة القيامة، فهبط جبريل على أهل كل سماء، فأخبرهم أنه الوحي، فذلك قوله:﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ وتقدير الآية: ولا تنفع الشفاعة في الآخرة عند الله إلا لمن أذن له في الشفاعة من الملائكة الذين يفزعون لما يرد عليهم من كلام الله تعالى حتى إذا أزال الله عنهم ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ يعني ما قال جبريل عن ربّكم؟ ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ يعني الوحي. وروي عن النبي – عليه السّلام – أنه قال: "إذا قضى الله في السماء أمراً، ضربت الملائكة بأجنحتها خفقانا، فإذا فزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربّكم؟ قالوا: الحق الذي قال، والشياطين بعضهم فوق بعض، فإذا سمع الأعلى منهم الكلمة، رمى بها إلى الذي تحته، وربما أدركه الشهاب قبل أن ينبذها، وربما ينبذها قبل أن تدركه، فينبذها بعضهم إلى بعض، حتى ينتهي

إلى الأرض، فتُلقى على لسان الكاهن والساحر، فيكذب معها مائة كذبة، فيُصدّق، فيقول: أليس قد أخبر بكذا وكذا وكان حقا؟ وهي الكلمة التي تسمع من السماء"[٦٤٤]. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ يعني هو أعلى، وأعظم، وأجلّ، من أن يوصف له شريك[٦٤٥].

"﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الأمطار، وما يصلح بالشمس والقمر والنجوم، وما في الأرض من الماء والنبات، فإن أجابوك، وإلا ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ يعني الله يرزقكم من السماوات والأرض، ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُبِينٍ﴾ يعني قل لهم: أحدنا على الهدى، والآخر على الضلالة. يعني إنا على الهدى، [وأنتم][٦٤٦] على الضلالة. ويقال: في الآية معنى آخر، وهو وإنا لعلى هدى بالإيمان بالله، والإخلاص له، وأنتم في ضلال مبين بإشراككم به غيره"[٦٤٧].

"﴿قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ يعني لا تسألون عن جرم أعمالنا، ﴿وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يعني لا نسأل عن جرم أعمالكم. ويقال: لا تؤاخذون بجرمنا، ولا نؤاخذكم بجرمكم. ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا﴾ يعني يوم القيامة نحن وأنتم. ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ﴾ يعني يقضي بيننا بالعدل. ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ يعني القاضي العليم بما يقضي.

---

[٦٤٤] البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾[الحجر:١٨]،٦/٨٠، رقم (٤٧٠١). ابن ماجة: سنن ابن ماجة،١/٦٩، رقم (١٩٤). أبو داود: سنن أبي داود،٤/٣٤، رقم (٣٩٨٩).

[٦٤٥] بحر العلوم، ٣/٨٨-٨٩.

[٦٤٦] في الأصل (أو)، وصححتها من بحر العلوم،٣/٩٠.

[٦٤٧] التيسير في التفسير، ١٢/٢٥٥.

﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ يعني أروني آلهتكم الذين تعبدون من دون الله، وتزعمون أنها له شركاء. ماذا خلقوا في السماوات والأرض من الخلق؟ ﴿كَلَّا﴾ يعني ما خلقوا. ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ خالق كل شيء. ﴿الْعَزِيزُ﴾ في ملكه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره"[٦٤٨].

ويقال: الحكيم: "أي لا معبود إلا الله، وهو الله المعبود، المستحق للعبادة. العزيز الذي لا يرام. ويقال: الحكيم الذي له تنفيذ الأحكام، ومنه الإتقان والإحكام، وإرادة الآيات والإعلام"[٦٤٩].

[فصل في التفسير بالرأي]

قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي تفسيره قد تقدم الكلام على الوجهين، "وتحقيق ذلك في قوله: ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ لأن المتبوع خير من التابع، وإلا لا يتبعه العاقل، والذي يدل على أن إبليس خير من الكافر، هو أن إبليس امتنع عن عبادة غير الله، لكن لما كان امتناعه ترك عبادة الله عنادا كفر، والمشرك يعبد غير الله، فهو كفر بأمر أقرب إلى التوحيد، وهم كفروا بأمر هو الإشراك، ويؤيد هذا الاستثناء وبيانه، هو أنه لم يظن أنه يغوي الكل، بدليل أنه تعالى قال:﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

ثم قال تعالى:﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَنٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾٦٥٠ وقد ذكر في تفسير قوله تعالى:﴿فَلَيَعْلَمَنَّ

---

[٦٤٨] بحر العلوم، ٣/٩٠.

[٦٤٩] التيسير في التفسير، ١٢/٢٥٧.

[٦٥٠] في الأصل (مما هو)، وهو خطأ في كتابة الآية.

اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[العنكبوت:٣]، أن علم الله من الأزل إلى الأبد، محيط بكل معلوم، وعلمه لا يتغير، وهو في كونه عالما لا يتغير، لكن يتغير تعلق علمه، فإن العلم صفة كاشفة يظهر منها كل ما في نفس الأمر، فعلم الله في الأزل أن العالم سيوجد، فإذا وُجد عَلِمَهُ موجودا بذلك العلم، وإذا عُدم يعلمه معدوما بذلك العلم، مثاله: المرآة المصقولة فيها الصفاء، ويظهر فيها صورته، والمرآة لم تتغير في ذاتها، ولا تبدلت في صفاتها، إنما التغير في الجارحات، فكذلك ههنا. وقوله: ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ أي ليقع في العلم صدور الكفر من الكافر، والإيمان من المؤمن، وكان قبله قسمان: سيكفر زيد، ويؤمن عمرو. وقوله:﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَنٍ﴾ إشارة إلى أنه ليس بملجيء، وإنما هو آية وعلامة، خلقها الله ليتميز ما هو في علمه السابق. وقوله:﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ تحقيق ذلك أي الله قادر على منع إبليس منهم، عالم بما سيقع، فالحفظ يدخل في مفهومه العلم والقدرة، إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه حفظه.

لما بيّن الله تعالى حال الشاكرين، وحال الكافرين، ثم عاد إلى خطابهم، وقال لرسول الله ﷺ:قل للمشركين: ادعوا الذين زعمتم من دون الله، ليكشف عنكم الضر. على سبيل التهكم، ثم بيّن أنهم لا يملكون شيئا، بقوله:﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمْوٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ اعلم أن المذاهب المقتضية إلى الشرك أربعة: أحدها: قول من يقول: الله تعالى خلق السماوات، وجعل الأرض والأرضيات [في حكمهم، ونحن من جملة الأرضيات فنعبد][٦٥١] في

[٦٥١] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/٢٠٣.

الملائكة والكواكب التي في السماء، وهم آلهتنا، والله إلـهـهم. فقال الله تعالى في إبطال قولهم: إنهم لا يملكون في السماوات شيئا كما اعترفتم. قال:﴿وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على خلاف ما زعمتم. وثانيها: قول من يقول: السماوات من الله على سبيل الإسناد، والأرضيات منه ولكن بواسطة الكواكب، فإن الله خلق العناصر والتركيبات التي فيها، باتصالات وحركات وطوالع، فجعلوا لغيره مع الله شركاء في الأرض، فقال في إبطال قولهم ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ﴾ أي الأرض كالسماء لله لا لغيره فيها نصيب. وثالثها: قول من قال: التركيبات والحوادث كلها من الله تعالى، لكن فوض ذلك إلى الكواكب، وفعل المأذون يُنسب [إلى][٦٥٢] الآذن، مثلا: إذا قال مالك لمملوكه: اضرب فلانا، فضربه. يقال في العرف: الملِك ضربه. ويصح عرفا قول القائل: ما ضرب فلان فلانا، إنما المالك أمر بضربه، فضُرب. فهؤلاء جعلوا الكواكب والسماوات مُعَيّنين لله تعالى، فقال تعالى في إبطال قولهم:﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ وما فوض إلى شيء شيئا، بل هو على كل شيء حفيظ ورقيب. ورابعها: قول من قال: إنا نعبد الأصنام التي هي صور الملائكة يشفعون [لنا][٦٥٣]، فقال تعالى في إبطال قولهم:﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، فلا فائدة لعبادتكم غير الله، فإن الله لا يأذن في الشفاعة من يعبد غيره، فيطلب لكم الشفاعة. قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ وفيه وجوه: أحدها: الفزع الذي عند الوحي، فإن الله عندما يوحي، يفزع من في السماوات، ثم يزيل عنهم الفزع، فيقولون لجبريل – عليه السّلام –:ماذا قال الله؟ فيقول: قال الحق، أي الوحي.

---

[٦٥٢] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٠٣/٢٥.

[٦٥٣] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٠٣/٢٥.

وقدم هذا. وثانيها: الفزع الذي من الساعة، وذلك لأن الله تعالى لما أوحى إلى محمد ﷺ، فزع من في السماوات من القيامة، لأن إرسال محمد ﷺ من أشراط الساعة، فلما زال عنهم ذلك الفزع، قالوا: ماذا قال الله تعالى؟ قال جبريل: الحق، أي الوحي. والثالث: هو أن الله تعالى يزيل الفزع وقت الموت، فيعترف كل أحد بأن [ما قال الله تعالى هو الحق][٦٥٤]، فينفع ذلك لمن سبق منه ذلك، ثم يقبض روحه على الإيمان المتفق عليه بينه وبين الله تعالى. وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ وتفسيره قد تقدم في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هو الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هو الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[لقمان:٣٠]، أن الحق إشارة إلى أنه كامل لا نقص فيه.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقد ذكر مرارا أن العامة يعبدون الله لا لكونه إلـٰهـا، وإنما يطلبون به شيئا، إما دفع حرز، أو جرّ نفع، فنبه الله تعالى العامة بقوله:﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ على أنه لا يدفع الضرر أحد إلا الله، هو كما قال تعالى:﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾[٦٥٥][الأنعام:١٧]، وقال بعد إتمام بيان ذلك:﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة إلى أن جرّ النفع ليس إلا به ومنه، فإذاً إن كنتم من الخواص، فاعبدوه لعلوّه وكبريائه، سواء دفع عنكم ضررا، أو لم يدفع، وسواء نفعكم بخير، أو لم ينفع، فإن لم تكونوا كذلك، فاعبدوه لدفع الضرر، وجرّ النفع. ثم قال:﴿قُلِ اللَّهُ﴾ يعني إن لم يقولوا هم، فقل أنت: الله يرزق. ثم قال ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى

---

[٦٥٤] في الأصل (قال الله تعالى)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٠٤/٢٥.

[٦٥٥] سقط من الأصل كلمة (له)، وهو خطأ في كتابة الآية.

هُدًى أَوْ فِي ضَلَلٍ مُبِينٍ﴾ وفي هذا إرشاد من الله ورسوله إلى المناظرات الجارية في العلوم وغيرها، وذلك لأن أحد المناظرين إذا قال للآخر: هذا الذي تقوله خطأ، وأنت فيه مخطئ. يُغضبه، وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر، وعند اختلاله لا مطمع في الفهم [فيفوت][٦٥٦] الغرض، وأما إذا قال له: بأن أحدنا لا يشك في أنه مخطئ، والتمادي في الباطل قبيح، والرجوع إلى الحق أحسن الأخلاق، فيجتهد ليحترز ذلك الخصم عن الاجتهاد في النظر، ويترك التعصب، وذلك لا يوجب [نقصا][٦٥٧] في المترلة، أو وهمٌ بأنه في قوله شاكّ. ويدل عليه قول الله تعالى لنبيه: قل إنا أو إياكم، مع أنه لا شكّ في أنه هو الهادي وهو المهتدي، وهم الضالون المضلون، وإنما ذكر في الهدى كلمة (على)، وفي الضلال كلمة (في)، لأن المهتدي كأنه مرتفع مطلع، فذكر بكلمة (على)، والضال منغمس في الظلمة، غريق فيها، فذكره بكلمة (في)، وإنما وصف الضلال المبين، ولم يصف الهدى، لأن الهدى هو الصراط المستقيم، الموصل إلى الحق، والضلال خلافه، لكن المستقيم واحد، وما هو غيره كله ضلال، فبيّن البعض عن البعض بالوصف.

ثم قال تعالى:﴿قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وإنما أضاف الإجرام إلى النفس، وقال في حقهم:﴿وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ذكر بلفظ العمل، لئلا يحصل الغضب المانع من الفهم. وقوله: ولا تُسألون ولا نُسأل زيادة حث على النظر، وذلك لأن

---

[٦٥٦] في الأصل (فيقولون)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٥/٢٠٥.

[٦٥٧] في الأصل (بقضاء)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٥/٢٠٥.

كل واحد إذا كان مؤاخذا بجرمه [فإذا احترز][٦٥٨] نجا، ولو كان البريء يؤاخذ بالجرم لما كفى النظر.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ﴾ وهذا إشارة إلى إلزام الخصم وإسكاته، يجمع بيننا ربّنا يوم القيامة، يقضي بالعدل، فيجزي كل فريق على وفق عمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. ﴿وَهو الْفَتَّاحُ﴾ أي القاضي العدل. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأعمال العباد، وبوجوه القضاء، ولا يعزب عن عمله مثقال ذرة في السماوات، ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

ثم قال ﴿أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلاَّ بَلْ هو اللَّهُ﴾ قد ذكرنا أن المعبود يعبده قوم لدفع [ضرر][٦٥٩]، وجمعٌ لتوقع المنفعة، وقليل من الأشراف الأعزة [يعبدونه][٦٦٠] لأنه مستحق للعبادة لذاته. فلما بيّن أنه لا يعبد غير الله لدفع الضرر إذ لا دافع للضرر بقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وبيّن أنه لا يعبد غير الله لتوقع المنفعة بقوله:﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ بيّن ههنا أنه لا يعبد أحد لاستحقاقه العبادة غير الله، فقال:﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلاَّ بَلْ هو اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، أي المعبود لذاته، واتصافه بالعزة، وهي القدرة الكاملة، والحكمة، وهي العلم التام الذي عمله موافق له"[٦٦١].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

---

[٦٥٨] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٥/٢٠٦.

[٦٥٩] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٥/٢٠٦.

[٦٦٠] في الأصل (يعبدون)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٥/٢٠٦.

[٦٦١] مفاتيح الغيب، ٢٥/٢٠٢-٢٠٦.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ "يشير بهذا إلى أن إبليس لم يكن متيقنا أنه لم يقدر على الإغواء والإضلال، بل [كان ظانا][٦٦٢] بنفسه أنه يقدر على إغواء من لم يطع الله ورسوله، ولما زين لهم الكفر والمعاصي على وفق هواهم، وتابعوه بذلك، صدق عليهم إبليس ظنه، غير مستقل في التسلط عليهم، بل بتسليط الله إياه عليهم، كما قال تعالى:﴿وَمَا كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَنٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾٦٦٣ أي ما سلطناه عليهم إلا ليميز﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِآلْ أ ٓخِرَةِ﴾ أي نظهر ونبين من هو مؤمن، ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا﴾ أي من الآخرة ﴿فِى شَكٌ﴾، ولا يظنن ظانٌّ بالله ظنّ السوء أن الله جل جلاله لم يكن عالما بأهل الكفر، وأهل الإيمان، وإنما سلط عليهم إبليس ليعلم به المؤمن من الكافر، فإن الله تعالى بكمال قدرته وحكمته، خلق أهل الكفر مستعدا للكفر، وخلق أهل الإيمان مستعدا للإيمان، كما قال – عليه السّلام –: "إن الله خلق الجنّة وخلق لها أهلا، وخلق النار وخلق لها أهلا"[٦٦٤].

وقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ الآية[الأعراف:١٧٩]، فالله تعالى كان عالما بحال الفريقين قبل خلقهم، وهو الذي خلقهم على ما هم عليه، ولهذا قال:﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي هو الذي يحفظ كل شيء على ما هو. وقال – عليه السّلام –: "بعث الشيطان مزينا وليس إليه من الضلالة شيء". وإنما سلطه على بني آدم لاستخراج

[٦٦٢] في الأصل (كانا ظنا)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/١٠٢.

[٦٦٣] سقط من الأصل كلمة (له)، وهو خطأ في كتابة الآية.

[٦٦٤] نص الحديث في صحيح مسلم هكذا: عن عائشة أم المؤمنين، قالت: توفي صبي، فقلت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة، فقال رسول الله ﷺ: "أوَ لا تدرين أن الله خلق الجنة وخلق النار، فخلق لهذه أهلا ولهذه أهلا". مسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة،٤/٢٠٥٠، رقم (٢٦٦٢).

جواهرهم الإنسانية، كما تسلط النار على المعادن لتلخيص جوهرها، فإن كان الجوهر ذهبا فيخرج من الخلاص الذهب، وإن كان الجوهر نحاسا [فيخرج النحاس][٦٦٥]، فلا تقدر النار أن يخرج من معدن النحاس الذهب، ولا من معدن الذهب النحاس، وإنما سلط [الشيطان][٦٦٦] على بني آدم، لأنهم معادن كمعادن الذهب والفضة، وهوناري، ليستخرج جواهرهم من معادنهم بنفخة [الوسواس][٦٦٧]، فلا يقدر [أن يخرج][٦٦٨] من كل معدن إلا ما هو جوهره.

وبقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم آلهة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يشير إلى الهوى، والدنيا، والشيطان، فإن النفوس الحيوانية يعبدون هذه الأشياء، ويجدونها آلهة لاحتياجهم لها.﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوٰتِ﴾ سماوات القلوب، ﴿وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أرض النفوس من سعادة ولا شقاوة.﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾ أي شركة في إصلاح القلوب والنفوس، وإفسادها، فإن القلوب بيد الله، يقلبها كيف يشاء.﴿وَمَا لَهُ﴾ أي وما لله، ﴿مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي من معاونة في الإصلاح والإفساد، وإن كانوا وسائط لهذا المعنى، لأنهم كالآلة للصانع، فالصانع واحد، والآلات والأدوات كثيرة.

وبقوله:﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ يشير إلى أنه تعالى متفرد بملكه، متوحد في الإلـٰهية، متقدس عن الأضداد والأنداد، وأن الملائكة في السماء بوصف

---

[٦٦٥] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٢.

[٦٦٦] في الأصل (الشيطا)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٢.

[٦٦٧] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٣.

[٦٦٨] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٣.

[إلـٰهيته][٦٦٩] فرعون، لا يتجاسرون بشفاعة أحد إلا بإذنه، وأنهم مع رفعة قدرهم، وعزة قوتهم، إذ أوحى الله بشيء، وسمعوا كلامه من سكون جلاله يصعقون، ومن عظمة كلامه لا يفهمون.﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ يعني يسأل بعضهم عن بعض، ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ يعني ما فهموا من هيبة كلامه، ولكن يعلمون أنه يقول الحق، ولا يقول الباطل. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي عليٌّ الشأن، وكبير السلطان، في ذاته، وصفاته، وأفعاله.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوٰتِ﴾ سماوات القلوب، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أرض النفوس، ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ يشير إلى أن ماء الفيض لا نزل من سماء القلب، وضياء شمس الروح، لا ينقطع [إذا سطع][٦٧٠] من سماء الروح على أرض النفس، وفيها بذر المعاملات الشرعية [مزروع][٦٧١]، فمن الذي يرزق من ثمراتها إلا الله، لأن ماء الفيض، وضياء شمس الروح على أرض النفوس المزروعة ببذر أعمال الشريعة لا يثمر إلا بهبوب ريح العناية عليها.﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ بالإيمان بهذه الحقيقة،(أو) ههنا بمعنى (الواو)، والمعنى: إنا وإياكم لعلى هدى [إذ نؤمن بهذا][٦٧٢]. ﴿أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُبِينٍ﴾.

بقوله:﴿قُلْ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يشير إلى أن كل زارع يحصد زرعه لا زرع غيره، ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم حصاد زرعنا، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ أي يحكم،

---

[٦٦٩] في التأويلات النجمية (الهيبة).

[٦٧٠] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٣.

[٦٧١] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٣.

[٦٧٢] في الأصل (يؤمن بهذا)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٣.

﴿بَيْنَنا بِالْحَقِّ﴾ بأن يختص كل واحد بحصاد زرعه. ﴿وَهو الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أي حاكم، ﴿الْعَلِيمُ﴾ فيما يحكم به.

﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ من الدنيا، والهوى، والشيطان، هل خلقوا من الأرض أرض النفس شيئا؟ أي شيئا من الأعمال النافعة المنجية. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰوٰتِ﴾[الأحقاف:٤] أي لهم شرك معي في سماوات القلوب بالواردات الروحانية، والشواهد الربانية. ثم قال:﴿كَلَّا﴾ أي ليس لهم شرك في حكم من أحكامنا. ﴿بَلْ هو اللَّهُ﴾ أي هذا كله من فضله ورحمته، ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي ليس له شريك في الأفضال والرحمة، ولا مثل ولا نظير. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي أفعاله مبنية على الحكمة، لا على العلة"[٦٧٣].

[فصل في التفسير الصوفي النظري]

"قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ على الناس، ﴿إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ في قوله: لأضلنهم، ولأغوينهم، ولآمرهم فليغيرن خلق الله، وأمثال ذلك. والفريق المستثنون هم المخلصون، وهو قوله:﴿وَمَا كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَنٍ﴾ أي ما سلطناه عليهم، إلا لظهور علمنا في مظاهر المحققين المخلصين، وامتيازهم عن المحجوبين المرتابين، فإن المستعد الموفق، الصافي القلب، ينبع علمه من مكمن الاستعداد، وينفجر من قلبه عند وسوسة الشيطان، فيرجمه بمصابيح الحجج النيرة، ويطرده بالعياذ بالله عند ظهور مفسدته اللغويّة، بخلاف من الذين اسودت قلوبهم بصفات النفوس، وناسبت بجهالاتهم مكايد الشيطان.﴿وَهو الْفَتَّاحُ﴾ بين المحق والمبطل،

---

[٦٧٣] *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٢-١٠٤.

ومقالات الظالمين كلها تظهر عند ظهور مجمع الخلائق وهو يوم القيامة. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بهم، وبأحوالهم، وأقوالهم، ومناظراتهم"[٦٧٤]، والله أعلم. هذا هو الباطن، والإقرار بظواهرها واجب، والله أعلم بسرائر الأمور.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٣٤) وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

---

[٦٧٤] ينظر: تفسير ابن عربي، ٢/١٥٣.

ثم أخبر عن رسالة المصطفى إلى كافة الورى، بقوله تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ "أي وما أرسلناك إلا بشيرا ونذيرا للناس، كافة: أي جميعا، يقال: كفّ الثوب، جمع ما تفرق من أطرافه"[٦٧٥]، وفيه تقديم وتأخير. وعن أبي قلابة عن النبي ﷺ أنه قال: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: بعثت إلى كل أحمر وأسود، فليس من أسود وأحمر يدخل في أمتي إلا كان منهم، ونصرت بالرعب أمامي مسيرة شهر، وجعلت فاتحا وخاتما، وجعلت لي الأرض مسجدا، أينما أدركتنا الصلاة صلينا، وإن لم نجد ماء تيممنا، وأطعمنا غنائمنا و لم يطعمها أحد قبلي، كانت قرباتهم تأكله النار"[٦٧٦].

"وقوله: ﴿بَشِيرًا﴾ يعني بشيرا بالجنّة لمن أطاعه، ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالنار لمن عصاه. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني لا يصدقون بالجنّة"[٦٧٧]، "ويقال: ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وهم المشركون، لأنهم أكثر من المؤمنين، ولا يعلمون: أي [لا يعلمون][٦٧٨] بعلمهم، ولا يتأملون ليعلموا"[٦٧٩].

"﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ يعني البعث وهذا [شامل][٦٨٠] يقع به التبشير والإنذار، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني إن كنت صادقا بالبعث، ويقال: إن كنت رسول الله.

---

[٦٧٥] التيسير في التفسير، ١٢/٢٥٧.

[٦٧٦] مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ١/٣٧٠، رقم (٥٢١).

[٦٧٧] بحر العلوم، ٣/٩١.

[٦٧٨] في الأصل (لا يعلمهم)، وصححتها من التيسير.

[٦٧٩] التيسير في التفسير، ١٢/٢٥٨.

[٦٨٠] في الأصل (شاملا)، والصحيح (شامل) لأنه خبر.

﴿قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ﴾ يعني ميقاتا في العذاب. ويقال: ميقاتا في البعث والعذاب. ﴿لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً﴾ يعني عن الميقات والعذاب ساعة، يعني قدر ساعة، ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ قبل الأجل. ويقال: أنا قادر اليوم على عذابهم، ولكن أؤخرهم للوعد الذي كتب لهم في اللوح. ويقال: الميعاد يوم القيامة، أوالموت. يعني هذا مؤقت عند الله، لا تستأخرون ساعة ولا تستقدمون.

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْءانِ﴾ أي لن نصدق بنزول القرآن على محمد، ﴿وَلا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ التوراة والإنجيل، يعني جحدوا الكتب كلها أصلها سفها منهم. ويقال: ﴿وَلا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هو قيام الساعة، ثم بيّن حالهم في ذلك اليوم. ويقال: عقوبتهم في الآخرة، فقال:﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي محبوسون في موضع الحساب والسؤال.﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أي يتراجعون الكلام بينهم باللوم واللعن، والبراءة [من][٦٨١] بعضهم عن بعض.﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ وهم السفلة، والأتباع، ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ يعني القادة، والرؤساء، ﴿لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ يعني لولا دعوتكم وتقويتكم إيانا، واستتباعكم لنا، لكنا مصدقين بمحمد ﷺ متابعين له.

﴿قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ يعني القادة، ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ وهم الأتباع، ﴿أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى﴾ يعني أنحن منعناكم عن الإيمان؟ ﴿بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ﴾ به الرسول، ﴿بَلْ

---

[٦٨١] سقط من الأصل، وكتبتها من التيسير.

كُنتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ يعني المشركين، وهو استفهام بمعنى الإنكار، يعني ما منعناكم نحن عن اتباع الهدى، وما كان لنا ولاية القهر لوآمنتم، بل كنتم مجرمين، أي ثابتين على الكفر باختياركم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ أي بل كان سبب كفرنا، مكركم بنا في الليل والنهار على الدوام، كنتم تخادعوننا عن الهدى، وتمكرون بنا أبدا. وأضاف المكر إلى الليل والنهار لوقوعه منهم فيهما. ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ أي نجحد بوحدانية الله تعالى، ﴿وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً﴾ يعني أشباها من الأصنام، فنعبدها دونه.﴿وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ﴾ أي أضمروها في قلوبهم واستشعروها، وقيل: أخفوها، أي السادة عن الأتباع. وقيل: أظهروها بقولهم:﴿يَالَيْتَنا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا﴾[الأنعام:٢٧]، ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ﴾ يعني حين يروا العذاب، ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني جعلنا الأغلال في المستكبرين والمستضعفين جميعا فهم كفار.﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ استفهام بمعنى النفي للتقرير، أي لا يجزيهم إلا بأعمالهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها﴾ أي وما بعثنا قبلك في بلدة من رسول ينذر الناس عاقبة الشرك والكفر، إلا قال مُنعّموها وهم أصحاب الأموال والأعوان مستكبرين ممتنعين عن زوال رئاستهم: ﴿إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾[٦٨٢] أي جاحدون بالتوحيد"[٦٨٣].

---

[٦٨٢] سقط من الأصل كلمة (به)، وهو خطأ في كتابة الآية.

[٦٨٣] ينظر: بحر العلوم، ٣/٩١–٩٢، التيسير في التفسير، ١٢/٢٥٨–٢٦١.

"﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَأَوْلادًا﴾ في الدنيا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ في الآخرة. ومعناه أن الكفار المتقدمين استخفوا بالفقراء، وآذوا الرسول، كما يفعل بك قومك، وافتخروا بما أعطاهم الله من الأموال، كما افتخر قومك. وأمره بأن يأمرهم بأن لا يفتخروا بالمال، فإن الله تعالى يعطي الدنيا لمن يشاء، وهو قوله تعالى:﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يعني يوسع المال، ﴿لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيق على من يشاء، وهو حكمة من الله تعالى، لكي يعطيه في الآخرة من الجنّة ما قتّر عليه في الدنيا. ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن التقتير والبسط من الله تعالى، ويقال: لا يصدقون أن الذين اختاروا الآخرة خير من الذين اختاروا الدنيا"[٦٨٤].

[فصل في التفسير بالرأي]

"قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: كافة، أي إرساله كافة، أي عامة شاملة لجميع الناس، ويمنعهم عن الخروج عن الانقياد لها. والثاني: كافة، أي أرسلناك كافة تكفّ الناس أنت من الكفر، والهاء للمبالغة على هذا الوجه.﴿بَشِيرًا﴾ أي يحثهم بالوعد. ﴿وَنَذِيرًا﴾ يزجرهم بالوعيد.﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لا لخفائه، ولكن لغفلتهم.

---

[٦٨٤] بحر العلوم، ٣/٩٢-٩٣.

ثم قال تعالى:﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ لما ذكر الرسالة بيّن الحشر، وقال:﴿قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ ومعنى الاستئخار ظاهر، ومعنى الاستقدام أنهم لما طلبوا الاستعجال بيّن أنهم لا استعجال فيه، كما لا إمهال.

ثم قال تعالى:﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْءَانِ﴾ لما بين الأمور الثلاثة من التوحيد، والرسالة، والحشر، وكانوا بالكل كافرين، بيّن كفرهم العام بقوله:﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْءَانِ﴾، وذلك لأن القرآن مشتمل على الكل. وقوله:﴿وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ المشهور أنه التوراة والإنجيل. وعلى هذا فالذين كفروا المراد فيهم المشركون [المنكرون][٦٨٥] للنبوّات والحشر. ويحتمل أن يقال إن المعنى: أنّا لا نؤمن بالقرآن أنه من الله، ولا بالذي بين يديه: أي ولا بما فيه من الإخبارات، والآيات، والدلائل. وعلى هذا، الذين كفروا يكون المراد للعموم، لأن أهل الكتاب لم يؤمنوا بالقرآن أنه من الله، ولا بالذي فيه من الرسالة، وتفاصيل الحشر.

قوله تعالى:﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لما وقع اليأس من إيمانهم في هذه الدار بقولهم: لن نؤمن، [فإنه][٦٨٦] لتأييد النفي، وعد نبيه ﷺ بأنه يراهم على أذل حال، موقوفين عند ربهم، ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ يعني يقول بعضهم لبعض: كان ذلك بسببك. ويرد عليه الآخر مثل ذلك. وجواب (لو) محذوف، تقديره: ولو ترى إذ الظالمون موقوفون، لترى عجبا. ثم بدأ بالأتباع، لأن المُضلّ أولى بالتوبيخ، فقال:﴿يَقُولُ الَّذِينَ

---

[٦٨٥] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/٢٠٧.

[٦٨٦] في الأصل (وإنه)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/٢٠٧.

اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أن كفرهم كان لمانع لا لعدم المقتضي، لأنه لا يمكنهم أنهم يقولون: ما جاءنا رسول، ولا أن يقولوا: قصّر الرسول. وهذا إشارة إلى إتيان الرسول بما عليه، لأن الرسول لوأهمل شيئا لما كانوا يؤمنون.

ثم قال تعالى ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ ردا لِمَا قالوا إنّ كُفرنا كان لمانع، ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾[٦٨٧] يعني المانع يجب أن يكون راجحا على المقتضي حتى يعمل عمله، والذي جاء به هو الهدى، والذي صدر من المستكبرين لم يكن شيئا يوجب الامتناع من قبول ما جاء به، فلم يصح تعليلكم بالمانع، فظهر من هذا أن كفرهم إما أن يكون لعدم المقتضي، أولقيام المانع، و لم يوجد شيء منهما.

ثم قال تعالى:﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا﴾ لما ذكر المستكبرون أنا ما صددناكم، وما صدر منا ما يصلح مانعا وصارفا، اعترف المستضعفون للذين استكبروا: بل مكر الليل والنهار منعنا، ثم قالوا لهم: إنكم وإن كنتم ما أتيتم بالصارف القطعي، والمانع القوي، ولكن انضم أمركم إيانا بالكفر إلى طول الأمد، وامتداد المدد، فكفرنا. وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ أي ننكره، ﴿وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾. ثم قال تعالى ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ معناه أنهم يتراجعون القول في الأول، ثم إذا جاءهم العذاب الشاغل، يُسِرُّون ذلك التراجع الدال على الندامة. وقيل: معنى الإسرار: الإظهار، أي أظهروا الندامة. ويحتمل أن يقال: بأنهم لما تراجعوا في

[٦٨٧] في الأصل تكرار كلمة (صددناكم)، وهو خطأ في كتابة الآية.

القول، رجعوا إلى الله تعالى بقولهم: ﴿رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾[الأحقاف:١٢]. ثم قال ﴿وَجَعَلْنا الْأَغْلَٰلَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إشارة إلى كيفية العذاب، قطعوا بأنهم واقعون فيه، فتركوا التندم، فجعل الأغلال في أعناقهم. وقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى [أن][٦٨٨] ذلك حقهم عدلا.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها﴾ تسلية لقلب النبي ﷺ، وبيان، لأن إيذاء الكفارِ الأنبياءَ الأخيارَ ليس بِدْعاً، بل ذلك عادة جرت من قبل. وإنما نسب القول إلى المترفين، مع أن غيرهم أيضا قالوا: إنا بما أرسلتم به كافرون، لأن الأغنياء المترفين هم الأصل في ذلك القول، ألا ترى أن الله تعالى قال عن الذين استضعفوا، أنهم قالوا للمستكبرين: لولا أنتم لكنا مؤمنين، ثم استدلوا على كونهم مصيبين في ذلك، بكثرة الأموال والأولاد، فقالوا:﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَأَوْلادًا﴾ أي بسبب لزومنا لديننا. وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي في الآخرة، كأنهم قالوا حالنا عاجلا خير من حالكم أصلا، فلا يعذبنا، إنكارا منهم للعذاب رأسا، أواعتقادا لحسن حالهم في الآخرة أيضا، قياسا [على حسن حالهم في الدنيا][٦٨٩].

ثم إن الله تعالى بيّن خطأهم بقوله:﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ﴾ يعني أن الرزق لا يدل سعته وضيقه على حال المحق والمبطل، فكم من موسر شقيّ ومعسر

---

[٦٨٨] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٥/٢٠٩.

[٦٨٩] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٥/٢٠٩.

نقيّ.﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن قلة الرزق، وضنك العيش، وكثرة المال، [وخصب][٦٩٠] العيش، بالمشيئة من غير اختصاص بالفاسق والصالح"[٦٩١].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

"قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يشير بهذا إلى ماهية وجودك، التي عبرت عنها مرة بنوري، وتارة بروحي، من كتم العدم إلى عالم الوجود، لم يكن منا إلا ليكون بشيرا ونذيرا للناس كافة، من أهل الأولين والآخرين، والأنبياء والمرسلين، وإن لم يخلقوا بعد، لاحتياجهم بك من بدأ الوجود في هذا الشأن وغيره إلى الأبد. كما قال – عليه السّلام –: "الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم"، وأما في بدء وجودهم، فالأرواح لما حصلت في عالم الأرواح بإشارة (كن) تابعين لروحك، احتاجت إلى أن يكون لها بشيرا ونذيرا لتعلقها بالأجسام، لأنها علوية بالطبع، لطيفة روحانية، والأجسام سفلية بالطبع، كثيفة ظلمانية، لا يتعلق بها، ولا يميل إليها، [لمضادة][٦٩٢] بينهما، فيحتاج إلى بشير يبشرها بحصول كمال لها عند الاتصال بها، لترغب إليها، وتحتاج إلى نذير ينذرها بأنها إن لم تتعلق بالأجسام، يحرم عن كمالها، [وتبقى ناقصة][٦٩٣]، كمثل حبة فيها شجرة مركوزة بالقوة، فإن تزرع وتربي بالماء تخرج الشجرة من [القول][٦٩٤] إلى الفعل، إلى أن يبلغ كمالها

[٦٩٠] في الأصل (وخفض)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/٢٠٩.

[٦٩١] *مفاتيح الغيب*،٢٥/٢٠٦-٢٠٩.

[٦٩٢] في التأويلات النجمية (لمسادة).

[٦٩٣] في الأصل (ويبقى ناقصا)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/١٠٥.

[٦٩٤] في الأصل (القوة)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/١٠٥.

شجرة مثمرة، فالروح بمثابة البذر، والقالب بمثابة الأرض، والشخص الإنساني بمثابة الشجرة، والتوحيد والمعرفة ثمرتها بمثابة الماء، والبشير والنذير بمثابة الأكار المربّي، فيعد تعلق الروح بالقالب، واطمئنانه إليه، واتصافه بصفة، يحتاج إلى بشير بحسب مقامه، يبشره بنعيم الجنّة، وملك لا يبلى، ثم يبشره بقرب الحق تعالى، ويشوقه إلى جماله، ويعده بوصاله، وبنذير ينذره أولا بنار جهنم، ثم يوعده بالبعد عن الحق، ثم بالقطيعة والهجران. وإذا أمعنت النظر وجدت شجرة الموجودات مبنية من بذر روحه ﷺ، وهو[ثمرة][٦٩٥] هذه الشجرة مع جميع الأنبياء والمرسلين، وإنهم وإن كانوا ثمرة هذه الشجرة أيضا، ولكن وجدوا هذه المرتبة بتبعيته، كما أن من بذر واحد يظهر على الشجرة ثمار كثيرة بتبعية ذلك البذر الواحد، فتجد كل بشير ونذير فرعا لأصل بشريته ونذيريته، والذي يدل على التحقيق قوله تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾[الأنبياء:١٠٧]، دخلت شجرة الموجودات كلها تحت الخطاب. وبقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يشير][٦٩٦] إلى أن أكثر الناس الذين هم أجزاء وجود الشجرة، وما وصلوا إلى رتبة الثمرية، لا يعلمون حقيقة ما قدرنا، ولأن أحوال الثمرية ليست معلومة للثمرة إلا لثمرة مثلها، ووصفها ليكون واقفا بحالها.

وبقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ يشير إلى أرباب الطلب، واستعجالهم فيما وعدوهم من رتبة الثمرية، يعني متى نصل إلى الكمال الذي بشرتمونا به بقوله: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ يعني كما أن لثمرة كل

---

[٦٩٥] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٥.

[٦٩٦] في الأصل (بشيرا)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٥.

شجرة وقتا معلوما لإدراكها، وبلوغها إلى كمالها، كذلك لكل سالك وقت معلوم لبلاغه إلى رتبة كماله. كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾[الأحقاف:١٥]، ولهذا السرّ قال تعالى مع حبيبه ﷺ لما كان من أولي العزم: ﴿فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[٦٩٧][الأحقاف:٣٥]، بهذا يشير إلى أن لنيل كل مقام صبرا مناسبا لذلك المقام، فكما أن النبي ﷺ لما كان من أولي العزم من الرسل، أمر بصبر أولي العزم.

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْءَانِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يشير إلى كفار النفس وصفاتها، وكفرهم بحقائق القرآن والكتب المنزلة، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ وهم النفوس الكافرة، والقلوب الظالمة، صرفت استعدادها في غير موضعها.﴿مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ بحجب صفاتهم، ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ﴾ وهم المستكبرة، ﴿إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ وهم القلوب المستضعفة. [﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ﴾][٦٩٨] من النفوس للقلوب، ﴿أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدَى﴾ عن طريق الحق، ﴿بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ﴾ يشير به إلى أن الله عز وجل ما هداكم للإيمان، ولو كان هدى الله قد جاءكم [كيف نقدر أن نصد عنكم][٦٩٩] هدى الله بعد إذ جاءكم؟! ﴿بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ في [إفشاء][٧٠٠] استعداد قبول الإيمان، وصرفه في غير موضعه.

---

[٦٩٧] في الأصل (واصبر)، وهو خطأ في كتابة الآية.

[٦٩٨] في الأصل (يقول الذين استكبروا)، وهو خطأ في كتابة الآية، كما أن هناك نقصا في الأصل في الآيات أكملته من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٦.

[٦٩٩] في الأصل (كيف أن يصدّقنكم)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٧.

[٧٠٠] في الأصل (إفسادكم)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٧.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ من القلوب مجيبين ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ من النفوس المتمردة: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ يعني مكرتم بالليل والنهار على الدوام مكرا، إذ كنتم تأمروننا بالهواجس النفسانية، أن نتبع الهوى، ونتخذها إلــٰها، ونكفر بالله بترك أوامره ونواهيه، ﴿وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً﴾ من الشهوات الدنيوية، فبهذا المكر قطعتم علينا طريق الحق تعالى. ﴿وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ﴾ الفريقان أي أظهروها، ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ﴾ حين ما ينفعهم الإيمان والندامة، ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ﴾ التي اتخذوها من الأعمال الدنية، والأخلاق الردية، ﴿فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالحق لما جاءهم، هل تجزون بهذه الأغلال إلا ما كنتم تعملون من الأعمال ما يصلح لغلّ الأعناق.

وبقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ﴾ يشير إلى إرسال نذير إلهام رباني، في قرية الشخص الإنساني.﴿إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها﴾ أي النفس، وصفاتها، الأغنياء، والمتنعمون بالدنيا.﴿بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ من أعمال الخير، والأخلاق الحميدة.﴿كافِرُونَ﴾ جاحدون.

﴿وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَأَوْلادًا﴾ منكم. افتخروا بما هو فتنة لهم بقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[التغابن:١٥]، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ من عذاب الفقر، والفقر هو مفتخر نبينا ﷺ، بقوله: "الفقر فخري"[٢٠١]، وهم يعدونه بجهلهم من العذاب، وهو عين الرحمة.

[٢٠١] قال الحافظ ابن حجر: باطل موضوع. العسقلاني: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر (ت. ٨٥٢هـ)، *التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير*، دار الكتب العلمية - بيروت، ط (١)، ١٤١٩هـ - ١٩٨٩م،٣/٢٤١. أخرجه ابن الملقن: سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (ت. ٨٠٤هـ)،

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ به فتنة، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لمن يشاء به رحمة. ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ من أهل [الغفلة][٧٠٢] والخذلان، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقيقة، بل يظنون أن الغنى هو الرحمة، والفقر هو النقمة"[٧٠٣]، والله أعلم.

﴿وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

ثم أخبر عن فساد الأموال والأولاد بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى﴾ "يعني قربة، ومعناه وما أموالكم بالتي تقربكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى، يعني منزلة ودرجة.﴿إِلاَّ مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي لكن من آمن بالله ورسوله، وعمل الطاعات الصالحة، ﴿فَأُوْلَٰئِكَ لَهُمْ﴾ الزلفى عند الله تعالى. وأولئك ﴿لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي بأعمالهم. وقوله: ﴿جَزاءُ الضِّعْفِ﴾ أي الأضعاف، والضعف

البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، تحقيق: مصطفى أبو الغيط وآخرون، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض- السعودية، ط (١)، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ٥٨٧/٧. السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت. ٩٠٢هـ)، *المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة*، تحقيق: مصطفى أبو الغيط وآخرون، ص٤٨٠. العجلوني: إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي (ت. ١١٦٢هـ)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي، المكتبة العصرية، ط (١)، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ١٠٢/٢.

[٧٠٢] في الأصل (المغفرة)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ١٠٨/٥.

[٧٠٣] التأويلات النجمية، ١٠٤/٥-١٠٨.

هو المثل إلى ما زاد عليه، وهو جنس يصلح للجميع، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[الأنعام:١٦٠]، وقوله: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[البقرة:٢٤٥]. ﴿وَهُمْ فِى الْغُرُفَـٰتِ﴾ أي في غرف منازل الجنّة، ﴿ءَامِنُونَ﴾ من كل محزن. ويقال معناه: إلا من آمن، وعمل صالحا في أمواله وأولاده، وأنفق ماله في نصرة دين الله، وإقامة حقوق الله، واستظهر بأولاده على طاعة الله، ومتابعة رسول الله، ﴿فَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾ يتضاعف خيرهم بأموالهم وأولادهم. وقيل: جزاء الضعف هو دوام النعيم في الجنّة بالتضاعف وقتا بعد وقت بلا انقطاع. ويقال: جزاء الضعف يعني للواحد عشر إلى سبعمائة وإلى ما لا يخفى، والغرف: كل بناء يكون علو فوقه سفل. وروى محمد بن كعب القرظي: أن الغني إذا كان تقيا، يضاعف الله له الأجر مرتين، ثم قرأ هذه الآية ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿فَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾، يعني أجره مثل ما كان لغيره.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِى ءَايَـٰتِنَا﴾ أي في إبطالها وفي صرف الناس عنها، ﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾ ظانون أنهم يفوتوننا، ﴿أُوْلَـٰئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي في النار، بخلاف الفريق الأول في غرفات الجنّة آمنون.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي فلا تتكلوا على ما أعطاكم من أسباب العزّ والتوسع في الدنيا، ولا تمتنعوا بها من طاعة الله تعالى، بل أنفقوا في طلب مرضاته. ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي يعطي خلفه في الدنيا، مع ما يثبت عليه في الآخرة. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي المعطي، لأنه قادر على مواصلة رزقه، وزيادة ما شاء لمن شاء منه بغير حساب، وليس إعطاء العباد كذلك، ولأنه يعطي ملك نفسه، ولأنه

يوجد المعدوم وغيره، يصل رزق الله ويحول من موضع إلى موضع، ولا رازق إلا الله تعالى، ولا خالق أيضا غيره، لكن معنى خير الرازقين هذا وأحسن الخالقين أي أحسن المصورين، والمقدّرين. وقيل: معنى تكرار هذه الآية، أن الأول خطاب للكفار، وهذا خطاب المؤمنين. ويقال: قوله ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي في وجوه الخير، وذلك وإن لم يذكر فالإنفاق المثمر هذا، والذي لا يثمر هذا، كل إنفاق كالعلم الذي لا ينفع يسمى جهلا ولهذا وصف الكفار بأنهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[البقرة:١٧١]، لعدم انتفاعهم بهذه الآيات"[٢٠٤].

[فصل في التفسير بالرأي]

"قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلاَّ مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُواْ وَهُمْ فِي الْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ يعني قولكم أكثر أموالا وأولادا فنحن أحسن عند الله فلا استدلالا صحيحا فإن المال لا يقرب إلى الله، وإنما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان، والمال والولد يشغل عن الله، فيبعد عنه، فكيف يقرب منه؟! والعمل الصالح إقبال على الله تعالى، واشتغال بالله، ومن توجه إلى الله وصل، ومن طلب من الله شيئا حصل. وقوله: ﴿فَأُوْلَٰئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ﴾[٢٠٥] أي الحسنة، فإن الضعف لا يكون إلا في الحسنة، وفي السيئة لا يكون إلا المثل، ثم زاد وقال: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ إشارة إلى دوام النعيم وتأبيده، فإن من ينقطع عن النعمة لا يكون آمنا.

---

[٢٠٤] التيسير في التفسير، ١٢/٢٦٢-٢٦٤.

[٢٠٥] في الأصل (وأولئك)، وهو خطأ في كتابة الآية.

ثم بين حال المسيء بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ وقد مرّ تفسيره. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ إشارة إلى الدوام أيضا، كما قال: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾[السجدة:٢٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾[الانفطار:١٦].

ثم قال تعالى مرة أخرى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ إشارة إلى أن نعيم الآخرة لا ينافي نعيم الدنيا، بل الصالحون قد يحصل لهم في الدنيا النعم، مع القطع بحصول النعيم لهم في العقبى، بناء على الوعد، قطعا لقول من يقول: إذا كانت العاجلة لنا، والآجلة لهم، فالنقد أولى، فقال: هذا التقدير غير مختص بكم، فإن كثيرا من الأشقياء مدقعون، وكثير من الأتقياء ممتعون. وإنما ذكر هذا المعنى مرتين، مرة لبيان أن كثرة أموالهم وأولادهم غير دالة على حسن أحوالهم واعتقادهم، ثم إن سلمنا أنه كذلك لكن[المؤمنين][٢٠٦] سيحصل لهم ذلك، إما في الدنيا وإما في الآخرة، والذي يدل عليه هو أن الله تعالى لم يذكر أولا ﴿لِمَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، بل قال: ﴿لِمَنْ يَشَآءُ﴾ وثانيا قال: ﴿لِمَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ والعباد المضافة يراد بها المؤمن، ثم وعد المؤمن بخلاف ما للكافر، فإن الكافر دابره مقطوع، وماله إلى الزوال، ومآله إلى الوبال. وأما المؤمن فما ينفقه يخلفه الله، وما يخلفه الله خير، وإن ما في [يد][٢٠٧] الإنسان في معرض [البوار][٢٠٨] والتلف، [وهما لا يتطرقان إلى ما عند الله من

---

[٢٠٦] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/٢١٠.

[٢٠٧] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/٢١٠.

[٢٠٨] في الأصل (النوى)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٥/٢١٠.

الخلف][٧٠٩]. ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[وخيرية][٧١٠] الرازق في أمور: أحدها: أن لا يؤخر من وقت الحاجة. والثاني: أن لا ينقص من قدر الحاجة. والثالث: أن لا يرزقه [ينكده][٧١١] بالحساب. والرابع: أن لا يكدره بطلب الثواب، والله تعالى كذلك، أما الأول فلأنه عالم وقادر، والثاني فلأنه غني واسع، والثالث فلأنه كريم. وقد ذكر ذلك بقوله: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾[البقرة:٢١٢]، وما ذكرنا هو المراد، أي يرزقه حلالا لا يحاسبه عليه. والرابع فلأنه عليٌّ كبير، والثواب يطلبه الأدنى من الأعلى. ألا ترى أن هبة الأعلى من الأدنى لا تقتضي ثوابا. وقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ يحقق معنى قوله ﷺ: "ما يوم يصبح العباد إلا وملكان يترلان، يقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا"[٧١٢]، وذلك أن الله تعالى مَلِكٌ عليّ، وهو غنيٌّ مليّ، فإذا [قال][٧١٣] أنفق، وعَليّ بَدَلُه بحكم الوعد يلزمه، كما إذا قال قائل: ألق متاعك في البحر، وعليّ ضمانُه. فمن أنفق فقد أتى بما هو شرط حصول البدل، فيحصل البدل، ومن لم ينفق فالزوال لازم للمال. واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ينبئ عن كثرة الرازقين، ولا رازق إلا الله. وذلك أن يقال: الله خير الرازقين، الذين يظنوهم رازقين. وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ﴾[الصافات:١٢٥]، أو يقال: هو أن الصفات منها ما حصل لله وللعبد حقيقة، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة ولا يقال للعبد لا بطريق الحقيقة ولا

---

[٧٠٩] في الأصل (فإن ما عند الله من الخلف)، كما أن هناك نقصا في الأصل أكملته من *مفاتيح الغيب*،٢١٠/٢٥.

[٧١٠] في الأصل (وخيرة)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢١٠/٢٥.

[٧١١] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢١٠/٢٥.

[٧١٢] سبق تخريجه.

[٧١٣] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢١١/٢٥.

بطريق المجاز، لعدم حصوله للعبد حقيقة وصورة، مثال الأول: العلم، فإن الله يعلم أنه واحد، والعبد [يعلم][٧١٤] أنه واحد بطريق الحقيقة. وكذلك العلم بكون النار حارة، غاية ما في الباب أن علمه قديم، وعلمنا حادث. مثال الثاني: الرازق والخالق، فإن العبد إذا أعطى غيره شيئا، فالله هو المعطي، ولكن لأجل صورة العطاء منه سمي معطيا، كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط فرس وإنسان. وقد يقال الأشياء في الإطلاق على العبد حقيقة وعلى الله مجاز، [كالاستواء][٧١٥]، والنزول، والمعية، ويد الله"[٧١٦].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

"قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ وبهذا يشير إلى أن لا يستحق الزلفى عند الله بالمال والأولاد، لأن المال والأولاد توجب البعد عن الله، كما قال – عليه السّلام –: "حبك الشيء يعمي ويصم"، يعني يعميك عن رؤية غيرك، وهذا[أمارة][٧١٧] كمال [البعد][٧١٨]، [فإن][٧١٩] كمال [البعد][٧٢٠] يورث العمى [والصم][٧٢١]. ولكن من موجبات القربة: الأعمال الصالحة، والأحوال الصافية، والأنفاس الزاكية، بل العناية السابقة، والهداية اللاحقة، والرعاية الصادقة بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ

---

[٧١٤] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢١١/٢٥.
[٧١٥] في الأصل (كاستواء)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢١١/٢٥.
[٧١٦] *مفاتيح الغيب*، ٢٠٩/٢٥-٢١١.
[٧١٧] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ١٠٨/٥.
[٧١٨] في الأصل (العبد)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ١٠٨/٥.
[٧١٩] في الأصل (وإن)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ١٠٨/٥.
[٧٢٠] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ١٠٨/٥.
[٧٢١] في الأصل (والبعد)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ١٠٨/٥.

جَزاءُ الضِّعْفِ﴾ يضاعف على ما كان لمن تقدمهم من الأمم. ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ﴾ أي في درجات القربات ﴿آمِنُونَ﴾ من الهجران والقطيعة.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ هم الذين لا يحترمون الأولياء، فلا يراعون حق الله في السر، فهم في عذاب الاعتراض على أولياء الله، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك، في ارتكاب محارم الله، ثم في عذاب السقط من عين الله.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فكما أن رزق النفس: هو الطعام والشراب، كذلك رزق القلب: هو اليقين والاطمئنان برزق الله، ورزق السر أسرار القرآن، والذكر، ورزق الروح: حقائق القرآن. ورزق الخفي: وهو سر السر المشاهدات والمعاينات والكشوف. فيبسط ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لمن يشاء. ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي ما أنفقتم من الموجود الفاني الوجود الفاني، فهو يخلفه من الموجود [الفاني في][٧٢٢] الوجود الباقي، ومن الوجود المجازي [إلى][٧٢٣] [الوجود][٧٢٤] الحقيقي. فمن الخلف بالدنيا، الرضا بالعدم، والفقر صورة ومعنى. وبقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ يشير إلى أنه خير المنفقين، لأن [خيرية][٧٢٥] المنفق بقدر [خيرية][٧٢٦] النفقة، فما ينفق كل منفق من النفقة، فهو فانٍ، وما ينفق

---

[٧٢٢] في الأصل (الباقي)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٩.

[٧٢٣] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٩.

[٧٢٤] في الأصل (الموجود)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٩.

[٧٢٥] في الأصل (خير)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٩.

[٧٢٦] في الأصل (خير)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٠٩.

الله من نفقة ليخلفه بها، فهي باقية، والباقيات خير من الفانيات"[٢٢٧]. والله أعلم بسرائر الأمور.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (٤٢) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هَذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَقالُوا ما هَذا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هَذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

ثم أخبر عن حال النشر والحشر بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ "أي الذين سبق ذكرهم، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾، وقيل: ويوم نحشر العابدين والمعبودين جميعا، أي نجمعهم للحساب والعرض"[٢٢٨].

---

[٢٢٧] التأويلات النجمية، ٥/١٠٨-١٠٩.

[٢٢٨] التيسير في التفسير، ١٢/٢٦٥.

"﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰئِكَةِ أَهَٰؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ﴾ يعني أنتم أمرتم عبادي أن يعبدوكم؟! وهذا سؤال توبيخ، كقوله لعيسى – عليه السّلام –: أأنت قلت للناس؟! ويقال: وإذا سأل الله تعالى الملائكة: ﴿أَهَٰؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ؟! يتبرأ الملائكة منهم، وينزهون الله، ويقولون: سبحانك. وهو قوله: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾ فنزهت الملائكة ربّها عن الشرك. ويقولون: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ يعني تنزيها لك. ﴿أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ﴾ ونحن برآء منهم [من أن نأمرهم][٧٢٩] أن يعبدونا ﴿بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ يعني بل أطاعوا الشيطان في عبادتهم إيانا، وأكثرهم مصدقين بالشيطان، مطيعين لها. يقول الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا﴾ يعني شفاعة، ﴿وَلا ضَرًّا﴾ ولا دفع ضر عنهم. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني نقول للذين كفروا في الدنيا، ﴿ذُوقُواْ﴾ يعني نقول لهم في الآخرة، أو يقول لهم الخزنة: ﴿ذُوقُواْ عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾ أنها غير كائنة. ويقال: ويقولون مستهزئين: ﴿مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾. أو يقال لهم: اليوم لا تجدون عند هؤلاء الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ضرا ولا نفعا مما كنتم ترجون من شفاعتهم لكم. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لهؤلاء الكفار وسايرهم: ﴿ذُوقُواْ عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾"[٧٣٠].

"﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وإذا تقرأ وتعرض على هؤلاء ﴿ءَايَٰتُنا﴾ أي آيات القرآن، ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات دلالات على إعجاز القرآن، ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَا﴾ يعنون محمدا، ﴿إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ﴾ أي يصرفكم عن دين آبائكم. ﴿وَقالُوا

---

[٧٢٩] في الأصل (من غير أن أمرناهم)، وصححتها من بحر العلوم،٣/٩٤.

[٧٣٠] بحر العلوم،٣/٩٣–٩٤، التيسير في التفسير، ١٢/٢٦٦.

مَا هَٰذَآ﴾ يعني القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي كذب ﴿مُّفْتَرًى﴾ أي مختلق. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما هذا إلا سحر مبين، أي تخييل ظاهر، مرة قالوا: هو كذب، ومرة قالوا: هو سحر، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿سِحْرٌ﴾ من قول الأتباع، وقوله: ﴿إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ من قول السادة.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي وما أعطينا هؤلاء المشركين كتبا يتدارسونها فيدّعون أنهم وجدوا فيها شاهدا لقولهم، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي و لم يرسل إليهم قبلك يا محمد رسولا يخبرهم عن الله تعالى بإبطال محمد ﷺ، فليست عندهم حجة على ما يقولونه في القرآن. وهو كقوله: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾[الأحقاف: ٤].

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي وكذب الذين كانوا قبلهم من الأمم الرسل فأهلكناهم. ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي أن هؤلاء المشركين لم يبلغوا في القوة، والأموال، والأولاد، عُشر ما بلغه أولئك، وإذ لم يمتنع أولئك من عذابي، فكيف يمتنع هؤلاء؟! والمعشار: العشر، وكذلك المرباع: الربع، ولا يتكلم بمثله إلا في هذين اللفظين. ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ فأهلكهم بالعذاب حين كذبوا الرسل، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي كيف كان إنكاري؟ قيل: النكر جزاء المنكر، يعني فانظر كيف كان إنكاري وتغييري عليهم.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي بكلمة واحدة، ويقال: بخصلة واحدة. ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ بالحق. ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ مجتمعين ووحدانا. ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ يعني أمركم بالإنصاف أن تتأملوا حق التأمل، وتتفكروا في أنفسكم، هل لهذا الرجل الذي

يدعوكم إلى خالقكم وخالق السماوات والأرض، هل رأيتم [به][٧٣١] جنونا؟ ما بصاحبكم من جنة. وقال القتبي: تأويله أن المشركين قالوا: إنه ساحر مجنون، أو كذاب. فقال الله لنبيه ﷺ: قل لهم: اعتبروا أمري بواحدة، أن تنصحوا لأنفسكم، [ولا يميل][٧٣٢] بكم هوى، [فتقوموا لله][٧٣٣] في دار يخلوا فيها الرجل منكم بصاحبه، فيقول له: هلمّ فلنتصادق. هل رأينا بهذا جنة؟ أم جربنا [عليه][٧٣٤] كذبا؟ ثم ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه فيتفكر، وينظر، فإن ذلك يدل على أنه نذير. وكل من تحيّر في أمر قد اشتبه عليه، واشتد عليه إخراجه من الحيرة، صعب أن يسأل، ويناظر فيه، ثم يتفكر ويعتبر. ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ﴾ أي ما هو إلا مخوف لكم، ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ أي بين يدي القيامة. ويقال: بين يدي عذاب قد أعده الله تعالى لمكذبي رسله، وجاحدي كتابه، ومشركي غيره به. واحذروا أيضا أن ينالكم هذا العذاب الشديد، فقد اشتملت هذه الآية مع قلة حروفها على إثبات النظر ووجوهه.

وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ وتكون ما للنفي، أي ليس به جنون، ويقال: ما هو إلا مخوف لكم أمام عذاب شديد"[٧٣٥].

[فصل في التفسير بالرأي]

---

[٧٣١] سقط من الأصل، وكتبتها من بحر العلوم، ٣/٩٥.

[٧٣٢] في الأصل (ولا تميلوا)، وصححتها من بحر العلوم، ٣/٩٥.

[٧٣٣] في الأصل (وتقولوا لله)، وصححتها من بحر العلوم، ٣/٩٥.

[٧٣٤] في الأصل (عليهم)، وصححتها من بحر العلوم، ٣/٩٥.

[٧٣٥] بحر العلوم، ٣/٩٤-٩٥، التيسير في التفسير، ١٢/٢٦٦-٢٧٠.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾

اعلم أنه تعالى "لما بيّن أن حال النبي ﷺ كحال من تقدمه من الأنبياء، وحال قومه كحال من تقدم من الكفار، وبيّن بطلان استدلالهم بكثرة أموالهم وأولادهم، بيّن ما يكون عاقبة حالهم، فقال ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني المكذبين بك وبمن تقدمك. ثم نقول لمن يدّعون أنهم يعبدونهم وهم الملائكة، فإن غاية ما ترتقي إليه مترلتهم أنهم يقولون: نحن نعبد الملائكة، والكواكب، ونسأل الملائكة أنهم كانوا يعبدونكم إهانة لهم، فيقول كل منهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ نتزهك عن أن يكون غيرك معبودا، أنت معبودنا ومعبود كل خلق. قوله: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ ومعنى قوله: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ يعني كونك ولينا بالعبودية أولى وأحب إلينا من كونهم أولياءنا بالعبادة لنا. قوله: ﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ يعني بل كانوا يعبدون الجنّ، أي ينقادون لأمر الجنّ، فهم في الحقيقة كانوا يعبدون الجنّ، ونحن كنا كالقبلة لهم، لأن العبادة هي الطاعة. وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ لو قال قائل جميعهم كانوا تابعين الشيطان، فما وجه قولهم: أكثرهم بهم مؤمنون؟ فإنه ينبئ أن بعضهم لم يؤمن بهم، ولم يطع لهم، وذلك أن العبادة عمل ظاهر، والإيمان عمل باطن، فقالوا: ﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ لاطلاعهم، وقالوا: ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ عند عمل القلب، لئلا يكونوا مدّعين اطلاعهم على ما في القلوب، فإن القلب لله عليه الاطلاع، كما قال: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[الأنفال:٤٣].

ثم بيّن أن ما كانوا يعبدونه لا ينفعهم فقال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ الخطاب في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ يحتمل أن يكون مع الملائكة

لسبق قوله: ﴿إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ﴾، وعلى هذا يكون ذلك تنكيلا للكافرين، حيث تبيّن لهم أن معبودهم لا ينفع ولا يضر. ويصحح هذا قوله: [﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرحمـٰن عَهْدًا﴾[مريم:٨٧]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[الأنبياء:٢٨]] [٧٣٦]، ويحتمل أن يكون مع الملائكة الجنّ، أي لا يملك بعضكم لبعض أيها الملائكة والجنّ، وإذا لم تملكوا لأنفسكم فلا تملكوا لغيركم. ويحتمل أن يكون المخاطب هم الكفار، وقد مرّ هذا. وعلى هذا فقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ إنما ذكره تأكيدا لبيان حالهم في الظلم، وسبب نكالهم من الإثم. ولو قال (فذوقوا عذاب النار) لكان كافيا، لكنه لا يحصل ما ذكرنا من الفائدة، فإنهم كلما كانوا يسمعون ما كانوا عليه من الظلم، والعناد، والإثم، والفساد، يتحسرون ويندمون. وإنما قال ههنا: ﴿عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾، وقال في السجدة: [﴿عَذَابَ النَّارِ ٱلَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[السجدة:٢٠]] [٧٣٧] وذلك أن أول ما رأوا النار لأنه مذكور عقيب الحشر، فقيل لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾ وفي سورة السجدة الخطاب وقع حين العذاب، ولهذا قال: ﴿كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنا بَيِّنَٰتٍ قالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ﴾ إظهارا لفساد اعتقادهم، واشتداد عنادهم، حيث تبين أن أعلى من يعبدونه الملائكة لا يتأهل للعبادة. كما قالوا ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا﴾ أي لا أهلية إلا لعبادتك من دونهم، أي لا أهلية لنا

---

[٧٣٦] في الأصل (ولا يملكون الشفاعة إلا لمن ارتضى)، أي أن هناك خلطا بين الآيتين، وصححتها من مفاتيح الغيب، ٢١٢/٢٥.

[٧٣٧] سقط من الأصل كلمة (الذي)، وهو خطأ في كتابة الآية.

أن نكون معبودين لهم، ولا نفع ولا ضر. كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ ثم مع هذا كله إذا قال لهم النبي ﷺ كلاما من التوحيد، وتلا عليهم آيات الله الدالة عليه، فإن لله في كل شيء آيات دالة على وحدانيته، أنكروها، وقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَاباؤُكُمْ﴾ يعني يعارضون البرهان بالتقليد. ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾ يعني ما أتى به رسول الله ﷺ من المعجزات. ويقال: والمراد منه القرآن، وقد مرّ هذا. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ يعني القرآن، وقد مرّ هذا في التفسير الأول. وإنما قال ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على وجه العموم، وذلك لأن إنكار التوحيد كان مختصا بالمشركين، وأما إنكار القرآن، والمعجزة، كان متفقا عليه بين المشركين، وأهل الكتاب، ولهذا قال على وجه العموم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَمَا أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ تأكيد لبيان تقليدهم. يعني يقولون عندما تتلى عليهم الآيات البينات: هذا رجل كاذب. وهو قولهم: ﴿إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾ من غير برهان، ولا كتاب أنزله إليه، ولا رسول أرسله إليه، فالآيات البينات لا تعارض إلا بالبراهين العقلية، وبالتقلبات، ولم يأتوا بها، وما عندهم كتاب ولا رسول غيرك، والنقل المعتبر آيات كتاب الله، أو من سنة رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني كذبوا مثل عاد وثمود. قوله: ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشارَ مَا آتَيْناهُمْ﴾ يعني ما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتيناهم، أي ما آتينا المتقدمين من القوة، والنعمة، وطول العمر، ثم إن الله أخذهم، وما نفعتهم قوتهم، فكيف حال هؤلاء الضعفاء؟!

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا﴾ ذكر الأصول الثلاثة في هذه الآية بعد ما سبق منه تقريرها بالدلائل، فقوله: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ إشارة إلى التوحيد. وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ﴾ إشارة إلى الرسالة. وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ إشارة إلى اليوم الآخر. ولو قال قائل: قوله: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ يقتضي أن لا يكون إلا بالتوحيد والإيمان، لا يتم إلا بالاعتراف بالرسالة والحشر، فكيف يصح الحصر المذكور بقوله: إنما أعظكم [بواحدة؟][٧٣٨] وذلك أن التوحيد هو المقصود، ومن وحد الله حق التوحيد يشرح الله صدره، ويرفع في الآخرة قدره بالنبي ﷺ، وإن أمرهم بما يفتح عليهم باب العبادات، ويهيئ لهم أسباب السعادات، وأن النبي ﷺ ما قال: إني لا آمركم في جميع عمري إلا بشيء واحد، وإنما أعظكم أولا بالتوحيد، ولا آمركم في أول الأمر بغيره، لأنه سابق على الكل. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ فإن التفكر أيضا صار مأمورا، ويحتمل أن يقال: المراد حسنة واحدة، لأن التوحيد حسنة وإحسان. وقد ذكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾[النحل:٢٩]، أن العدل ينفي الإلـٰهية عن غير الله، والإحسان إثبات الإلـٰهية له. وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزاءُ الْإِحْسٰنِ إِلَّا الْإِحْسٰنُ﴾[الرحمـٰن:٦٠]: أن المراد هل جزاء الإحسان إلا بالجنان؟ وقوله: ﴿مَثْنىٰ وَفُرٰدَىٰ﴾ إشارة إلى جميع الأحوال، فإن الإنسان إما أن يكون مع غيره، أو يكون وحده، فإذا كان مع غيره دخل في قوله: ﴿مَثْنىٰ﴾، وإذا كان وحده دخل في قوله: ﴿وَفُرٰدَىٰ﴾، فكأنه قال: أن

---

[٧٣٨] في الأصل (بواحد)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٥/٢١٤.

تقوموا لله مجتمعين، ومنفردين، لا تمنعكم الجمعية من ذكر الله، [ولا يُحوجكم][٧٣٩] الانفراد إلى معين يعينكم على ذكر الله. ومعنى قوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ يعني اعترفوا بما هو الأصل والتوحيد، فلا حاجة فيه إلى تفكر ونظر. وقوله: ﴿مَا بِصَٰحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ يفيد كونه رسولا، وإن كان لا يلزم في كل من لا يكون به جنة أن يكون رسولا، وذلك أن النبي ﷺ كان يظهر منه أشياء لا تكون مقدورا للبشر وغير البشر ممن تظهر منه العجائب إما الجنّ وإما المَلَك، فلا يكون ما صدر عن النبي ﷺ صادرا بواسطة الجنّ، لأن فيما صدر عن النبي ﷺ أشياء لا يطيق الجنّ عليها، كانشقاق القمر، وغيره. فإذا لم يكن الصادر من النبي ﷺ بواسطة الجنّ، يكون بواسطة المَلَك، أو بقدرة الله تعالى، وعلى التقديرين فهو رسول. وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إشارة إلى قرب العذاب، كأنه قال: ينذركم إلى حاضر يمسكم عن قريب"[٧٤٠].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ "يشير بهذا إلى أنه كما يعبد قوم الملائكة بقول الشيطان، وإذا سأل الله الملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾؟ يتبرؤون منهم، وينزهون الله، ويقولون: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ كذلك من يعبد الله بقول الوالدين، والأهواء، يتبرأ منهم، ويقول: أنا منزّه منهم، لأن الله تعالى قال: من عبدني بالهوى فقد عبد الهوى، ومن عبدني

---

[٧٣٩] في الأصل (ولا يحق حكم)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢١٤/٢٥.

[٧٤٠] مفاتيح الغيب، ٢١١/٢٥-٢١٥.

بإعانة أهل الهوى فقد عبد أهل الهوى، لأنه ما عبدني مخلصا كما أمرته، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة:٥]، ولهذا المعنى أمرنا الله عز وجل أن نقول في عبادته في الصلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لم نعبد غيرك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على عبادك، لنعبدك بإعانتك، لا بإعانة غيرك. وبقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ يشير إلى أن أكثر مدّعي الإسلام بأهل الهوى يؤمنون بتقليدهم. وبقوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ يشير إلى من تعلق قلبه بالأغيار، وظن إصلاح حاله بالاستعانة بالأمثال والأشكال، يترع الله الرحمة من قلوبهم، ويتركهم، ويشوش أحوالهم، فلا لهم من الأشكال والأمثال معونة، ولا لهم من عقولهم في أمورهم استبصار، ولا إلى الله رجوع إلا في الدنيا، فإن رجعوا إليه في الآخرة لا يرحمهم، ولا يجيبهم، كما قال ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عبدوا غير الله، ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ نار البعد والقطيعة، ﴿الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

وبقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ يشير إلى صاحب نظر من أرباب الولاية إذا دلّ الناس على الله، ودعاهم إليه، قال إخوانهم السوء، وإخوانهم الجهلة، والمتنعمون من أهل الغفلة من الأقارب، ومن أبناء الدنيا، وربما كان من العلماء السوء الذين أسكرهم محبة الدنيا، فقال – عليه السّلام – فيهم: "أولئك قطاع الطريق على عبادي"[٧٤١]. ﴿هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ﴾ اصطيادكم، واستتباعكم،

---

[٧٤١] البيهقي: شعب الإيمان، فصل وينبغي لطالب العلم أن يكون تعلمه ولمعلم أن يكون تعليمه لوجه الله تعالى، ولفظ الحديث: أخبرنا أبو الحسين بن بشران، أخبرنا أبو عمرو بن السماك، حدثنا الحسين بن عمرو قال: سمعت بشرا يقول: "أوحى الله عز وجل إلى داود – عليه السلام –: يا داود، لا تتخذ بيني وبينك عالما مفتونا فيصدك بسكره عن طريق محبتي،

لتكونوا من أتباعه، وأعوانه، ومريديه، ويصدكم عن مذاهبكم، ويطمع في أموالكم، ومن ذا الذي يطيق أن يترك الدنيا بالكلية، ويقطع عن أقاربه وأهاليه، ويضيع أولاده، ويعق والديه، وليس هذا طريق الحق، وإنه لا يتم هذا الأمر ولكن يميل هذا المسكين من قبول النصح في الإقبال على الله، والإعراض عن الدنيا على هذا الطريق وربما كان له هذا من [خواطره الذميمة نية][٧٤٢] وهواجس النفس الردية، فيهلك ويضل. ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا﴾ يعني نصح هذا الناصح، ﴿إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾ لأغراض فاسدة. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جحدوا وأنكروا، ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ على لسان أولياء الله وأهل الحق. ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

﴿وَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ يشير إلى أنهم يعني هؤلاء المنكرين، ما قرأوا في كتب أنزلناها هذا الإنكار والاعتراض، وصدّ الطالبين عن الرشاد. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ يعني وما صحبوا شيخا كاملا قبل هذا التميز، [ليميز][٧٤٣] بنور صحبته.

ثم يقول ليسلّي أهل الحق ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني من المنكرين. ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَهُمْ﴾ من الإنكار والجحود. ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي اعتبروا بمن كان قبلكم من منكري المشايخ، ومكذبي الرسل، ما كان عاقبة إنكارهم إلا الحرمان في الدنيا عن مراتب الدين، وفي الآخرة عذاب نار القطيعة.

أولئك قطاع طريق عبادي". رقم (١٧٥٠)،٣/٣١٤. البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي الخراساني، *المدخل إلى السنن الكبرى*، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، باب مايكره لأهل العلم وغيرهم من التكبر، رقم (٥٤٥)، ص٣٣٥.

[٧٤٢] في الأصل (خواطر الدنية)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/١١٠.

[٧٤٣] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١١١.

﴿قُلْ﴾ يعني للمنكرين، ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ لا بالهوى لكشف أحوال أهل الحقائق، ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ إذ سولت لكم أنفسكم تكذيبهم، فأمعنوا النظر، هل ترون منهم آثار ما رميتموهم به من الكذب والافتراء وطمع المال والجاه. ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ جميعا فتعلموا، ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ كما ظننتم، ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ﴾ بلسان ينطق بالحق، ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ في الدنيا والآخرة، لينجيكم عند العذاب الشديد في الدنيا، الجهل، والنكرة، والجحود، والإنكار، والطرد، واللعن من الله، وفي الآخرة الحسرة، والندامة، والخجلة عند السؤال، وفي بعض الأخبار أن من سألهم الحق فيقع عليهم الخجل، يقولون عذبنا ربنا ما شئت من أنواع العقوبة، ولا تعذبنا بهذا السؤال"[٧٤٤]. والله أعلم بحقائق الأمور.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤)﴾.

[فصل في التفسير بالرواية]

---

[٧٤٤] التأويلات النجمية، ٥/٣، ١٠-١١١.

ثم أخبر عن أمر الآخرة بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾، "يعني كل ما طلبت منكم على ما أدعوكم إليه من الإيمان من جعل فهو لكم، أي فقد جعلته لكم، لا حاجة لي إليه، ولا أطلب منكم شيئا. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ أي ما أبتغي عليه إلا الثواب من الله، وقد وعده لي وعدا مؤكدا لا خلف فيه. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي شاهد علي وعليكم، شاهد لأفعالي وأفعالكم، فيجزي كلا على وفق عمله. وهو كقولك لمن نصحت له فلم يقبل: ما أعطيتني على نصيحتي لك، فخذه مني، أي لم تعطني شيئا، و لم أسأله منك. وللآية وجه آخر: قال الكلبي – رحمه الله – لما قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[الشورى:٢٣]، قالوا: [لا تؤذوا][٧٤٥] محمدا في أقاربه. فلما ذكر رسول الله ﷺ آلهتهم بعد ذلك، قالوا: ما أنصفنا محمد، ينهانا أن لا نؤذي أقاربه ففعلنا، وهو يذكر آلهتنا. فنزلت هذه الآية: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾، أي إن شئتم فآذوهم. فرد عليهم أجرهم الذي كان سألهم من أن لا يؤذوا أقاربه. وفيه وجه آخر: ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ وهو الكف عن أذى أقاربي، ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي فذلك الأجر لكم، لأنكم إذا فعلتموه كان ثوابه من عند الله لكم.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي يلقي الحق إلى والي عباده المؤمنين على وجه لا يقع عليه اعتراض متوجه، بل يبطل به الباطل. ﴿عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ أي هو علام الغيوب لا يخفى عليه حقائق الأشياء.

---

[٧٤٥] في الأصل (لا تؤذود)، وصححتها من التيسير.

﴿قُلْ جاءَ الْحَقُّ﴾ أي الدّين الحق، لوضوح آياته ودلالاته. ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْباطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي ولا يثبت للباطل أي الشرك أثر بدءا ولا عودا. وقال أبو عبيدة – رحمه الله –: ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي يأتي بالحق. ويقال: أي يلقي الحق في قلب من يشاء، وعلى لسانه. وقيل: هو ما قال في آية أخرى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ الآية [الأنبياء:١٨]. قال الضحاك: ﴿قُلْ جاءَ الْحَقُّ﴾ يعني القرآن، ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْباطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي ما يخلق إبليس لعند أحد ولا يبعثه. وقال الحسن – رحمه الله –: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْباطِلُ﴾ من أهله خيرا في الدنيا، ولا يعيد عليهم خيرا في الآخرة. والباطل: ما عبد من دون الله.

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ يعني قل يا محمد: إن ضللت، يعني إن تركت الحق الذي أتيت به، [واتبعتكم][٧٤٦] فألحقت الضرر بنفسي. ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ﴾ إلى الحقّ والهدى، ﴿فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ يعني من القرآن. ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما أقوله لكم، ﴿قَرِيبٌ﴾ مني ومنكم، يحادثني ويحادثكم.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ﴾ قيل: يتصل بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[سبأ:٣١]. وقال ابن عباس، والضحاك – رحمهم الله –: هو يوم بدر، حين أخذهم سيوف الملائكة. وقال الحسن – رحمه الله –: هو حين يخرجون من قبورهم إذا فزعوا، أي هابوا. وقيل: أي خافوا خوفا شديدا. وقيل: فلم يفوتوا ما نزل لهم من العذاب. ﴿وَأُخِذُواْ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ﴾ أي أخذوا في الدنيا قبل أن يصيروا إلى الآخرة، فهو المكان

---

[٧٤٦] في الأصل الكلمة ليست مقروءة، وكتبتها من التيسير.

القريب. وقال الحسن – رحمه الله –: وأخذوا يوم القيامة من مكان قريب من بطن الأرض إلى ظهرها.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ يعني بالعذاب. يقول الله تعالى ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ أي من أين لهم التوبة؟! ويقال: من أين لهم الرجعة؟! ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ يعني من الآخرة إلى الدنيا. وروي عن ابن عباس أنه قال: من مكان بعيد: قال: سألوا الرد حين لا رد.

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ يعني كفروا بالله قبل الموت. ويقال (به) يعني بمحمد ﷺ. ويقال: بالقرآن. ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يعني يتكلمون بالظن في الدنيا. ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ يعني لا جنة، ولا نار، ولا بعث. وقيل: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي يرمون آجالهم من مكان بعيد، أي يقدرونها بطول فيسوفون التوبة.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي من الانتفاع من الإيمان والتوبة. ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي بالذين شايعوهم على الكفر من الماضي كان لا يقبل إيمانهم عند البأس. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾[غافر:٨٤] الآية. وقيل: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وهو الأموال، والأولاد، والأسباب التي كانوا ينتفعون بها، ويتفوزون في الدنيا. ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ أي في شك من القرآن، والرسول، والإيمان، والبعث.

قال ابن عباس – رضي الله عنهما –: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ﴾ في الذي يظهر في آخر الزمان، يقصد الكعبة في ثمانين ألفا ليخربها، فيخسف بهم. ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ خسف بهم من تحت أرجلهم. وقال مقاتل: يبعث ثلاثين ألفا إلى مكة، عليهم رجل يقال له

بخير بن بجيلة، فإذا دخلوا البيداء، خسف بهم، فلا يلتفت منهم إلا رجل من جهينة، يقال له ناجية، مقلوب وجهه إلى قفاه، يخبر الناس بما أصابهم[٧٤٧]. وقال مقاتل بن سليمان: يخرج السفياني من الوادي اليابس في أخواله من كلب، فيخطبون على منابر الشام، فإذا بلغوا عين النهر، محا الله تعالى الإيمان من قلوبهم، فيخرجون حتى ينتهوا إلى جبل الذهب، فيقاتلون قتالا شديدا، فيقتل السفياني سبعين ألف رجل، عليهم السيوف المحلاة، والمناطق المفضضة، ثم يدخل الكوفة، ثم يصير أهلها ثلاث فرق، فرقة تلحق بهم، وهم شرار خلق الله، وفرقة تقاتله، وهم عند الله شهداء، وفرقة ثالثة، تلحق بالأعراب وهم العصاة. ثم يدخل الكوفة، فيقبض أصحابه ثلاثين ألف عذراء، فإذا أصبحوا كشفوا شعورهم، وأقاموهن على السوق يبيعوهن، فعند ذلك كم من [لاطمة][٧٤٨] خدها، كاشفة شعرها، فيبلغ الخبر أهل البصرة، فيركبون إليهم في البر والبحر، فينقذون أولئك النساء من أيديهم، فيصير أصحاب السفياني ثلاث فرق، فرقة تسير نحو الري، وفرقة تبقى بالكوفة، وفرقة تأتي بالمدينة، وعليهم رجل من بني زهرة، فيحاصرون أهل المدينة، فيقتلون جميعا، فيقتل بالمدينة مقتلة عظيمة، حتى يبلغ الدم الرأس المقطوع، ويقتل رجل من أهل بيت رسول الله ﷺ، وامرأته، واسم الرجل محمد، واسم المرأة فاطمة، ويسلبونها، فعند ذلك اشتد غضب الله تعالى عليهم، فيبلغ الخبر ولي الله، فيخرج من قرية من قرى [جُرَش][٧٤٩]، في ثلاثين رجلا، فيبلغ المؤمنين خروجه، فيأتونه من الأرض، ويَحِنّون إليه، كما تَحِنّ الناقة إلى فصيلها، فيجيء فيدخل مكة، فتقام الصلاة، فيقال: تقدم يا

---

[٧٤٧] مقاتل: *تفسير مقاتل*،٣/٥٣٩.

[٧٤٨] في الأصل (اللاطمة)، وصححتها من *التيسير*.

[٧٤٩] في الأصل (حماس)، وصححتها من *التيسير*.

ولي الله. فيقول: لا أفعل. ثم يصلي بهم رجل، ثم أرادوا أن يبايعونه، فيبايعونه، فإذا فرغوا من بيعته بعث خيلا إلى المدينة، عليهم رجل من أهل بيته، فيقاتل الزهري، فيقتل من كل الفريقين مقتلة عظيمة، ثم يرزق الله تعالى الظفر، فيقتل الزهري، ويقتل أصحابه. ثم يبلغ الخبر السفيان، خرج من الكوفة في سبعين ألفا، حتى إذا بلغوا البيداء عسكر بها، وهو يريد قتال ولي الله، وخراب بيت الله، فبينما هم كذلك بالبيداء، إذ نفر فرس من العسكر لرجل، فخرج الرجل لطلبه، فبعث الله تعالى جبريل - صلوات الله عليه - فضرب الأرض برجله ضربة، فخسف الله بالسفيان وأصحابه، ورجع الرجل يقود فرسه، فيستقبله جبريل - صلوات الله عليه - فيقول: ما هذه الضجة في العسكر؟ فيضربه جبريل - صلوات الله عليه - بجناحه، فيحول وجهه مكان القفا، فيمشي قهقرى. فهذه الآية نزلت فيهم"[٧٥٠].

وفي هذه الآية عظة لأرباب الهداية، أن مجاوزة الحد سبب الخزي في الدنيا والأخرى، ووسيلة الهالك للفاجر بما يؤتى من متاعها القليل، والفاجرة به. وقد قيل: من سلّ على غيره سيف العدوان يعود إليه، ومن رفع على غيره عذبه التعدي يصب سوط العذاب عليه، ومن حفر لأخيه يقع فيه. وقد قال النبي ﷺ: "الدنيا دار ممرّ لا دار مقر، والناس فيها رجلان، رجل باع نفسه فأوبقها، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها"[٧٥١]. أين الذين كانوا في تيه الغفلة هائمين؟

---

[٧٥٠] التيسير في التفسير، ١٢/٢٧٠-٢٨٠.

[٧٥١] هذا الأثر منسوب إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -. ابن أبي الحديد: عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين (ت. ٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، (٣٢٩/١٨). أما الحديث الصحيح الذي ورد عن النبي ﷺ فهو بلفظ: "كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا". مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، (٢٠٣/١)، رقم (٢٢٣).

وعلى سرر الغرة نائمين؟ وفي أذى خصم [الصنفاطة][٧٥٢] غانمين؟ أخذوا من مكان قريب فأبيدوا، وإلى ما خلقوا منه أعيدوا، وندموا بعد ما نادوا، و لم يجدوا مخلصا مما إليه عادوا، فصاروا تذكرة لأولي الألباب حين برزوا من كل باب.

[فصل في التفسير بالرأي]

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّمُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ اعلم أنه تعالى "لما ذكر أن النبي ﷺ ما به جنة، ليلزم من كونه نبيا، ذكر وجها آخر يلزم منه إذا لم يكن مجنونا لا يرتكب العناء الشديد، لأن من يرتكب العناء الشديد لا لغرض عاجل إذا لم يكن فيه ثواب آخر يكون مجنونا، فالنبي ﷺ بدعواه النبوة، يجعل نفسه عرضة للهلاك عاجلا، ولا يطلب أجرا في الدنيا، فهو فعل للآخرة، والكاذب في الآخرة معذب لا مثاب له، فلو كان كاذبا لكان مجنونا، لكنه ليس بمجنون، فليس بكاذب، [فهو][٧٥٣] نبي صادق. قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تقرير للرسالة، وذلك لأن الرسالة لا تثبت إلا بالدعوى والبينة، والنبي ﷺ يدعي النبوة، والله تعالى يظهر المعجزة في يده، والتصديق بالفعل، يقوم مقام التصديق بالقول في إفادة العلم.

---

[٧٥٢] لم أستطع تمييزها، وأثبتها كما هي.

[٧٥٣] في الأصل (فهي)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢١٥/٢٥.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: يقذف الحق في قلوب المحقين. وعلى هذا الوجه، الآية تعلقت بما قبلها، وذلك من حيث إن الله تعالى لما بيّن رسالة النبي ﷺ بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ﴾، وأكده بقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾، وكان من عادة المشركين استبعاد تخصيص واحد من بينهم بإنزال الذكر [عليه][٧٥٤] كما قال تعالى عنهم: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾[ص:٨]، ذكر ما يصلح جوابا لهم. فقال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ في القلوب، إشارة إلى أن الأمر بيده، يفعل ما يريد، ويعطي ما يشاء لمن يشاء. ثم قال: ﴿عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ إشارة إلى جواب سؤال فاسد، وهو أن من يفعل شيئا كما يريد من غير اختصاص محل الفعل بشيء لا يوجد في غيره لا يكون عالما [وإنما فعل ذلك اتفاقا][٧٥٥] فقال: ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ كيف يشاء، وهو عالم بما يفعله، وعالم بعواقب ما يفعله، فهو يفعل ما يريد، لا كما يفعله الغافل عن العواقب. وهو علام الغيوب. الوجه الثاني: هو أن المراد منه أنه يقذف بالحق على الباطل كما في سورة الأنبياء: ﴿نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ وعلى هذا تعلق الآية بما قبلها ظاهر، وذلك من حيث إن براهين التوحيد لما ظهرت، وشبههم دحضت، قال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي على باطلكم.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ لما ذكر الله تعالى أنه يقذف بالحق، وكان ذلك بصيغة الاستقبال، ذكر أن ذلك الحق قد جاء. وفيه وجوه: أحدها: أنه القرآن. وقد مرّ. الثاني: أنه بيان التوحيد والحشر، وكل ما ظهر على لسان النبي ﷺ، ويحتمل

---

[٧٥٤] في الأصل (عليهم)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢١٦/٢٥.
[٧٥٥] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢١٦/٢٥.

أن يكون المراد منه: جاء الحق، ظهر الحق، لأن كل ما جاء فقد ظهر، والباطل خلاف الحق، وقد ثبت أن الحق هو الموجود.

ولما كان ما جاء به النبي ﷺ لم يمكن انتفاؤه كالتوحيد، والرسالة، والحشر، كان حقا لا ينتفي، ولما كان ما يأتون به من الإشراك، والتكذيب، لا يمكن وجوده، كان باطلا لا يثبت. وهذا المعنى من قوله: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾ والباطل لا يفيد شيئا في الأول ولا في الآخر، فلا إمكان لوجوده أصلا، والحق المأتيّ به لا عدم له أصلا. وقيل: المراد لا يُبدِئ الشيطان، ولا يعيد. وفيه معنى لطيف، وهو أن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ لما كان معنى قوله تعالى: ﴿نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾[الأنبياء:١٨]، كان يقع لمتوهم أن الباطل كان، فورد عليه الحق فأبطله ودمغه، فقال ههنا: ليس للباطل تحقق أولًا وآخرا، وإنما المراد من قوله: ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي فيظهر بطلانه. وإليه أشار بقوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[الإسراء:٨١]، يعني ليس أمر متجددا. فقوله: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾ أي لا يثبت في الأول شيئا خلا ف الحق. ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾[٧٥٦] أي لا يعيد في الآخر شيئا، خلاف الحق.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ وفيه تقرير للرسالة أيضا، وذلك أن الله تعالى قال على سبيل العموم: [﴿فَمَنِ اهْتَدَى

[٧٥٦] في الأصل (ولا يعيد)، وهو خطأ في كتابة الآية.

فَلِنَفْسِهِ﴾][٧٥٧] [الزمر:٤١]، وقال في حق النبي ﷺ: ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾، يعني ضلالي على نفسي كضلالكم، وأما اهتدائي فليس بالنظر والاستدلال كاهتدائكم، وإنما هو بالوحي المبين. وقوله: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي يسمع إذا ناديته، واستعديت به عليكم. ﴿قَرِيبٌ﴾ يأتيكم من غير تأخير، ليس كمن سمع عن بعيد، ولا يلحق الداعي.

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا﴾ لما قال: ﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ قال هو قريب، فإن لم يعذب عاجلا، ولا يعين صاحب الحق في الحال، فيوم الفزع آت. ﴿فَلا فَوْتَ﴾ وإنما يستعجل من يخاف الفوت. وقوله: ﴿تَرَى﴾ جوابه محذوف، أي ترى عجبا. ثم قال تعالى: ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾[لا يهربون][٧٥٨] وإنما الأخذ قبل تمكنهم من [الهرب][٧٥٩].

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ بعد ظهور الأمور، حيث لا ينفع إيمان، قالوا آمنا به. ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾، أي كيف يقدرون على الظفر بالمطلوب؟! وذلك لا يكون إلا في الدنيا، والدنيا من الآخرة بعيدة. ثم بيّن الله تعالى أن إيمانهم لا نفع فيه، بسبب أنهم كفروا من قبل. والإشارة في قوله: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾، وقوله: ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾، إلى شيء واحد: إما محمد ﷺ، وإما القرآن، وإما الحق الذي أتى به محمد ﷺ، وهو أقرب وأقوى. وقوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ضدّ قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[البقرة: ٣]، لأن الغيب يترل من الله على لسان الرسول، فيقذف الله في القلوب، فيقبله المؤمن، وأما الكافر هو يقذف بالغيب، أي يقول ما

---

[٧٥٧] سقط من الأصل حرف الفاء في كلمة (فمن)، وهو خطأ في كتابة الآية.

[٧٥٨] في الأصل (لا يسمعون)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٥/٢١٧.

[٧٥٩] في الأصل (القرب)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٥/٢١٧.

لا يعلمه. وقوله: ﴿مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني أنهم كانوا يقولون بأن الساعة إذا كانت قائمة، فالثواب والنعيم لنا. كقول قائلهم: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّى إِنَّ لِى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾[فصلت: ٥٠] فكانوا يقولون ذلك. فإن كان من قول الرسول وما ذلك عندهم أن يقولوا من إحساس فإن ما لا يجب عقلا لا يعلم إلا بالإحساس.

ثم قال تعالى ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من العود إلى الدنيا، أو بين لذات الدنيا. ﴿كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾[هود: ١١٠] وقد تقدم الكلام فيه. ويقال قوله: ﴿مُرِيبٍ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: ذي ريب. الثاني: [موقف][٧٦٠] في الريب"[٧٦١].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ "وهذا يشير إلى أن من شرط دعوة الخلق إلى الله، أن تكون خالصة لوجه الله، لا يشوبها طمع في الدنيا والآخرة، كما قال: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾. وفي الآية دليل على أنه ﷺ قد سألهم شيئا من الأجر، ثم ردّه إليهم بقوله: ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾، ولعلّ ما سأل منهم ما أمر الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[الشورى:٢٣]، ثم أمره بردّها إليهم، يشير [بقوله][٧٦٢] تعالى: قل ما سألتكم عليه من أجر إلا المودة في القربى،

---

[٧٦٠] في الأصل (موقع)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢١٨/٢٥.

[٧٦١] *مفاتيح الغيب*، ٢١٥/٢٥-٢١٨.

[٧٦٢] في الأصل (قوله)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ١١٢/٥.

فهو ردٌّ إليكم، ليكون لكم مودتكم خالصة لله، ويكون أداء رسالتي خالصا لوجه الله. ﴿وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يصدر مني ومنكم، يجازينا بحسب خلوص نيتنا، وصدق عقيدتنا.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ على أفعال أهل الخلاف، فيضمحل احترازهم، ويحيق بهم شؤم معاصيهم، ويقذف بالحق إذا حضر أصحاب المعاني على ظلمات الدعاوى، يفتضحون في الحال ويفضح [عوارهم][٧٦٣] وذلك لأنه تعالى قال ﴿عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾، وإنما ذكر الغيوب بلفظ الجمع، لأنه تعالى عالم بما يكون في ضمير أولاد كل أحد إلى يوم القيامة. وإنما قال ﴿عَلَّمُ﴾ بلفظ المبالغة، ليتناول علمه معلومات الغيوب في الحالات المختلفة كما هي لا تتغير في العلم عند تغير المعلومات من حال إلى حال، بحيث لا يشغله شأن حال عن حال.

﴿قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْباطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ على مرور أيام الدنيا لا يزيد الباطل إلا زهوقا، والحق لا يزداد على مرور أيام الآخرة إلا ظهورا.

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي﴾ يشير إلى أن الضلالة منشؤها نفس الإنسان، فإذا وكلت النفس إلى طبعها لا يتولد منها إلا الضلالة. وبقوله: ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ يشير إلى أن الهداية من مواهب الحق تعالى، ليس نفسي منشؤها ولذلك قال الله تعالى فيه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾[الضحى: ٧]. ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ من الأزل، بمنطق كل ناطق، وتسبيح كل مسبح من الناطقين والجمادات إلى الأبد، وهم في كتم العدم، وفي حال

---

[٧٦٣] في الأصل (عورالهم)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١١٢.

وجودهم، بحيث لا يشغله شأن سمع مسموع عن شأن سمع مسموع آخر بلا تغير سمعه عند تغير المسموعات. ﴿قَرِيبٌ﴾ بكل شيء، وإن كان بعيدا منه، قريب من ليس كقربه قرب.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ﴾ أي لو رأيت ذلك لرأيت منظرا فظيعا. ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ إذا أخذهم بعد الإمهال فليس إلا الاشتغال.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ إذا تابوا وقد أغلقت الأبواب، وندموا، وقد تقطعت الأسباب، فليس إلا الخسران والندم. ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يشير إلى قوم يتمنون معارف الأسرار، ومراتب الأحرار، وهم بعد في أيدي كفار الأوصاف مأسورون، وبقيود الحواس مقيدون، [ولا يرمون][٧٦٤] الظنون الكاذبة، [يردفون][٧٦٥] المعاني الصادقة.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وهم الذين يتمنون وهو ليس بالتمني. ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ﴾ بطريق الحرمان، باتكالهم من المتمنين المتقدمين الذين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ في حقيقة هذا ﴿مُرِيبٍ﴾ بغيره موقع له الريب"[٧٦٦]. والله أعلم.

[٧٦٤] في الأصل (ويرمون)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١١٣.

[٧٦٥] في الأصل (يرومون)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١١٣.

[٧٦٦] *التأويلات النجمية*، ٥/١١١-١١٣.

٢.٢ سورة فاطر [٧٦٧]

بسم الله الرحمن الرحيم

"بسم الله الذي يزيد في الخلق ما يشاء، الرحمـٰن الذي يخشاه من عباده العلماء، الرحيم الذي يستمسك بحكمه الأرض والسماء. وهذه السورة مكية، وهي ست وأربعون آية، وقيل: خمس وأربعون. والاختلاف في سبع آيات: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، ﴿الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾، ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾، ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾، ﴿أَن تَزُولَا﴾، ﴿لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾. [فاطر:٤٣،٤١،٢٢،٢٠،١٩،١٦،٧]. وكلماتها سبعمائة وخمس وسبعون. وحروفها ثلاثة آلاف ومائة وخمس وأربعون. وانتظام أول هذه السورة بآخر تلك السورة، أنه ذكر في آخر تلك السورة أن الكفار في شك مريب، لتركهم التأمل في الآيات، وذكر في في أول هذه السورة من الآيات ما لا يبقى معه ريب عند التأمل فيه، وهو خلق الأرض والسماوات. وانتظام السورتين أنهما مكيتان، وهما في محاجة المشركين، ومدح الموافقين، وذم المخالفين. وروى أبيّ بن كعب - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: "من قرأ سورة الملائكة، دعته يوم القيامة ثمانية أبواب الجنة: أن ادخل من أي الأبواب شئت"[٧٦٨]"[٧٦٩].

---

[٧٦٧] في الأصل (الملائكة).

[٧٦٨] الثعلبي: *الكشف والبيان*، ٢٢/١٤٥، ١٤٦. الواحدي: *الوسيط*، ٣/٥٠٠. وهو حديث موضوع.

[٧٦٩] *التيسير في التفسير*، ١٢/٢٨٣-٢٨٤.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ ٱلْمَلاۤئِكَةِ رُسُلاً أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

"قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾، يعني خالق السماوات والأرض من غير شك. ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلاۤئِكَةِ رُسُلًا﴾ إلى النبيين يعني مرسل الملائكة بالرسالة جبريل وميكائيل وملك الموت وكراما كاتبين.﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾ يعني ذي أجنحة يطيرون بها يترلون من السماء إلى الأرض ويعرجون منها إلى السماء في يوم وأقل منه، ومسيرة ما بينهما ألف سنة نزولا وعروجا، ولولا ما قواهم بذلك لما أمكنهم ذلك.﴿مَثْنىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي من الملائكة من له جناحان كما للطيور التي في الهواء، ومنهم من له ثلاثة أجنحة، ومنهم من له أربعة أجنحة. ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشاءُ﴾ أي يزيد في خلق الأجنحة ما شاء. روي أن جبريل – صلوات الله عليه – له ستمائة جناح، لو نشر جناحان لسدَّ ما بين الخافقين، ولبعض الملائكة أكثر من ذلك"[٧٧٠]. "ويقال: يزيد في الخلق ما يشاء يعني الشعر الحسن،

---

[٧٧٠] *التيسير في التفسير*، ١٢/٢٨٤-٢٨٩.

والصوت الحسن. ويقال: يزيد في الخلق ما يشاء يعني في الجمال والكمال"[٧٧١]. "﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الزيادة والنقصان. وقال ابن كيسان – رحمه الله – في قوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ في الجسم، والعرض، والطول. كما قال: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[البقرة: ٢]. وعن قتادة – رحمه الله – قال: الملاحة في العينين، وقيل: الكياسة في الطبيعة. وقيل: الفصاحة في النطق. وقيل: الفهم. وقيل: السخاء. وقيل: الرضا بالتقدير. وقيل: علوّ الهمة. وقيل: التواضع في الشرف. وقيل: القناعة في الفقر. وقيل: الحسن في الشمائل. وقيل: المحبة في القلوب. وقيل: سلامة الصدر من الشرّ"[٧٧٢]. "وقال الإمام القشيري – رحمه الله –: التعطف على الخلق"[٧٧٣]. "وقيل: الشوق إلى الحق. وقيل: تحرز القلب عن رق الحرمان. وقيل: أن لا يطلب لنفسه مترلة في الدارين. وقيل: تحسين عمله، وتقصير أمله، ويعبد الله تعالى، ويحفظ ما جرى به لسانه، ويحرس ما يطوي عليه جنانه، وإذا جرى على باله شيء من أمور الدنيا يطهره للخلاص بقراءة فاتحة الكتاب، وسورة الإخلاص، ولا يمتدّ إلى ما لاتأبيد فيحلّ، ولا يميل عن جادة الشريعة فيضلّ، ولا يرفع عن الطريق طرفه فيزلّ، ولا يعزّ من أهانه الله فيذلّ.

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ قيل: هي النبوّة، كما قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[الزخرف:٣٢]. فلا ممسك لها أي لا يتهيأ لأحد ردّها

---

[٧٧١] *بحر العلوم*، ٣/٩٩.

[٧٧٢]

[٧٧٣] القشيري: *لطائف الإشارات*، ٣/١٩١.

ومعارضتها. ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ أي يقطع في زمان فترة. ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي لا يمكن لأحد فتح هذا الباب. وقال: فلا ممسك لها (بالتأنيث) لسبق ذكر الرحمة. وقال: فلا مرسل له (بالتذكير) لسبق ذكر قوله: وما يمسك. ويجوز في العربية (التأنيث) فيها لذكر الرحمة، ويجوز (التذكير) لذكر(ما). وقيل: الآية عامة لكل نعمة، ويدل عليه: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، والرحمة في القرآن جاءت للمطر، قال الله تعالى: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[الأعراف:٥٧]. وقال: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ثم قال: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾[الزمر:٣٨]. وعلى هذا آيات. ﴿وَهو الْعَزِيزُ﴾ في ملكه وجلاله، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا﴾ قيل: هو خطاب للمشركين اذكروا ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي تذكروا. وقيل: احفظوا ما منّ الله به عليكم من أنواع النعم. ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ قرأ حمزة والكسائي – رحمهما الله – (غيرِ الله) بالخفض، على ظاهر قوله: (من خالق). وقرأ الباقون (غيرُ الله) بالرفع، لوجهين: هل غير الله من خالق؟ وهل خالق غير الله؟ فإن (من) زيادة مؤكدة، وإذا حذفت رفع خالق، وهو استفهام بمعنى النفي. ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بالمطر والنبات وغير ذلك، وإذا لم يكن خالق ولا رازق غيره فلا إلـــه غيره. ولذلك قال بعده: ﴿لَا إِلـــهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ قوله: فأنى تؤفكون، أي كيف تصرفون؟ ومن أين تصرفون عن هذا الحق إلى غيره؟. والإفك بالفتح الصرف، وبالكسر الكذب، وهو الكلام المصروف عن الصواب. ويقال: من أين تنصرفون من الحق إلى الباطل؟ وهو استفهام بمعنى الإنكار والتوبيخ"[٧٧٤]. "وقال الإمام القشيري – رحمه الله –: من ذكر

---

[٧٧٤] *التيسير في التفسير*،١٢/٢٨٤–٢٨٩.

النعمة فهو صاحب عبادة، ونائل زيادة، ومن ذكر المنعِم فهو صاحب إرادة، ونائل زيادة، وفرق بين زيادة وزيادة، هذا زيادته عطاء، وهذا زيادته لقاء"[٧٧٥]. "ورواية النعمة من المنعم القديم يثبت أزهار الشكر في جنة الفؤاد، وذكر نعم من أنعم عليه سبب مزيد المحبة والوداد، ومن لاح بدر الشكر من فلك جنانه، واقترب حواجم الشكران على عتبن لسانه، لاحت أنواره، وفاحت أزهاره.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ من عرف أنه لا رازق غير الله لم يعلق قلبه يأخذ في طلب شيء، ولا يتذلل للارتفاق بمخلوق، وكما لا يرى رزقه من مخلوق، ولا يراه من نفسه أيضا فيتخلص من ظلمات تدبيره واحتياله، وتوهم شيء من أشكاله وأمثاله.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي وإن يكذبوك يا محمد فلا يضيقنّ صدرك، فلست بأول من كُذب من الرسل، بل كُذبت من قبلك كذبهم أمم. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي وإلى الله حكم الله تصير الأمور في عواقبها، فيجعل العاقبة المحمودة للأنبياء – صلوات الله عليهم – والمؤمنين، والعاقبة المذمومة للمكذبين، فهذا وعد ووعيد"[٧٧٦].

[فصل في التفسير بالرأي]

"قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقد ذكر من قبل أن الحمد يكون على النعمة في أكثر الأمر. ونعم الله قسمان: عاجلة وآجلة. والآجلة وجود وبقاء، والآجلة

---

[٧٧٥] القشيري: *لطائف الإشارات*، ٣/١٩١.

[٧٧٦] *التيسير في التفسير*، ١٢/٢٨٤-٢٨٩.

كذلك إيجاد مرة أخرى وإبقاء. وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ﴾[الأنعام:١]، إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإيجاد، واستدللنا عليه بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلًا﴾[الأنعام:٢]، وقوله في الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ﴾[الكهف: ١]، إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإبقاء. وفي قوله في سورة سبأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾[سبأ:١]، إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني بالحشر، واستدللنا عليه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ﴾ من الأجسام، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْها وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ﴾ من الأرواح، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيها﴾[سبأ:٢]. وههنا الحمد إشارة إلى نعمة البقاء في الآخرة. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا﴾ أي يجعلهم رسلا يتلقون عباد الله كما قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾[الأنبياء:١٠٣]، وقوله: ﴿فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ﴾ على هذا يحتمل وجهين: الأول: معناه مبدعها لنزول الأرواح من السماء، وخروج الأجساد من الأرض. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا﴾، وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى، لأن قوله: ﴿كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾[سبأ:٥٤]، لانقطاع رجاء من كان في شك مريب، ويبقيه بأن لا قبول لتوبته ولا فائدة، لقوله: آمنت. كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ﴾[سبأ:٥٤]، فلما ذكر حالهم بيّن حال المؤمن، وبشره بإرسال الملائكة إليهم مبشرين، وبيّن أنه يفتح لهم أبواب الرحمة. وقوله: ﴿أُولِىٓ أَجْنِحَةٍ مَثْنىٰ﴾ أقل ما يكون لذي الجناح أن يكون له جناحان وما بعدهما زيادة. وقال قوم فيه أن الجناح إشارة إلى الجهة، وبيانه هو أن الله تعالى ليس فوقه شيء، وكل شيء فهو تحت قدرته ونعمته. والملائكة لهم

وجه إلى الله يأخذون منه نعمة، ويعطون من دونهم مما أخذوا بإذن الله. كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾[الشعراء:١٩٣-١٩٤]، وقوله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾[النجم:٥]. وقال الله تعالى في حقهم: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾[النازعات:٥] فهما جناحان، وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة، وفيهم من يفعله لا بواسطة، فالفاعل بواسطة فيه ثلاث جهات، وفيهم من له أربع جهات وأكثر. وقوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ وقد مرّ تفسيره. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقرير لقوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ لما بيّن كمال القدرة، ذكر بيان نفوذ المشيئة ونفاذ الأمر. وقال: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ يعني إن رحم فلا مانع له، وإن لم يرحم فلا باعث له عليها، وفي الآية دليل على سبق رحمته غضبه وهو التقديم، حيث قدم بيان فتح الرحمة، على قوله: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾، وأن الكناية في قوله: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ جاز في العربية أن يقال له عائد إلى (ما)، ولكن قال تعالى (لها) بلفظ التأنيث، ليكون عائداً إلى الرحمة، ليعلم أن المفتوح أبواب الرحمة، ولا ممسك لرحمته فهي واصلة إلى من رحمته، وقال عند الإمساك: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ بالتذكير، و لم يقل (لها) فما صرح بأنه لا مرسل للرحمة، بل ذكره بلفظ يحتمل أن يكون الذي لا يرسل هو غير الرحمة، فإن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ عام من غير بيان وتخصيص، بخلاف قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ فإنه مخصص مبين. وأن قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد الله، استثنى ههنا بلفظ غير الله، وعند الإمساك يعني قوله: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ لم يستثن، لأن

الرحمة إذا جاءت لا ترتفع، فإن من رحمه الله في الآخرة لا يعذبه بعدها هو ولا غيره، ومن يعذبه الله فقد يرحمه الله بعد العذاب كالفساق من أهل الإيمان، ولهذا لم يستثن في الأول واستثنى في الثاني. ثم قال تعالى: ﴿وَهو الْعَزِيزُ﴾ أي كامل القدرة، ﴿الْحَكِيمُ﴾ أي كامل العلم.

ثم قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ لما بيّن أن الحمد لله، وبيّن بعض وجوه النعمة التي تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمه على سبيل الإجمال فقال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ وهي مع كثرتها منحصرة في قسمين: نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء. فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد في الابتداء، وقال: ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء. ثم بيّن أنه: ﴿لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نظراً إلى عظمته، حيث هو عزيز، حكيم، قادرعلى كل شيء، قدير نافذ الإرادة في كل شيء، ولا مثل لهذا، ولا معبود لذاته غير هذا. ونظراً إلى نعمته حيث لا خالق غيره ولا رازق إلا هو. ثم قال: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف تصرفون عن هذا الظاهر، فكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت.

ثم بيّن الأصل الأول: وهو التوحيد، ذكر الأصل الثاني: وهو الرسالة، فقال: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ثم بيّن من حيث الإجمال أن المكذّب في العذاب، والمكذّب له الثواب، بقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾"[٧٧٧].

---

[٧٧٧] *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٢١-٢٢٣.

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

"قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ يشير إلى أن ذاته تعالى مستحق للمدح والثناء، والشكر من الأزل إلى الأبد بحمد أزلي أبدي وهو حمده لذاته تعالى، فهو الحامد والمحمود، وقال المبرد: فاطر: خالق مبتدئ معناه أول شيء تعلقت به القدرة. ﴿السَّمٰوٰتِ﴾ سماوات الأرواح. ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أرض [الأجساد][٧٧٨]. ثم بقوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَآئِكَةِ رُسُلًا﴾ يشير إلى أنه تعالى خلق الملائكة، وخلق أرواح الإنسان. وبقوله: ﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ يشير إلى كمالية استعداد بعضهم على بعض. وبقوله: ﴿يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ يشير إلى زيادة فيما خلق من الأرواح والملائكة، فإنه ذكر أشرف المخلوقات.

ثم قال: ﴿يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ يعني يزيد في الخلق ما ليس من الخلق، وهو الفيض الإلـٰهي، وهو حقيقة الأمانة التي اختص الإنسان بحملها، وأنه تعالى زاد في استعداد الإنسان أحسن تقويم لقبول الفيض الإلـٰهي على استعداد الملك، ولهذا أَبَيْنَ أن يحمِلنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، ومن أكرم ههنا فهذه الزيادة في خلقيته يكرم غداً بتلك الزيادة التي قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس:٢٦]،وقد فسر النبي ﷺ [الزيادة][٧٧٩] بالرؤية، وذلك لأن رؤية الله ليست من الخلق، وليس للخلق استعداد رؤية الله. كما قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَٰرُ﴾[الأنعام:١٠٣] بل بنور فيضه وهو الزيادة التي يزيدها في خلق من

---

[٧٧٨] في *التأويلات النجمية* (النفوس)،٥/١١٤.

[٧٧٩] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*،٥/١١٥.

يشاء، فقوله تعالى: ﴿أَحْسَنُواْ﴾ هو أفعال العباد وهي مخلوقة. الحسنى أي: الجنة، وهي مخلوقة. و(زيادة) يعني على المخلوق، وهي من المواهب الإلـٰهية بإفاضة الفيض الإلـٰهي بحسب استعداد الخلق في قبولها. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الاستعدادات في قبول هذه الزيادة، والإباء عنها.

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ أي من رحمة هذه الزيادة من الفيض الإلـٰهي. ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ من المخلوقات شيء. ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ من رحمة هذا الفيض الإلـٰهي. ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ يعني من الفيض الإلـٰهي. ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد الله. ﴿وَهو الْعَزِيزُ﴾ فبعزته أمسك فيضه ممن أمسك. ﴿الْحَكِيمُ﴾ فبحكمته أرسل فيضه إلى من أرسل.

وبقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يشير إلى الناسين الأيام التي كانوا في جواره. ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ في ذلك الجوار، فمن ذكر نعمته فصاحب عبادة، ونائل زيادة. ومن ذكر المنعم فصاحب إرادة ومحبة، ونائل زيادة. ولكن فرق بين زيادة وزيادة، هذا زيادته في الدارين عطاؤه، وهذا زيادته في الدارين لقاؤه، اليوم سراً بسر من حيث المشاهدة، وغداً جهراً بجهر من حيث المعاينة. والنعمة على قسمين: ما دفع من المحن، وما نفع من المنن، فذكره عما دفع عنه يوجب دوام العصمة، وذكره لما نفع به يوجب تمام النعمة.

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ يشير إلى أن الرزاق هو الخالق فحسب. ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من سماء الأرواح، وماء الفيض. ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أرض النفوس نيات الأعمال الصالحة وفائدة هذا التعريف أنه إذا عرف أنه لا رازق غيره لم يتعلق قلبه بأحد في طلب شيء

ولا يتذلل للارتفاق [بالمخلوق][٧٨٠]، وكما لا يرى رزقه من مخلوق لا يراه من نفسه أيضاً، فيتخلص عن ظلمات تدبيره واحتياله، وتوهم شيء من أمثاله وأشكاله، ويستريح بشهود تقديره ولا محالة يخلص في توكله وتفويضه. وبقوله: ﴿لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ يشير إلى أنه لما تحقق أنه ليس متصرف غيره فمن أين يكذبون الرسل إلا بحكمه وتقديره، وله حكمة في ذلك.

وبقوله: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾[فاطر:٤] يشير إلى تسلية الرسول ﷺ ولأولياء أمته وتسهيل للصبر على الأذية إذا علم أن الأنبياء – عليهم السَّلام – استقبلهم مثل ما استقبله وإنهم لما صبروا كفاهم وكذلك يسلك سبيلهم ويقتدي بهم وكما كفاهم علم أنه أيضاً يكفيه وليعلم أرباب القلوب أن حالهم مع الأجانب في هذه الطريقة كأحوال الأنبياء مع السفهاء، وقد كان أهل الحقائق أبدا في مقاساة الأذية إلا بستر حالهم عنهم. وبقوله: ﴿وَإِلَىٰ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ يشير إلى أمر إقرار المقرين، وإنكار المنكرين، وأنه يرجع إلى تقدير عليم حكيم أنه يعلم بحال جميعهم وبحكمته يدبر أمورهم على وفق مشيئته وإرادته"[٧٨١].

[فصل في التفسير الصوفي النظري]

"قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِى أَجْنِحَةٍ﴾ عبّر عن جهات التأثير الكائنة في الملكوت السماوية والأرضية بالأجنحة، جعلها الله تعالى

[٧٨٠] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١١٦.

[٧٨١] *التأويلات النجمية*، ٥/١١٤-١١٦.

رسلا مرسلة إلى الأنبياء بالوحي، وإلى الأولياء بالإلهام وإلقاء الخواطر، وإلى غيرهم من الأشخاص الإنسانية والحيوانية وسائر الأشياء بتصريف الأمور وتدبيرها، فما يتصل به تأثيرهم إلى ما يتأثر منه فهو جناح، فكل جهة تأثير جناح، مثلا: أن العلاقتين العملية، والنظرية، جناحان للنفس الإنسانية، والمدركة، والمحركة الباعثة، والمحركة الفاعلية، ثلاثة أجنحة للنفس الحيوانية، والغاذية، والنامية، والمولدة، والمصورة، أربعة أجنحة للنفس النباتية. ولا تنحصر أجنحتها في هذا العدد بل بحسب تنوعات التأثيرات أجنحة. ولهذا حكى رسول الله ﷺ أنه رأى جبريل – عليه السّلام – ليلة المعراج وله ستمائة جناح، وإلى كثرتها أشار بقوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾. والله أعلم بالسرائر"[٧٨٣].

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (٨) وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ

---

[٧٨٣] تفسير ابن عربي، ٢/١٥٤.

أَزْوَاجاً وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

ثم أخبر عن غرور أهل الفتور بقوله تعالى: "﴿يَٰأَيُّهَا النَّاسُ﴾ وهو عام للمكلفين، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي بالثواب والعقاب جميعا، لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ والوعد يقع على العذاب، قال الله تعالى: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[الحج:٧٢]، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ أي لا تغتروا بهذه الحياة الدنيا الخالية، فإنها زائلة، وأنتم مبعوثون للعرض والحساب والجزاء. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ قيل: الدنيا، وقيل: الشيطان. بما يمنيكم على الله من المغفرة مع الإصرار، وبما زين لكم من المُقام على الكفر"[٧٨٣]. "وعن أبي العالية أنه قال: رأيت الدنيا في منامي امرأة قبيحة عليها من كل زينة، فقلت: من أنت؟ أعوذ بالله منك. قالت: أنا الدنيا فإن سرّكَ أن تعبد الله فابغض الدراهم، لا تمسكها عن النفقة في موضع الحق"[٧٨٤]. "﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ قديم من وقت أبيكم آدم – صلوات الله عليه – وأمكم حواء – رضي الله عنها –، ومن عداوة الشيطان مع أبيكم ترك طاعة الله، وأمكم حواء. ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ فلا تتبعوه ولا تطيعوه فتهلكوا. ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ﴾ إلى طاعته، ﴿حِزْبَهُ﴾ أي طائفته، ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَٰبِ السَّعِيرِ﴾ ليسوقهم إلى نار جهنم فيكونوا من أصحابها، أي أهلها الذين لا يفارقونها. وخصّ حزبه بالذكر وإن كان يدعو كل الناس، لأنهم

---

[٧٨٣] *التيسير في التفسير*، ٢٨٩/١٢.

[٧٨٤] *بحر العلوم*، ١٠٠/٣.

هم الذين أجابوه، وقيل: يدعو حزبه على الخصوص دون الذين علم أن الله تعالى أخلصهم، وقيل: يدعو حزبه الذين أجابوه إلى الدوام عليه ليخلدوا في النار. ثم بيّن مصير من أطاع الشيطان، ومصير من عصاه. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وهم الذين أطاعوا الشيطان لهم عذاب شديد في الآخرة وهو الخلود. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم الذين عادَوه. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ في الدنيا لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يعني ثواب حسن في الجنة، وهذا تحقيق قوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وهو وعيد للكافرين بالعقاب، ووعد للمؤمنين بالثواب.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أي الكفر والمعصية، ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ زينت له ذلك نفسه باتباع الشهوة، وترك النظر بالحجة، أو الشيطان بالوسوسة، وإيقاع الشبهة، أو الله بالتخليق والمشيئة، وتحقيق الابتلاء والمحنة، كمن قبح له فانتهى عنه ؟! أي ليسا سواء، استفهام بمعنى النفي. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ من علم منه اختيار الضلال أضلّه، ومن علم منه اختيار الاهتداء هداه. ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ أي لا تهلك تأسفاً عليهم وتحسراً وهو كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾[الشعراء:٣]، وقد بيّنا وجوه ذلك في تلك الآية. وقيل: الإضمار ههنا: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا، ذهبت نفسك حسرة عليه، فلا تذهب نفسك عليه حسرة، فإن الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء. ثم هذا الموصوف قيل: هو إبليس زُيّن له سوء عمله، وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الكفار، وقيل: من زين له سوء عمله هو الكافر. ووحّد لفظ (من) ومعناه الجمع، وهم الكفار. وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ﴾ يرجع إليهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وعدٌ

ووعيدٌ وتسلية للنبي ﷺ"[٧٨٥]. "وقال الإمام القشيري – رحمه الله –: الذي يؤثر على ربه شيئا من المخلوقات فقد زُيّن له سوء عمله، والذي يكتفي يوم القيامة بنجاته ورفع درجاته فقد زُيّن له سوء عمله، لأنه غفل عن حلاوة مناجاته، والذي تعلم و لم يعمل من طول أمله، فقد زُيّن له سوء عمله ومن لم يشرب الماء من نهره، و لم ينبذ الدنيا وراء ظهره، فقد زُيّن له سوء عمله، ومن ربّى مسكينا ومنّ عليه ونظر بعين المنّة إليه، فقد زُيّن له سوء عمله، ومن لم يلق في محل الفناء ولوّث بالرياء والسمعة جوده، و لم يبذل في طاعة الله مجهوده، فقد زُيّن له سوء عمله"[٧٨٦].

"﴿وَاللَّهُ ٱلَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي تجمعه بإثارته في مواضعه، ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي تسوقه الرياح [بأمرنا][٧٨٧] وتقديرنا. ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي فأحيينا بالسحاب الأرضَ بعد يبسها. ﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ أي البعث بعد الموت.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ يعني من طلب العزة بعبادة الأوثان، والمال، والسلطنة، والسرف في الدنيا، فليتعزز بطاعة الله، فإن العزة لله جميعا، وهذا يتصل بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ والتعزز بالمال، والسلطان، والشرف في الدنيا، فإن العزة لله جميعا، هو العزيز بذاته، والعزة صفة من صفاته، والمُعِزّ من يشاء من خلقه، وإنما يعز المؤمنين والمطيعين بالإيمان والطاعة، لا الكفار والمترفين بالمال والسلطنة، وقد قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ

---

[٧٨٥] *التيسير في التفسير*، ١٢/٢٩٠–٢٩١.

[٧٨٦] وجدته مختصرا في القشيري: *لطائف الإشارات*، ٣/١٩٤.

[٧٨٧] سقط من الأصل، وكتبتها من *التيسير*.

الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾[آل عمران:٢٦]"[٧٨٨].

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ "قال مقاتل: الكلم الطيب كلمة التوحيد، والعمل الصالح يرفعه"[٧٨٩]. "وقال أبو الحسن البصري: يرفع الكلام الطيب إلى الله، ويقال العمل الصالح يرفعه، يعني يقبل الأعمال الصالحة بالإخلاص. وروي أن أعمال العباد يكتبها الحفظة بأمر الله، ويرفعونها في السماء إلى حيث أمر الله تعالى، فتوضع للحفظ، ثم يُجاء بها يوم القيامة للقراءة والحساب والجزاء عليها. وذلك قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ الأبْرَارَ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾[المطففين:١٨]، وتقدير الآية: يصعد كتاب الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفع الله كتابه إلى السماء. وقيل تقدير الآية: إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح أيضا، فالصعود لهما جميعا، ثم قال (يرفعه) أي الله تعالى هو الذي يرفعه ذلك. وقيل: والعمل الصالح يرفعه (الهاء) يرجع إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ أي من أراد العزة فليعمل عملا صالحا، فإنه هو الذي يرفع العبد.﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَٰتِ﴾ قيل: يعني المتعززون بالدنيا الذين يمكرون بالضعفاء بإدخال الشبه عليهم وهي السيئات. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ والبوار: الهلاك. وقال أبوالعالية – رحمه الله –: والذين يمكرون السيئات هم الذين مكروا بالنبي ﷺ في دار النبوة ليقتلوه أو يخرجوه، لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ يعني آدم – عليه السّلام – وهو أصل الخلق. ويقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي قدر كونكم في الابتداء من تراب. ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾

---

[٧٨٨] *التيسير في التفسير*، ١٢/٢٩٢.

[٧٨٩] مقاتل: *تفسير مقاتل*، ٣/٥٥٣.

يعني خلقكم من نطفة الأبوين. ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافا ذكورا وإناثا، أحمر وأصفر وأسود وأبيض للتناسل والبقاء إلى حينه. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ ثم إذا وقع التناسل فما يكون من حمل على أي وصف كان، والوضع في أي وقت كان، فذاك بعلمه وتقديره وتدبيره، لا يخرج شيء من ذلك عن حكمه ولا يعزب عن علمه شيء. ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ يعني ولا يعمر من معمر فيطول عمره. ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ أي وقد بيّن ذلك كله في اللوح المحفوظ. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني حفظه على الله هيّن، بغير كتابة، وهذا كله بيان قدرته والاستشهاد به على قدرته على بعث الخلق"[٧٩٠].

[فصل في التفسير بالرأي]

"﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وقد تقدم تفسير الغرور، واعلم أن فيه معنى لطيفا، وهو أن المكلف قد يكون ضعيف الذهن، قليل العقل، سخيف الرأي، فيغترّ بأدنى شيء، وقد يكون فوق ذلك، [فلا يغترُّ به ولكن إذا جاءه غار وزين له ذلك][٧٩١] الشيء وهوّن عليه مفاسده، وبيّن له منافعه، لما فيه من اللذة، وقد يكون قوي الذهن، غزير العقل فلا يغترّ، فقال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ إشارة إلى الدرجة الأولى، وقال: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ إشارة إلى الثانية، ليكون واقعاً في الدرجة العليا فلا يغترّ.

---

[٧٩٠] *التيسير في التفسير*، ١٢/٢٩٣-٢٩٦.

[٧٩١] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/ ٢٢٣.

ثم قال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ ولما قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ ذكر ما يمنع العاقل من الاغترار، وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ولا تسمعوا قوله. وقوله: ﴿فَاتَّخِذُوهُ﴾ أي اعملوا ما يسوؤه، وهو العمل الصالح. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَٰبِ السَّعِيرِ﴾ إشارة إلى معنى لطيف وهو أن من يكون له عدو فله في أمره طريقان: أحدهما: أن يعاديه مجازاة على معاداته، [والثاني: أن يذهب عداوته بإرضائه، فلما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوأمرهم بالعداوة وأشار إلى أن الطريق ليس إلا هذا، وأما الطريق الآخر][٧٩٢] وهو الإرضاء فلا فائدة فيه لأنكم إذا أرضيتموه واتبعتموه فهولا يؤديكم إلا إلى السعير.واعلم أن من علم أن له عدولا مهرب له منه وجزم بذلك فإنه يقف عنده ويصبر على قتاله والصبر معه الظفر، وكذلك الشيطان لا يقدر الإنسان أن يهرب منه فإنه معه، ولا يزال يتبعه، إلا أن يقف له ويهزمه، فالطريق الثبات على الجادة والاتكال على العبادة.

ثم بيّن الله تعالى حال حزبه وحال حزب الله، فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فالمعادي للشيطان وإن كان في الحال في عذاب ظاهر فهوليس بشديد، والإنسان إذا كان عاقلاً يختار العذاب الواقع اليسير، دفعاً للعذاب الشديد المؤبد. ألا ترى أن الإنسان إذ عرض في طريقه شوك ونار، ولا يكون له بدٌّ من أحدهما، [يتخطى الشوك ولا يدخل النار][٧٩٣]، ونسبة النار التي في الدنيا، إلى النار التي في الآخرة، دون نسبة الشوك إلى النار

---

[٧٩٢] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/ ٢٢٣.

[٧٩٣] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/ ٢٢٤.

العاجلة. وقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وبيّن فيه أن الإيمان في مقابلته المغفرة، فلا يؤبّد مؤمن في النار، والعمل الصالح في مقابلته الأجر الكبير.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يعني ليس من عمل سيئاً كالذي عمل صالحاً، كما قال بعد هذا بآيات: ﴿وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَٰتُ﴾[فاطر: ١٩-٢٢] وله تعلق بما قبله، وذلك من حيث إنه تعالى لما بيّن حال المسيء الكافر والمحسن المؤمن، فقال: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ كَمَن عمل صالحا؟! لا يشوبه الرياء والسمعة، واعلم أن الجاهل الذي يعلم جهله، والمسيء الذي يعلم سوء عمله يرجع ويتوب، والذي لا يعلم يصرّ على الذنوب، والمسيء العالم له صفة ذمّ بالإساءة وصفة مدح بالعلم. والمسيء الذي يرى الإساءة إحساناً له صفتان: ذمّ الإساءة، والجهل. فهذه كلها بمشيئة الله تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ﴾ وذلك لأن الناس أشخاصهم متساوية في الحقيقة والإساءة والإحسان، والسيئة والحسنة يمتاز بعضها عن بعض، وذلك لا يكون ذلك باستقلال منهم، فلا بدّ من الاستناد إلى إرادة الله تعالى. ثم سلى رسوله ﷺ حيث حزن من إصرارهم بعد إتيانه بكل آية ظاهرة، وحجة باهرة، فقال: ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾[الكهف:٦]. ثم بيّن أن حزنه إن كان لما بهم من الضلال، فالله عالم بما يصنعون، لوأراد إيمانهم وإحسانهم لصدّهم عن الضلال، وردّهم عن الإضلال، وإن كان لما به منهم من الإيذاء، فالله عالم بفعلهم يجازيهم على ما يصنعون.

ثم عاد إلى البيان: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار وذلك لأن الهواء قد يسكن، وقد يتحرك، وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين، وقد يتحرك إلى اليسار، وفي حركاته المختلفة قد ينشيء السحاب، وقد لا ينشيء، فهذه الاختلافات دليل على مسخر، مدبر، ومؤثر، مقدر، واعلم أنه تعالى قال: ﴿والله ٱلَّذِى أَرْسَلَ﴾ بلفظ الماضي، وقال: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ بلفظ صيغة المستقبل، وذلك لأنه لما أسند فعل الإرسال إلى الله وما يفعل الله يكون بقوله (كُن) فلا يبقى في العدم لا زماناً ولا جزءاً من الزمان، فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان، ولما أسند فعل الإثارة إلى الريح وهو يؤلف فقال: ﴿فَتُثِيرُ﴾ على هيئتها. وأنه تعالى قال: ﴿أَرْسَلَ﴾ وأسند إلى الغائب، ثم قال: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ بإسناد الفعل إلى المتكلم، وكذلك في قوله: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ وذلك لأنه في الأول عرف نفسه بفعل من الأفعال وهو الإرسال، ثم لما عرف قال: عرفتني بسقاء السحاب، وإحياء الأرض، نفي الأول كان تعريفاً بالفعل العجيب، وفي الثاني كان تذكيراً بالنعمة فإن كمال نعمة الرياح والسحب بالسوق والإحياء.

ما وجه الشبه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ وذلك أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها، كذلك الأعضاء تقبل الحياة، وكما أن الريح تجمع القطع السحابية، كذلك تجمع الأجزاء الأعضاء، وكما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت، نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت.

ووجه تعلق هذه الآية بما قبلها وهو أن الله تعالى لما قال: ﴿فاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾، وذكر من الأمور السماوية والأرواح وإرسالها بقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلآئِكَةِ رُسُلًا﴾ ذكر من الأمور الأرضية الرياح وإرسالها بقوله: ﴿وَاللَّهُ ٱلَّذِى أَرْسَلَ الرِّيٰحَ﴾.

ثم قال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ لما بيّن برهان الإيمان أشار إلى ما كان يمنع الكفار منه، وهو العزة الظاهرة التي كانوا يتوهموها من حيث إنهم [ما][٧٩٤] كانوا في طاعة أحد لم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم، فكانوا ينحتون الأصنام وكانوا يقولون إن هذه آلهتنا، ثم إنهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم، وأية عزة فوق هذه مع المعبود، فهم كانوا يطلبون العزة وهي عدم التذلل للرسول، وترك الإتّباع له، فقال إن كنتم تطلبون العزة بهذا الكفر في الحقيقة، فهي كلها لله، ومن يتذلل له فهو العزيز، ومن يتعزز عليه فهو الذليل. ولقائل أن يقول: إن الله تعالى قال: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ وفي موضع آخر ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾[المنافقون:٨]، وجوابه أن نقول: أن العزة لله جميعا بلا واسطة، وبالذات، والعزة للرسول بواسطة، وللمؤمنين بواسطة الرسول. قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ تقرير لبيان العزة، وذلك إن كنتم لا تصلون إليه، فهو يسمع كلامكم، ويقبل الطيب، فمن قبل كلامه، وصعد إليه فهو عزيز، ومن ردّ كلامه في وجهه، فهو ذليل، وأما هذه الأصنام لا يتبين عندها الذليل من العزيز إذ لا علم لها، فلا عزيز عندها ولا ذليل، فلا عزة بها بل كلها

---

[٧٩٤] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/ ٢٢٥.

ذلة، وذلك لأن ذلة السيد للعبد ومن كان معبوده وربه وإلــهه حجارة أو خشباً فماذا يكون عزيزا ولا من يعبده؟!.

وفي قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وجوه: أحدها: لا إلــه إلا الله، وقد مرّ. وثانيها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلــه إلا الله، والله أكبر. وثالثها: هي الكلمات الأربع، وخامسة وهي تبارك الله والمختار أن كل كلام هو ذكر الله أوهولله كالنصيحة والعلم، فهو إليه يصعد الكلم الطيب.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ وانتصاب (السيئات) صفة مصدر محذوف، تقديره: الذين يمكرون المكرات السيئات، ويحتمل أن يقال استعمل المكر استعمال العمل فعداه تعديته، كما قال: ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾[العنكبوت:٤]، وفي يعملون السيئات يحتمل أن يكون وصف المصدر، وتقديره: الذين يعملون العملات السيئات، وعلى هذا فيكون هذا في مقابلة قوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ إشارة إلى بقائه وارتقائه. ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ إشارة إلى فنائه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[هود:١١٤].

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ قوله: ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ إشارة إلى خلق آدم – عليه السّلام –. وقوله: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ إشارة إلى خلق أولاده، وتلك بالآخرة ينتهي إلى التراب، لأنها تحصل بالغذاء، والغذاء ينتهي إلى الماء والتراب، فهو من تراب صار نطفة. وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ﴾ إشارة إلى كمال العلم، فإن ما في

الأرحام قبل الانخلاق بل بعده ما دام في البطن لا يعلم حاله أحد، كيف والأم الحاملة لا تعلم منها شيئاً، فلما ذكر بقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ كمال قدرته، بيّن بقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ كمال علمه، ثم بيّن نفوذ إرادته بقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ فبين أنه هو القادر العالم المريد، والأصنام لا قدرة لها ولا علم ولا إرادة، فكيف يستحق شيء منها العبادة؟!، وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي الخلق من التراب. ويحتمل أن يكون المراد أن العلم بما تحمل الأنثى يسير، والكل على الله يسير. ويقال قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ أي هو يعلم أعمار الخلق ومقاديرها، طالت أو قصرت، وهو عنده في كتاب في اللوح المحفوظ"[٧٩٥].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

"قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يشير إلى كل ما وعد به الله من الثواب والعقاب، والدرجات في الجنة والدركات في النار، والقربات في أعلى عليين، وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر، والبعد إلى أسفل سافلين حق، فإذا علم ذلك استعد للموت. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ بزينتها وشهواتها، فتقطع بهما على الطالب الصادق طريق الطلب من الرياضات والمجاهدات، وترك الأوطان، ومفارقة الإخوان. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ الشيطان وهو الغرور بالله وكرمه وعفوه وسعة رحمته، فإنه أكرم الأكرمين مع أهل الكرم، وشديد العقاب مع أهل العقاب والعذاب.

---

[٧٩٥] *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٢٣-٢٢٧.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ وعداوته بدوام مخالفته، فإن من الناس من يعاديه بالقول والقلب، ولكن يوافقه بالفعل، بل يعبده، فإن عبادة الشيطان هي طاعته، وهذا مما أخذ منا عليه العهد يوم الميثاق بقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَانَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[يس:٦٠] أي لا تطيعوه، فإن في طاعته مخالفتنا وفي مخالفته طاعتنا، ولا يقوى على عداوته إلا بملازمة الذكر، ودوام الاستعانة بالرب، وتلك الاستعانة صدق الاستغاثة، والشيطان لا يفتر في عداوتك، فلا تغفل عن كيده بذكر مولاك لحظة، فإنه يدعوك على الفاسد لتكون من حزبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ وحزبه المعرضون عن الله، المشتغلون لغير الله. ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بعذاب معجل، وعذاب مؤجل، فعجل تفرقة قلوبهم، وانسداد بصائرهم، وخساسة نفوسهم، حتى أنهم يرضون بأن يكون معبودهم الأصنام، والهوى، والدنيا، وعذاب الآخرة مما لا [يخفى][٧٩٦] صعوبته. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ في المعجل يستر ذنوبهم، ولولا ذلك لافتضحوا، وفي المؤجل محو الذنوب عن ديوانهم، ولولا ذلك لهلكوا، والأجر الكبير اليوم [سهولة][٧٩٧] العبادة، ودوام المعرفة، وما يناله في قلبه من زوائد اليقين، وخصائص الأحوال، وأنواع المواهب، وفي الآخرة تحقيق السؤال، ونيل ما فوق المأمول.

---

[٧٩٦] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ١١٨/٥.

[٧٩٧] في الأصل (شهوات)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ١١٨/٥.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يشير إلى دركات الشقاء، والكافر يتوهم أن عمله حسن، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف:١٠٤]، ثم الراغب في الدنيا يجمع حلالها وحرامها، لا يفكر في زوالها وفي الارتحال عنها قبل كمالها، فقد زُيّن له سوء عمله. ومعنى الآية: أفمن زين له سوء عمله كمن زين له الدنيا بحذافيرها والآخرة بنعيمها فرآه حسناً بالنسبة إلى قربات الحق قبيحاً ولم يلتفت إليها؟! أي: لا يستويان. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ يشير إلى أنه ليس للإنسان اختيار حقيقي ليرى الحسن حسناً والقبيح قبيحاً، ولكن الاختيار الحقيق لله، فيرى من يشاء، الحسن حسناً أو قبيحاً، ويرى من يشاء القبيح قبيحاً أو حسناً. ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ يعني إذا عرفت سر التقدير، ومقتضى الحكمة، وعلمت أنهم سقطوا من غير الله، ودعوتهم جهراً، وبذلت لهم نصحاً، فإجابتهم: ليس إليك ولا إليهم على الحقيقة، فلا تضع على قلبك من ذلك مشقة وعناءً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وإنما يصنعون بحكمة منه واختيار في ذلك.

وبقوله: ﴿وَاللَّهُ ٱلَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ﴾ يشير إلى أنه تعالى من سنته إذا أراد إحياء أرض، أرسل الرياح فتثير سحاباً، يوجه ذلك السحاب إلى الموضع الذي يريد تخصيصاً له كيف يشاء، يمطر هناك كيف يشاء. كذلك إذا أراد إحياء قلب ما، يسقيه وينزل عليه من أمطار عنايته، فيرسل أولاً رياح الرجاء، ويزعج بها كوامن الإرادة، ثم ينشئ فيه سحاب الاحتياج، ثم يأتي مطر الجود، فينبت في القلب أزهار البسط، وأنوار الروح، ويطيب

لصاحبه العيش، إلى أن تتم لطائف الأنس، وذلك قوله: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أرض القلب. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ باستيلاء صفات النفس عليها. ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ يوم الحشر.

وبقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ يشير إلى أن الإنسان خلق ذليلاً، مهيناً، محتاجاً إلى كل شيء، ولا يحتاج شيء إلى شيء كاحتياج الإنسان إلى الأشياء كلها، واحتياج كل شيء لشيء دون شيء إلا الإنسان والذلة قرين الحاجة، فمن ازدادت حاجته ازدادت مذلته. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ لعدم احتياجه، وكل شيء ذليل له لاحتياجه، فلما كان احتياج الإنسان كاملاً فكان ذله كاملاً. فقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي لا يطلب العزة من غير الله، لأنه أيضاً لله، فبقدر قطع النظر عن الأشياء وطلب العزة منها، تنقص ذلة العبد، وتزيد عزته إلى أن لا يبقى له الاحتياج إلى غير الله. ولا يزول الاحتياج والافتقار إلى غير الله من القلوب إلا بنفي لا إلـه، وإثبات إلا الله، فبالنفي يقطع تعلقاته عن الكونين، وبالإثبات يتوجه بالكلية إلى الحق تعالى، فإذا لم يبق له تعلق ترجع حقيقة الكلمة إلى الحضرة، كما أن النار تستنزل من الفلك الأثير باصطكاك الحجر والحديد، ثم يوقد بها شجرة فالنار تأكل الشجرة وتفنيها من الحطبية، وتبقيها النارية إلى أن تفنى الشجرة بالكلية، فلما لم يبق من وجود الحطب شيء ترجع النار إلى الأثير، وهذا سر قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ والعمل الصالح هو أركان الشريعة، فأول ركن منها كمال استنزال نار نور الله من أثير الحضرة باصطكاك حديد " لا إلـه إلا الله " وحجر القلب القاسي، فلما وضعت النار في شجر الوجود الإنساني، قد عمل العبد بركن من الأركان الخمسة التي بني الإسلام عليها، والأركان الأربعة الباقية هي العمل الصالح الذي يقلع أصل الشجرة من أرض

الدنيا، ويقطعها قطعاً مستعدة لقبول النار، واستعمالها وإحراقها بها ليرفع النار إلى أن تحرق الشجرة بالكلية، وترفع بالعبور عن الشجرة إلى أثير الحضرة، فلما كانت الشجرة مشتعلة بتلك النار، آنسَ موسى القلب – عليه السّلام – من جانب الطور ناراً ﴿فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِىءِ ٱلْوَادِي ٱلأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[القصص:٣٠] على لسان الشعلة: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[القصص:٣٠]. وبقوله: ﴿يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ يشير إلى الذين يظهرون الحسنات، ويخفون السيئات من العقائد الفاسدة، ليحسبوهم الخلق من العالمين الصادقين. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وشدة عذابهم [في تضعيف عذابهم][٧٩٨]، فإنهم يعذبون بالسيئات التي يخفونها، ويضاعف لهم العذاب بمكرهم في إظهار الحسنات دون حقيقتها، كما قال تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي مكرهم يهلكهم.

وبقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ يشير إلى أنكم أبعد شيء من المخلوقات إلى الحضرة، لأن التراب أسفل المخلوقات وكثيفها فإن فوقها ماء وهو ألطف منه، وفوق الماء هواء وهو ألطف منه، وفوق الهواء أثير وهو ألطف من الهواء، وفوق الأثير السماء، وهي ألطف من الأثير، ولكن لا تشبه لطافة السماء بلطافة ما تحتها من العناصر، لأن لطافة العناصر من لطافة الأجسام، ولطافة السماء من لطافة الأجرام، فالفرق بينهما أن لطافة الأجسام تقبل الخرق والالتئام، ولطافة السماوات لا تقبل الخرق والالتئام إلا أن يشاء الله، وفوق كل سماء ما هو ألطف منه إلى الكرسي، وهو ألطف من السماوات وفوقه العرش، وهو ألطف من الكرسي،

---

[٧٩٨] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٢١.

وفوقه عالم الأرواح وهو ألطف من العرش، ولكن لا تشبه لطافة الأرواح بلطافة العرش والسماوات، لأنها لطافة الأجرام، فالفرق بينهما أن لطافة الأجرام قابلة للجهات الست، ولطافة الأرواح غير قابلة للجهات، وفوق الأرواح أبعد وهو الله القاهر فوق عباده، وهو ألطف من الأرواح، ولكن لطافته لا تشبه لطافة الأرواح، لأن لطافة الأرواح نورانية علوية محيطة بما دونها إحاطة العلم بالمعلوم، والله متزّه عن هذه الأوصاف ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]. قوله: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي ثم خلقكم من نطفة، يشير إلى أنه خلقكم من أسفل المخلوقات وهي النطفة، لأن التراب نزل دركة الجمادية، ثم دركة النباتية، ثم دركة الحيوانية، ثم دركة الإنسانية، ثم دركة النطفة، فهي أسفل سافلين المخلوقية، وهي آخر خلق خلقها الله تعالى من المخلوقات، كما أن الشجرة آخر شيء يخلقه الله تعالى هو البذر، الذي يصلح أن يؤخذ من الشجرة، فالبذر آخر صنف خلق من أصناف أجزاء الشجرة. وبقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يشير إلى ازدواج الروح والقالب، فالروح من أعلى مراتب القرب، والقالب من أسفل دركات البعد، فبكمال القدرة والحكمة جمع بين أقرب الأقربين وأبعد الأبعدين، ورتب للقالب على ظاهره الحواس الخمس، وفي باطنه قوى البشرية ورتب للروح المدركات الروحية، ليكون بالروح والقالب مدركاً لعوالم الغيب والشهادة كلها. وبقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ يشير إلى أن حمل كل أنثى، ووضع حملها، إنما هو بتقديره وبعلمه، كميته وكيفيته على وفق حكمته وإرادته. ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ إلا وله في تعميره إلى أجله بعمر تامّ حكمة بالغة. ﴿وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ أي من عمره التام. ﴿إِلاَّ فِى كِتَٰبٍ﴾ أي الحكمة في إتمام عمر من عمَّر عمراً تاماً، وفي نقص من عمَّر

عمراً ناقصاً، في أم الكتاب الذي عنده، لا يزيد فيه ولا ينقص. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي رعاية تلك الحكمة وإمضائها ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾"[٧٩٩].

[فصل في التفسير الصوفي النظري]

"قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ والإشارة فيه أن العزة صفة من صفات الله تعالى مخصوصة به، من أرادها فعليه بالفناء في صفات الله تعالى عن صفاته، ثم إنه تعالى علم طريق التوحيد ومحوالصفات بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ أي النفوس الصافية الطيبة عن خبائث الطبائع الباقية بنور فطرتها، الذاكرة بلسان توحيدها. ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ بالتزكية والتحلية. ﴿يَرْفَعُهُ﴾ أي ذلك الجنس الطيب إلى حضرته دون غيره فيتصف بصفة العزة وسائر الصفات. أوإليه يصعد العلم الحقيقي من التوحيد الأصلي الفطري الطيب عن خبائث التوهمات والجدليات، والعمل الصالح بمقتضاه يرفعه دون غيره، كما قال أمير المؤمنين علي – كرم الله وجهه –: " العلم مقرون بالعمل، والعلم يهتف بالعمل، فإن جاء به وإلا ارتحل"، والأصل في الصعود إلى الحضرة الإلــٰهية هو العلم والعمل، ولا يمكن الترقي إلا بهما، ولا يكفي التوحيد الذي هو الأصل في الاتصاف بعزته وسائر صفاته، لأن الصفات مصادر الأفعال، فما لم يترك الأفعال النفسية التي مصادرها صفات النفس بالزهد والتوكل، ولم يتجرد عن هيئاتها بالعبادة والتبتل، لم يحصل استعداد الاتصاف بصفاته تعالى، فكان العلم الحقيقي بمثابة عضادتي السلم، والعمل بمثابة الدرجات في الترقي.

---

[٧٩٩] *التأويلات النجمية*، ٥/١١٦– ١٢٣.

﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ بظهور صفات النفوس وإن كانوا عالمين. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ من هيئات الأعمال القبيحة المؤذية"[١]، والله أعلم بحقائق الأمور.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هَذَا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا ما اسْتَجابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

"ثم أخبر عن تلون الإنسان في تكونه بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ قال الخليل – رحمه الله –: سُمّي البحر لانبساطه وسعته، وشق الأذن سُمّي بحرا لأنه توسيعها، وتبحر فلان في العلم أي توسع فيه. والفرات: المتناهي في العذوبة. والملح: الماء الذي فيه ملوحة، والأُجاج: أشد المياه ملوحة، وهو الذي

---

[١] تفسير ابن عربي، ٢/١٥٤–١٥٥.

لشدة ملوحته يلتهب. وقيل: الفرات: البارد. والأُجاج: الماء سائغ شرابه، أي يسهل انحداره إلى الجوف. نفى الاستواء بين البحرين بتفاوت الوصفين. وفيه نفي الاستواء بين الصالح والطالح، ووجوب التفرقة بينهما، وإذا لم تقع التفرقة بينهما في الدنيا فمن ضرورته البعث والقيامة. ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي من كل واحد من هذين البحرين لحما طريّا، أي السمك، والطريّ: الغضّ. ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي تغوصون على الدرّ والمرجان، ويتخذون من ذلك حلية النسوان إذا ضُمّ ذلك إلى سائر الألوان، وفيه بيان النعمة والقدرة، وهو كقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾[الرعد:٤]، وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ﴾[الرحمـٰن:٢٢]، يدل أيضا على استخراجهما منهما. وقيل: بل يستخرج من الملح، وأضيف إليهما لأنه منهما. ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾[٨٠١] يعني سفينتين أحدهما مقبلة والأخرى مدبرة [بريح واحدة، تستقبل إحداهما الأخرى][٨٠٢]. قال أبو عبيدة: مخرت السفينة الماء أي شقّته. ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي بالتجارة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتشكروا بهذه النعمة.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يعني يدخل الليل فيأخذ من النهار، ويزيد وينقص في الآخر، ويولج النهار في الليل كذلك. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي ذللهما في المسير بالطلوع والغروب لا يمتنعان عما سخرهما له وعلق بهما معاش العباد ومصالحهم،

---

[٨٠١] في الأصل (مواخر فيه)، وهو خطأ في كتابة الآية من حيث التقديم والتأخير.

[٨٠٢] مقاتل: *تفسير مقاتل بن سليمان*، ٣/٥٥٤.

كما علق ذلك بتفاوت الليل والنهار في الفصول. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي أقصى منازلها في الغروب، لأنها تغرب كل ليلة في موضع، وهو قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾[المعارج:٤٠]، ويقال: إلى أجل مسمى يعني يجريان دائما إلى يوم القيامة. ويقال: كل يجري، أي الليل والنهار والشمس والقمر على العادة في الدنيا بانقضاء الدنيا، فخسفت القمر وجمع الشمس والقمر، وانفطرت السماء وانشقت، والكواكب انتثرت، والشمس كورت. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ لا يخرج شيء من السماوات والأرض ومن فيهما عن ملكه فإياه فاعبدوا دون الأصنام ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأوثان. ويقال: وما تعبدونهم من دون الله. ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ يعني لا يقدرون على أن يعطوكم ولا ينفعونكم بمقدار قطمير، وهو القشرة التي على النّواة، وإذا لم يملكوا هذا القدر على حقارته وصغره فما فوقه أبعد.

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ يعني ينادوهم. ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنها جماد. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي ما أمكنهم إعانتكم، لأنهم لا يقدرون على كشف الكرب. وقيل: ولو كانوا سامعين ما تابعوكم على الكفر. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي يتبرؤون منكم ويجحدون أنكم عبدتموهم. وإنما جمع بالواو والنون، لأنهم وصفوا بصفات العقلاء. كما في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[يوسف:٤]، وإن كان هذا في الملائكة والأنبياء، فمعنى قوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لغيبتهم عنكم. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم لا يملكون ذلك. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يقولون: ما كانوا إيانا يعبدون، بل كانوا يعبدون الجن، أو يجحدون أن يكونوا أمروهم بذلك، أوأن يكون

ذلك حقا. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي ولا يخبرك عن الغيوب مثل من يعلم حقيقتها وهو الله تعالى، أي وقد أخبرتك بما يكون من أحوال [هؤلاء][٨٠٣] يوم القيامة فتيقنه.

﴿يَٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَىٰ اللَّهِ﴾ أي المحتاجون إليه. ﴿وَاللَّهُ هو الْغَنِيُّ﴾ أي المستغني عنكم. ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد، ما أمركم ونهاكم لحاجته إليكم، بل لحاجتكم إليه، ونفع ذلك لكم، وضرره عائد إليكم. ووجه آخر ﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ [إِلَىٰ اللَّهِ]﴾[٨٠٤] لا إلى الأصنام، فإياه فاعبدوا. ووجه آخر لا ترجوالخلائق ولا تسألوهم، فكلهم محتاجون لله، فارجعوا إليه وإياه فاسألوا.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي كلكم يميتكم. ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أفضل منكم وأطوع إلى الله. ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي بعسير، وهو إذهابكم"[٨٠٥].

[فصل في التفسير بالرأي]

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ قال الإمام – رحمه الله –: "إن المراد من الآية ضرب المثل في حق الكفر والإيمان، فالإيمان لا يشبه بالكفر في الحسن والنفع، كما لا يشبه البحران الفرات والملح الأجاج. ثم على هذا، فقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ لبيان أن حال الكافر والمؤمن أوالكفر والإيمان دون حال البحرين، لأن الأجاج يشارك الفرات في خير ونفع إذ اللحم الطريّ يوجد فيهما،

---

[٨٠٣] سقط من الأصل، وكتبتها من *التيسير*.

[٨٠٤] سقط من الأصل، وكتبتها من *التيسير*.

[٨٠٥] *التيسير في التفسير*، ١٢/٢٩٧–٣٠١.

والحلية تؤخذ منهما، والفلك تجري فيهما، ولا نفع في الكفر والكافر، وعلى هذا نسق قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[الأعراف:١٧٩]، وقوله: ﴿كَالحِجَارَةِ أَوأَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَٰرُ﴾[البقرة:٧٤]. والأظهر أن المراد منه دليل آخر على قدرة الله وذلك من حيث إن البحرين يستويان في الصورة ويختلفان في الماء، فإن أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج، ثم إنهما بعد اختلافهما يوجد فيهما أمور متشابهة، فإن اللحم الطريّ يوجد فيهما، والحلية تؤخذ منهما، ومن يوجد في المتشابهين اختلافاً، ومن المختلفين اشتباهاً، لا يكون إلا قادراً. وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ إشارة إلى أن عدم استوائهما دليل على كمال قدرته، ونفوذ إرادته. وقوله: ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ من الطير والسمك. ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ من اللؤلؤ والمرجان. ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي ماخرات تمخر البحر بالجريان، أي تشق. وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يدل على ما ذكرنا من أن المراد من الآية الاستدلال بالبحر وما فيهما على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته.

ثم قال تعالى: ﴿يُولِجُ الَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى الَّيْلِ﴾ استدلال آخر باختلاف الأزمنة، وأن قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ جواب لسؤال يذكره المشركون وهو أنهم قالوا اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف السير الواقع فوق الأرض وتحتها، فقال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ يعني سبب الاختلاف وإن كان ما ذكرتم، لكن سير الشمس والقمر بإرادة الله تعالى وقدرته فهو الذي فعل ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي ذلك الذي فعل هذه الأشياء من فطر السماوات والأرض، وإرسال [الأرواح][٦٠٨]، وإرسال الرياح، وخلق الإنسان من التراب، وغير ذلك، له المُلك كله فلا معبود إلا هو لذاته الكامل، ولكونه ملِكاً، والملِك مخدوم بقدر مُلكه، فإذا كان له المُلك كله فله العبادة كلها، ثم بيّن ما ينافي صفة الإلـٰهية، وهو قوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾، وههنا لطيفة: وهي أن الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الأوصاف: أحدهما: الخلق بالقدرة والإرادة، والثاني: المُلك. واستدل بهما على أنه معبود كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَـٰهِ النَّاسِ﴾[الناس:١-٣] ذكر الربّ والمُلك ورتب عليهما كونه إلـٰهاً أي معبوداً، وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة، وهو عدم المُلك بقوله: ﴿والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾، و لم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين: أحدهما: أن كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله، وإنما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الأرض والأرضيات إلى الكواكب التي الأصنام على صورها وطوالعها، فقال: لا ملك لهم، ولا ملكهم الله شيئاً، ولا ملكوا شيئاً. وثانيهما: أنه يلزم من عدم المُلك عدم الخلق، لأنه لو خلق شيئاً لملكه، فإذا لم يملك قطميراً ما خلق كثيراً ولا قليلاً.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ إبطالاً لما كانوا يقولون إن في عبادة الأصنام عزة من حيث القرب منها، والنظر إليها، وعرض الحوائج عليها، والله لا يرى ولا

---

[٦٠٨] في الأصل (الرياح)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٢٨/٢٦.

يصل إليه أحد. فقال هؤلاء لا يسمعون دعاءكم، والله يصعد إليه الكلم الطيب، فيسمع ويقبل. ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ لما بيّن عدم النفع فيهم في الدنيا، بيّن عدم النفع منهم في الآخرة، بل أشار إلى وجود الضرر منهم في الآخرة بقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي بإشراككم بالله شيئاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣] أي الإشراك. وقوله: ﴿وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون ذلك خطاباً مع النبي ﷺ، ووجهه هو أن الله تعالى لما أخبر بأن الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده، وذلك أمر لا يعلم بالعقل المجرد لولا إخبار الله تعالى عنه أنهم يكفرون بهم يوم القيامة، وثانيهما: هو أن يكون ذلك خطاباً غير مختص بأحد، أي هذا الذي ذكر هو كما ذكر: ﴿وَلاَ يُنَبِّئُكَ﴾ أيها السامع كائناً من كنت ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَىٰ اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ لما كثر الدعاء من النبي ﷺ، والإصرار من الكفار، وقالوا إن الله لعله يحتاج إلى عبادتنا حتى يأمرنا بها أمراً بالغاً، ويهددنا على تركها مبالغاً، فقال الله تعالى: ﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَىٰ اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم، وإنما هو لإشفاقه. تعريف الخبر ههنا لتنبيه المخاطبين، وذلك أن المخاطب إذا لم يتنبّه بأدنى تنبيه، ورد الخبر بالتعريف. ولهذا قال بعده: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ في مقابلة قوله: أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾. وقوله: ﴿إِلَىٰ اللَّهِ﴾ إعلام أنه لا افتقار إلا إليه، ولا اتكال إلا عليه، وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقراً إليه، وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار إلى غيره. ثم قال: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي هو مع استغنائه يدعوكم كل الدعاء، وأنتم مع احتياجكم لا تجيبونه، ولا تدعونه فيجيبكم. قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ لما زاد

في الخبر الأول، وهو قوله: ﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ زيادة لوجوب حصر العبادة في عبادته، زاد في وصفه بالغني زيادة وهو كونه حميداً إشارة إلى كونكم فقراء، وفي مقابلته والله غني وفقركم إليه في مقابلة نعمه عليكم لكونه حميداً واجب الشكر، فلستم فقراء والله مثلكم في الفقر بل هو غني على الإطلاق ولستم أنتم لما افتقرتم إليه ترككم غير مقضيي الحاجات بل قضى في الدنيا حوائجكم، وإن آمنتم يقضي في الآخرة حوائجكم فهو حميد.

وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بيانا لغناه، وفيه بلاغة كاملة. وبيانه أنه تعالى إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ، أي إذهابكم موقوفا على مشيئته، بخلاف الشيء المحتاج إليه، فإن المحتاج لا يقول فيه إن شاء فلان هدم داره وأعدم عقاره، وإنما يقال: لولا حاجة السكنى إلى الدار لبعتها، أولولا الافتقار إلى العقار لتركتها، ثم إنه تعالى زاد بيان الاستغناء بقوله: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعني إن كان يتوهم أن هذا الملك له كمال وعظمة، فلو أذهبه لزال ملكه وعظمته، فهو قادر بأن يخلق خلقاً جديداً أحسن من هذا وأجمل وأتمّ وأكمل. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي الإذهاب والإتيان. واعلم أن لفظ العزيز استعمله الله تعالى تارة في القائم بنفسه، حيث قال في حق نفسه: ﴿وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[الأحزاب:٢٥]، وقال في هذه السورة: ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[فاطر:٢٨]. واستعمله في القائم بغيره حيث قال: ﴿وَمَا ذلك عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾، وقال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[التوبة:١٢٨]. والعزيز في اللغة: هو الغالب، يقال من عزّ أي غلب، فالله عزيز أي غالب. والفعل إذا كان لا يطيقه شخص يقال هو مغلوب بالنسبة إلى ذلك الفعل، فقوله:

﴿وَمَا ذلك عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي لا يغلب الله ذلك الفعل، بل هو هيّن على الله. وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يحزنه ويؤذيه كالفعل الغالب"[٨٠٧].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

"قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ﴾ يشير إلى بحر الروح والنفس. ﴿هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي صفات حميدة. ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُ﴾ أي جائز عند الخلق. ﴿وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي بحر النفس وصفاتها ذميمة. ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي من البحرين، أي من بحر الروح فلحمه الطّري هو الواردات الربانية، وأما بحر النفس فلحمها الطري هي الشهوات الحيوانية. ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ منه أي من بحر الروح. ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ من شواهد الحق ومعارفه. ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ﴾ يعني سفينتي الشريعة والطريقة. ﴿مَوَاخِرَ﴾ تجري إحداهما: وهي سفينة الشريعة، تجري من بحر الروح إلى بحر النفس، فيها أحمال الأوامر والنواهي، وثانيهما: وهي سفينة الطريقة، تجري من بحر الروح إلى الحضرة، فيها أحمال الأسرار والحقائق والمعاني. ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ﴾ وهو الوصول إلى الحضرة على قدمي الشريعة والطريقة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ في طلب الزيادة.

﴿يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ﴾ أي يغلب نهار الروحانية على ليل البشرية مرة، وكذلك القبض مرة يغلب على البسط، والبسط يغلب على القبض، وكذلك في الصحو والسكر. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾ شمس التوحيد. ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ قمر المعرفة على ما يريد

[٨٠٧] *مفاتيح الغيب*، ٢٢٧/٢٦-٢٣٠.

إظهارها على القلوب. ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ في مقامات القلوب والأرواح. ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لنهاية مقدرة. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ منك القدرة على الوصول. ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من العالمين. ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ من هذه المقامات والدرجات.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ إن استغثتم بهم لم يعينوكم، وإن دعوتموهم لم يسمعوا دعاءكم. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على جهة ضرب المثل. ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم لا يملكون نفع أنفسهم، فكيف يملكون نفع غيرهم؟! ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ ويؤمنون بحقيقة الإيمان حين لا ينفعهم الإيمان.

وبقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يشير أن الاحتياج الحقيقي إلى ذات الله وصفاته مختص بالإنسان من بين سائر المخلوقات، وإن كانت المخلوقات محتاجة إلى الله بأجمعها، ولكنه تعالى ما شرّف شيئاً من المخلوقات بتشريف خطاب ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ حتى الملائكة المقربون، وذلك لأن الفقر على ثلاثة أوجه: فقر خلقة: وهو للعوام، وفقر صفة: وهو للخواص، وفقر كرم: وهو لأخص الخواص. وفقر الخلقة: عام لكل أحد ولكن حادث حصل من محدثه فالمخلوق مفتقر إلى خالقه في أول حاجة ليبديه وينشئه وفي الثاني في حال بقائه ليديمه ويبقيه. وأما فقر الصفة: فهو خاص وهو التجرد عن الدنيا وما فيها والتجرد عن الآخرة وما فيها متوجهاً إلى الله بكل وجوده وافتقاره إلى الله عن الكون. وأما فقر الكرم: فهو لأخص الخواص، وهو التفرد عن الوجود بالجود واجب الوجود، فهو الفقر الحقيقي عن عينه. وبقوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ يشير إلى أنه تعالى غني عن كل مفتقر وأنه يغني كل مفتقر بما يفتقر إليه، وتحقيقه أنه هو الغني المغني.

وبقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يشير إلى كمال غناه واستغنائه عن غيره وتهديد لمدعي محبته وطلبه أي أنه لم يطلبوه حق الطلب يفنيكم ويأت بخلق جديد في المحبة والطلب. ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي إفناؤكم على الله ليس بمستصعب"[٨٠٨]، هذا هو الباطن والإقرار بظواهرها واجب، والله أعلم بسرائر الأمور.

﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُماتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٢٦)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

ثم أخبر عن حمال الأثقال بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ "أي ولا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى يوم القيامة، فلا تغتروا بقول كبرائكم المغترين بالدنيا القائلين لكم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ﴾[العنكبوت:١٢]، فلا تجزي نفس عن نفس شيئا. ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي نفس مثقلة إلى حملها، لتحمل من ذنوبها شيء. ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾

---

[٨٠٨] التأويلات النجمية، ٥/١٢٣-١٢٥.

الكناية ترجع إلى حملها. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ يعني وإن كان ذا قرابة من أب، أو أم، أو أخ، أو أخت، أو نحو ذلك، فكل امرئ منهم له شأن يغنيه. ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ أي أن إنذارك إنما يقبله وينتفع به من يخشى الله في حالة الغيب، فأما من لم يخشه فلا ينتفع بإنذارك، وكأنه لم يسمع إنذارك، وكأنك لم تنذره، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرحمـٰن بِالْغَيْبِ﴾[يـس:١١]، وكقوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:٢]، وقال: ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها﴾[النازعات:٤٥]. ﴿وأَقَامُوا الصَّلَـٰوةَ﴾ ذكره بلفظ الماضي، وذكر (يخشون) بصيغة المستقبل، لأن الخشية صيغة لازمة دائمة، والصلاة مؤقتة لها أوقات مخصوصة تنقص بانقضائها وتنتهي بانتهائها. ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تطهر من الآثام. ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ فنفع ذلك له. ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي مرجع الكل من الخاشعين المصلين المتزكين وغيرهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ مثل للضالّ والمهتدي.

﴿وَلَا الظُّلُمَـٰتُ وَلَا النُّورُ﴾ مثل للضلالات والهدى.

﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ مثل لجزاء المهتدي وجزاء الضالّ. وقيل: الظل: الجنّة، قال الله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[النساء:٥٧]، والحَرور: النار، وأصل الحَرور السَموم، وهي الريح الحارة، والظل للراحة، والحرور للتعب والشدة. وقال الفراء – رحمه الله –: الحَرور يكون بالليل والنهار، والسَّموم لا يكون إلا بالنهار.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ قيل هو مثل للمؤمن والكافرين. قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[الأنعام:١٢٢]، أي كافرا فهديناه. ويقال: مثل العلماء والجهال. وأما تكرار (لا) فقد قال الأخفش: هي زائدة، تقديرها: ولا الظلمات والنور، وكذا ما بعده. وقال غيره: هي مقررة، ومعناها:لا الظلمات تساوي النور، ولا النور يساوي الظلمات. وكذا ما بعده.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ يقول: يا محمد إنك قد أنذرت الكفار، وما أنت بقادر على أن تسمع الموتى في القبور، أي يدخل الإيمان في قلوب الكفار، بل ذلك من مقدور الله، ولو يشاء لهداهم، ليس لك إلا الإنذار وقد أنذرت. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يعني إنا أرسلناك بالقرآن. ويقال: لبيان الحق بشيرا بالجنة لمن آمن، ونذيرا لمن كفر. ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يعني ما من أمّة قبل أمتك إلا جاءهم رسول.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي وإن يكذبوك أهل عصرك، فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالحجج. وقيل: بالمعجزات. وقيل: بالشرائع التي بانت صحتها وحسنها في العقول. ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ أي الإخبار عن الكتب المتقدمة، المنزلة على الأنبياء قبلهم. ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي الكتاب المنزل عليه،

المنير الموضح لما تحتاجون إليه. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي استأصلت الذين كذبوهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي كيف إنكاري وتغييري عليهم"[٨٠٩].

[فصل في التفسير بالرأي]

"قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ووجه تعلق هذه الآية بما قبلها، أنه تعالى لما بيّن الحق بالدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة، ذكر ما يدعوهم إلى النظر فيه، فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي لا تحمل [نفس ذنب نفس][٨١٠] فالنبي ﷺ لو كان كاذباً في دعائه لكان مذنباً، وهو يعتقد أن ذنبه لا تحملونه أنتم فهو يتقي ويحترز. والله تعالى غير فقير إلى عبادتكم، فتفكروا واعلموا أنكم إن ضللتم فلا يحمل أحد عنكم وزركم، وليس كما يقول أكابركم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خطاياكم﴾[العنكبوت: ١٢] وقد مرّ هذا في الأول. ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ إشارة إلى أن أحداً لا يحمل عن أحد شيئاً مبتدئاً، ولا بعد السؤال، فإن المحتاج قد يصبر وتقضى حاجته من غير سؤاله، فإذا [انتهى][٨١١] الافتقار إلى حدّ الكمال يُحْوِجُهُ إلى السؤال. وفي قوله: ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ زيادة بيان لما تقدم، من حيث إنه قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فيظن أن أحداً لا يحمل شيئا عن أحد لكون ذلك الواحد قادراً على

---

[٨٠٩] *التيسير في التفسير*، ٣٠١–٣٠٥.

[٨١٠] في الأصل (ذنب نفس ذنب)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٣٠.

[٨١١] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/ ٢٣١.

حمله، كما أن القوي إذا أخذ بيده رمانة أو سفرجلة لا تحمل عنه، وأما إذا كان الحمل ثقيلاً قد يرحم الحامل فيحمل عنه، فقال: ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ يعني ليس عدم الوزر لعدم كونه محلاً للرحمة بالثقل، بل لكون النفس مثقلة ولا يحمل منها شيء. قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ وفي الأول لا يحمل لعدم تعلقه به، كالعدو الذي يرى عدوه تحت حمل، أو الأجنبي يرى أجنبياً تحت ثقل لا يحمل عنه، فقال: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ يعني لا يحمل ولو كان ذا قرابة. ثم قال: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وهذا إشارة إلى أن الإرشاد لا يفيد إلا الذين تمتلىء قلوبهم خشية، وتتحلى ظواهرهم بالعبادة، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إشارة إلى عمل القلب. ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إشارة إلى عمل الظواهر. فقوله: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَـٰوةَ﴾ في ذلك المعنى، ثم لما بيّن أن لا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى، بيّن أن الخشية تنفع المخبتين. ومن تزكّى فتزكيته لنفسه. ثم قال: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي التزكّي لم تظهر فائدته عاجلاً، فالمصير إلى الله يظهر عنده في يوم اللقاء في دار البقاء، والوِزرُ إن لم يظهر مضرة في الدنيا، فهي مضرة في الآخرة إذ المصير إلى الله.

ثم لما بيّن الهدى والضلالة، والله لم يهد الكافر وهدى المؤمن، ضرب لهم مثلاً بالبصير والأعمى، فالمؤمن بصير حيث أبصر الطريق الواضح، والكافر أعمى، ثم إن البصير وإن كان حديد البصر ولكن لا يبصر شيئاً إن لم يكن في ضوء. فذكر للإيمان والكفر مثلاً، ثم ذكر لمآلهما ومرجعهما مثلاً وهو الظل والحَرور، فالمؤمن بإيمانه في ظل، ونور، وراحة. والكافر بكفره في ظلمات، وحرّ، وتعب، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَٰتُ﴾ هذا مثل آخر في حق المؤمن والكافر، فالمؤمن بإيمانه يدرك بإيمانه إدراكاً تاماً نافعاً، والكافر غير مدرك

إدراكاً نافعاً، كما أن الأحياء والأموات، فالمؤمن والحيّ يشتركان في الإدراك، والكافر والميت يشتركان في عدم الإدراك.

ثم قال: ﴿إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ وفيه احتمال معنيين: الأول: أن يكون المراد بيان كون الكفار بالنسبة إلى سماعهم كلام النبي والوحي النازل عليه دون حال الموتى، فإن الله يسمع الموتى، والنبي ﷺ لا يسمع من مات وقبر، فالموتى سامعون من الله، والكفار كالموتى لا يسمعون من النبي ﷺ. والثاني: أن يكون المراد تسلية النبي ﷺ، فإنه لما بيّن له أنه لا ينفعهم ولا يسمعهم، قال له هؤلاء لا يسمعهم إلا الله، فإنه يسمع من يشاء ولو كان صخرة صماء، وأما أنت فلا تسمع من في القبور، فما عليك من حسابهم من [شيء][٨١٢].

ثم قال: ﴿إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ بياناً للتسلية.

ثم قال: ﴿إِنَّا أرسلناك بالحق بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ لما قال: ﴿إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ بيّن أنه ليس نذيراً من تلقاء نفسه، إنما هونذير بإذن الله وإرساله.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ تقريراً لأمرين أحدهما: تسلية قلبه. حيث يعلم أن غيره كان مثله محتملاً لتأذي القوم. والثاني: إلزام القوم. يعني أن النبي يدّعي ما ادّعاه الرسل ويقرره.

---

[٨١٢] في الأصل (حسابهم)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٣٣.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني أنت جئتهم بالبينات والكتاب فكذبوك وآذوك، وغيرك أيضاً أتاهم بمثل ذلك وفعلوا بهم ما فعلوا بك، وصبروا على ما كُذّبوا كذلك نلزمهم بأن من الرسل لم يعلم كونهم رسلاً إلا بالمعجزات البينات، وقد آتيناها محمداً. ﴿وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ﴾ والكل آتينا محمداً، فهو رسول مثل الرسل، يلزمكم قبوله، كما لزم قبول موسى وعيسى – عليهم السلام أجمعين –.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي من كذب بالكتاب المنزل من قبل، وبالرسول المرسل، أخذه الله تعالى، فكذلك من يكذب بالنبي ﷺ. وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ سؤال للتقرير، فإنهم علموا شدة إنكار الله عليهم، وإتيانه من الأمر المنكر في الاستئصال"[٨١٣].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ "يشير بهذا إلى أن لله تعالى في خلق كل واحد من الخلق سراً مخصوصاً به وله مع الله كل واحد شأن آخر كما أن كل بذر ينبت نبات قد أودع فيه فلا يطالب بنبات بذر آخر لأنه لا يحمل إلا ما حمّل عليه. ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ من الطاعة أو من المعصية، نوراً وظلمة، فإذا آثر واحداً منهما في جواهر الإنسان أو اتصف الجرم بصفة النور أو بصفة الظلمة لا ينقل تلك الصفة من جوهره إلى جوهر إنسان آخر.

[٨١٣] مفاتيح الغيب، ٢٦/٢٣٠-٢٣٤.

وبقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِٱلْغَيْبِ﴾ يشير إلى أن إنذارك إنما يؤثر في الذين لهم قلوب منورة بنور الإيمان، وقلوبهم في الغيب تخشى من الله بذلك النور، فمن لم يكن بهذه الصفة يكون قلبه ميتاً لا يؤثر فيه الإنذار، كما قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[يس: ٧٠] مع هذا جعل تأثير الإنذار مشروطاً بشرط آخر، وهو إقامة الصلاة بقوله: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني أمارة خشية قلبه بالغيب، محافظة الصلاة. ثم قال: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: من تزكت نفسه عن الصفات الذميمة. وفائدة تزكية نفسه عائدة إلى نفسه، لأنها بالتزكية عن صفاتها يستحق التجليه بصفات الله. وإلى هذا أشار بقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ يعني إذا كان مصيره إلى الله لا إلى الدنيا ولا إلى الآخرة فقد تزكى عن صفاته التي تتعلق بالدنيا وهي صفات النفس وعن صفاته التي تتعلق بالآخرة وهي صفات الروح فيتجلى بصفات الله تعالى.

﴿وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَٰتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَٰتُ﴾ يشير إلى حقائق التخلية، يعني قبل التزكية والتجلية، كان أعمى فصار بصيرا بعدهما، وكان في الظلمات فصار في النور، وكان في حرقة جهنم البعد فصار في ظل جنات القرب، وكان ميتا فصار حيا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِى الْقُبُورِ﴾ يعني ميتا لم يُحْيِهِ الله بنور صفاته.

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ليس إليك الإحياء والاستماع.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وبهذا إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إشارة إلى تعزية النبي ﷺ"[١٤١]، والله أعلم بالسرائر.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

ثم أخبر عن آثار رحمته من ماء السماء بقوله تعالى: "﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ وهذا من محاجة المشركين أيضا يعني ألم تشاهد يا محمد عجائب صنع الله تعالى فيما خلق؟! وهذا خطاب له ولأمته يعني أنه أنزل من السماء مطرا فأخرجنا به ثمرات، رجوع من الغيبة إلى الإخبار عن نفسه، وهو من تلوين الكلام. ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ نصب لأنه نعت ثمرات وهي منصوبة لأنها مفعول بها، ولم يقل (مختلفة) لأنه في معنى تقديم الفعل على الاسم، لأن تقدير: اختلاف ألوانها مع اتفاق الماء والتربة، دليل على أن الفاعل لها هو الله تعالى القادر الذي لا يعجزه شيء. ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ أي

---

[١٤١] التأويلات النجمية، ٥/١٢٥-١٢٦.

طرائق، جمع جُدَّة، أي طريقة. ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ وتذكير المختلف لما مرّ أنه في تقدير تقديم الفعل على الاسم، ورفع هذه الكلمات بالابتداءِ والخبرِ دونَ العطفِ على الأول بإيقاع الفعل عليها. ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ وهو الذي لونه لون الغراب. ولذلك قال بعدها: سود، لأن الأول دالة على السواد، والثاني: إفصاح وتفسير، وهي من صفات الحدوث، وبيان اختلاف ألوانها بالبياض والحمر والسود.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ وهذا ابتداء أيضا، و﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ على التذكير في قوله: ﴿مُخْتَلِفٌ﴾، وفي قوله: ﴿أَلْوَانُهُ﴾، لأن كلمة (من) للتبعيض. ويقتضي أن يكون تقديره: ما تختلف ألوانه، فانصرف إلى البعض، أو إلى كلمة (ما)، وهو واحد في اللفظ. وقال: ﴿أَلْوَانُهُ﴾ ولم يقل: (لونه) للمعنى، وهو جمع. ومختلف كذلك ألوان الناس. ﴿وَالدَّوَابِّ﴾ وهي جمع دابّة، وهي في الأصل اسم لكل ما يدبّ على الأرض، وعند الإطلاق يقع على الخيل والبغال والحميرعند ذكر الركوب. قال: ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم، وقد يقع على الإبل خاصة، على كثرة أصنافها وأجناسها وأنواعها، ولا يجوز أن يكون كونها بأنفسها واختلافها في ذواتها بل بصانع قدير عالم مريد خلقها كذلك، ومن قدّر على ذلك قدر على إحياء الموتى. ولا يكون من الحكمة أن يتركهم سدى، بل يأمرهم وينهاهم، وإذا خالفوه أو وافقوه فلا بد أن يجازيهم على ذلك، وإذا لم يجازهم في الدنيا، فلا بدّ من دار أخرى يجازيهم بها فيها، فمن كان عالما بذا كله خشي الله، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمٰٓؤُاْ﴾ وهؤلاء المشركون لا يخشون لجهلهم بالله تعالى، قال

النبي ﷺ: "أنا أعلمكم بالله، وأخشاكم لله"[٨١٥]. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ منيع لا يعترض عليه فيما يفعل بأهل المخالفة. ﴿غَفُورٌ﴾ لا يعاجل بعقوبة أهل الحوبة، ويغفر ذنوب أهل التوبة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ اللَّهِ﴾ أي القرآن، وهم العلماء الذين يخشون الله، يقرؤون كتاب الله، ويتعظون بمواعظه، ويثقون بوعده ووعيده. وقيل: هو التوراة والإنجيل. وهو مدح من أسلم من أهل الكتاب. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَٰوةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ عطف الماضي على المستقبل وهو شائع، ومعناه: قد أطاعوا الله في الماضي، ويطيعونه في المستقبل. ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يجوز أن يكون في حق الإنفاق خاصة، وقد قال: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾[البقرة:٢٧١] ويجوز أن يكون في حق الصلاة أيضا. وحاصله أن الفرائض يجهر بها، والنوافل يخفى بها، فيهما جميعا ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ وهو حال، أي راجين بها متاجرة الله تعالى بتجارة لن تكسد، وليسوا قاطعين القول بما يعملون من الطاعات، أنهم يثابون عليها، لأنهم يخشون ردها. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾. ومعنى: ﴿لَنْ تَبُورَ﴾ أنهم يرجون فيها، لأن السلعة إذا كسدت على صاحبها لم ينتفع بها.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي يتلون، ويصلون، وينفقون، ليتمّم الله لهم ماوعد لهم من الثواب على الطاعات. ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ على الموجود، فقد قال: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٠]. ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ للذنوب الكثيرة.

---

[٨١٥] البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ٢/٧، رقم (٥٠٦٣)، بلفظ: "وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ". وأيضا في كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، ٨/٢٦، رقم (٦١٠١). مسلم: كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته، ٤/١٨٢٩، رقم (٢٣٥٦)، بلفظ: "فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً".

﴿شَكُورٌ﴾ للطاعات اليسيرة، يرضاها، ويقبلها، ويثني عليها، ويحب صاحبها، قال الله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾[الإسراء:١٩].

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي القرآن الذي يتلوه هؤلاء. ﴿هو الْحَقُّ﴾ أي الصدق. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي موافقا لما قبله من التوراة والإنجيل وسائر الكتب في التوحيد والعبادة والإخبار عن الأمور الكائنة. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ﴾ يعلم ما يضمرونه. ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى ما يظهرونه. وإذا حمل قوله: ﴿يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ على التوراة والإنجيل، فقوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا﴾ على الماضي، أي وقد صلوا وزكوا قبل مجيئ محمد ﷺ. وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هو ما قال: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾[القصص:٥٤]. ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ أي لما كان منهم قبل الإيمان بمحمد ﷺ. ﴿شَكُورٌ﴾ لإيمانهم به.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهو القرآن، لا يخالف ذلك الكتاب، بل يوافقه. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ بعلمه بهم وبمصالحهم أنزل عليكم وعليهم الكتب لبيان مصالح الدين والدنيا"[٨١٦].

[فصل في التفسير بالرأي]

"قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ

---

[٨١٦] التيسير في التفسير، ١٢/٣٠٦-٣١٠.

وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰؤُاْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ إلى آخرها استدلال بدليل آخر على وحدانية الله وقدرته ذكر هذا الدليل على طريقة الاستخبار، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وذكر الدليل المتقدم على طريقة الإخبار. وقال: ﴿وَاللَّهُ ٱلَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ لأن إنزال الماء أقرب إلى النفع والمنفعة فيه أظهر، فإنه لا يخفى على أحد في الرؤية والروية، أن الماء منه حياة الأرض. فعظم دلالته بالاستفهام، لأن الاستفهام الذي للتقرير لا يقال إلا في الشيء الظاهر جداً. كما أن من أبصر الهلال وهو خفي جداً، فقال له غيره: أين هو؟ فإنه يقول له: في الموضع الفلاني. فإن لم يره، يقول له: الحق معك، إنه خفي، وأنت معذور. وإذا كان بارزاً، يقول له: أما تراه هذا هو ظاهر؟!.

وهذا استدلال على قدرة الله تعالى واختياره، حيث أخرج من الماء الواحد ثمرات مختلفة. وفيها لطائف: الأولى: قال: (أنزل)، وقال: (أخرجنا)، ووجهه أن الإخراج أتم نعمة من الإنزال، لأن الإنزال لفائدة الإخراج، فأسند الأتم إلى نفسه بصيغة المتكلم، وما دونه بصيغة الغائب. واللطيفة الثانية: قال تعالى: ﴿وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ﴾، كأن قائلاً قال: اختلاف الثمرات لاختلاف البقاع. ألا ترى أن بعض النباتات لا تنبت ببعض البلاد كالزعفران وغيره؟ فقال تعالى اختلاف البقاع ليس إلا بإرادة الله، وإلا فلمَ صار بعض الجبال فيه مواضع حمر، وبعضها مواضع بيض؟!.

وقوله: ﴿وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن تكون للاستئناف كأنه تعالى قال: أخرجنا بالماء ثمرات مختلفة الألوان، وفي الكائنات من الجبال جدد بيض دالة على

القدرة، على من ينكر الإرادة في اختلاف ألوان الثمار. وثانيهما: أن يكون للعطف تقديره: وخلق من الماء جدد بيض. قال الزمخشري: أراد ذو جدد. واللطيفة الثالثة: ذكر الجبال، ولم يذكر الآية في الأرض، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾[الرعد:٤]، مع أن هذا الدليل مثل ذلك، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر في الأول: ﴿أَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾ دليلاً على القدرة ثم زاد عليه بياناً، وقال مختلفاً كذلك في الجبال في نفسها دليل للقدرة والإرادة، لأن كون الجبل في بعض نواحي الأرض دون بعضها، والاختلاف الذي في هيئة الجبل، فإن بعضها يكون أخفض، وبعضها أرفع، دليل القدرة والاختيار، ثم زاده بياناً وقال: ﴿جُدَدٌ بِيضٌ﴾، أي مع دلالتها بنفسها هي ألوانها دلائل.

ثم قال:﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ وهو مؤكد للأسود. والمؤكد لا يجئ إلا متأخرا. فكيف غرابيب سود؟ قال الزمخشري: غرابيب مؤكد لذي لون مقدر في الكلام، كأنه تعالى قال: سود غرابيب. ثم قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ﴾ استدلال آخر على قدرته وإرادته، وكأن الله تعالى قسّم دلائل الخلق في العالم الذي نحن فيه، وهو عالم المركبات قسمين: حيوان، وغير حيوان. [وغير الحيوان][٨١٧] إما نبات، وإما معدن، والنبات أشرف. وأشار إليه بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾. ثم ذكر المعدن بقوله: ﴿وَمِنَ الجِبَالِ﴾، ثم ذكر الحيوان وبدأ بالأشرف منها وهو الإنسان، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾، ثم ذكر الدواب، لأن منافعها في حياتها، والأنعام منفعتها في الأكل منها.

---

[٨١٧] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٣٦.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمٰٓؤُاْ﴾، الخشية بقدر معرفة المخشي، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه. وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد، لأن الله تعالى قال: ﴿إنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أتقَاكُمۡ﴾[الحجرات:١٣] فبيّن أن الكرامة بقدر التقوى، [والتقوى][٨١٨] بقدر العلم. فالكرامة بقدر العلم لا بقدر العمل، نعم العالم إذا ترك العمل قدح ذلك في علمه، فإن من يراه يقول: لو علم لعمل. ثم قال تعالى: ﴿إنَّ الله عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ ذكر ما يوجب الخوف والرجاء، فكونه عزيزاً ذا انتقام يوجب الخوف التام، وكونه غفوراً لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ.

ثم قال تعالى: ﴿إنَّ الذين يَتْلُونَ كِتَٰبَ اللهَ﴾، لما بيّن العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين [بكتاب الله][٨١٩] العاملين بما فيه. وقوله: ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ اللهَ﴾ إشارة إلى الذكر. وقوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ إشارة إلى عمل البدن. وقوله: ﴿وَأَنْفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ إشارة إلى [العمل المالي، وفي الآيتين حكمة بالغة، فقوله: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ إشارة إلى عمل القلب، وقوله: ﴿إنَّ الذين يَتْلُونَ﴾ إشارة إلى عمل اللسان. وقوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ إشارة إلى عمل الجوارح][٨٢٠]. ثم إن هذه الأشياء الثلاثة متعلقة بجانب تعظيم الله والشفقة على خلقه، لأن من يعظم ملكاً إذا رأى عبداً من عباده في حاجة يلزمه قضاء حاجته، وإن تهاون فيه يُخِلُّ بالتعظيم، وإلى هذا أشار بقوله: "عبدي

---

[٨١٨] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٣٦.
[٨١٩] في الأصل (بالله)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٣٦.
[٨٢٠] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٣٧.

مرضت فما عُدتني، فيقول العبد: كيف تمرض وأنت رب العالمين؟! فيقول الله عزّ وجلّ: مرض عبدي فلان وما زرته، ولو زرته لوجدتني عنده". يعني التعظيم متعلق بالشفقة، فحيث لا شفقة على خلق الله لا تعظيم لجانب الله. وقوله: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ حثّ على الإنفاق كيفما يتهيأ، فإن تهيأ سراً فذاك، وإلا فعلانية ولا يمنعه ظنه أنه كان رياء. وقوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تجارة لَّن تَبُورَ﴾ إشارة إلى الإخلاص، أي ينفقون لا ليقال إنه كريم، ولا لشيء من الأشياء غير وجه الله. وقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي ما يتوقعونه. ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي يعطيهم ما لم يخطر ببالهم عند العمل.

ثم قال تعالى: ﴿والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَٰبِ هو الحَقُّ﴾، لمّا بيّن الأصل الأول: وهو وجود الله الواحد بأنواع الدلائل من قوله: ﴿والله الذي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾، وقوله: ﴿والله خَلَقَكُمْ﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ﴾، ذكر الأصل الثاني: وهو الرسالة، وقال: ﴿وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَٰبِ هُوَ الحَقُّ﴾، وأيضاً كأنه قد ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم الله أجورهم، فقال: ﴿والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكتاب هو الحَقُّ﴾، تقريراً لما بيّن من الأجر والثواب في تلاوة كتاب الله، فإنه حقّ وصدق، فَتَالِيهِ مُحِقّ ومحقق. قوله: ﴿مِنَ الكِتَٰبِ﴾ يُحتمل أن يقال: المراد منه اللوح المحفوظ، يعني الذي أوحينا من اللوح المحفوظ إليك حق. قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة، لكونه حقاً، لأنّ الحقّ إذا كان لا خلاف بينه وبين كتب الله، يكون خالياً عن احتمال البطلان. وفي قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ تقرير لكونه وحياً، لأن النبي ﷺ لما لم يكن قارئاً كاتباً، وأتى ببيان ما في كتب الله، لا يكون ذلك إلا من الله تعالى. قوله: ﴿إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه تقرير لكونه هو الحق، لأنه وحيٌ من الله،

والله خبير، عالم بالبواطن، بصير، عالم بالظواهر، فلا يكون باطلاً في وحيه، لا في الباطن ولا في الظاهر. وثانيهما: أن يكون جواباً لما كانوا يقولونه إنه لم يترل على رجل؟ فقال: ﴿إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ﴾ يعلم بواطنهم، و ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى ظواهرهم فاختار محمداً ﷺ ولم يختر غيره فهو أصلح من الكل"[٨٢١].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

"قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ يشير بهذا إلى أن الله تعالى أنزل من سماء القدرة ماء الروح، فأخرج به من أشجار [الأشخاص][٨٢٢] ثمرات الأخلاق المختلفة ألوانها، من أهل السعادة والشقاوة.

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ أي من جبال النفوس أخرجت طرق، وهي صفاتها، بيض صفة اطمئنانها، ﴿وَحُمْرٌ﴾ صفة لذاتها، ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ صفة أماريتها. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ جمع فيه صفات الروح، وصفات النفس المشتركة بين الإنسان والحيوان مع اختلاف أوصافهم. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي اختلاف ما ذكرنا من الإنسان وأخلاقه. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمٰٓؤُاْ﴾ بحسب اختلافهم في العلم، فمنهم من هو عالم بأحكام الله من أوامره ونواهيه، فيكون خوفه من فوت الجنان وعذاب النيران، ومنهم من هو عالم بصفات الله من صفات اللطف والقهر، فيكون خوفه من الحرمان عن مقامات القرب والخذلان إلى دركات البعد، ومنهم من هو عالم بالله بنور الله فخوفه من هيبة من ذاته تعالى.

---

[٨٢١] *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٣٥-٢٣٨.

[٨٢٢] في الأصل (الأشجار)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٢٧.

كما قال:﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[آل عمران:٢٨]. فبقدر مراتب العلم، تكون مراتب الخوف. كما قال – عليه السّلام –: "أنا أعلمكم بالله، وأخشاكم منه"[٨٢٣]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أن يعرفوه حق معرفته. ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر عجز العباد، وقصورهم في معرفته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي ائتمروا بما في كتاب الله من الصلاة وغيرها. ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا﴾ أي من علم الباطن. ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ أي من علم الظاهر. ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ يعني خالصة لله، مع الله، بالله.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ بحسب أعمالهم، وخلوص نياهم. ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ ما لا يستحقونه وإنما يستحق كرمه به. ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾[يغفر][٨٢٤] تقصيرهم في العبودية. ﴿شَكُورٌ﴾ يشكر سعيهم مع التقصير، بفضل الربوبية.

وبقوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يشير إلى هذه المعاني المختلفة التي ذكرها إنه ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الآيات التي تجئ بعده. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ﴾ من أهل السعادة، وأهل الشقاوة. ﴿لَخَبِيرٌ﴾ لأنه خلقهم. ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يصدر منهم من الأخلاق والأعمال"[٨٢٥].

[فصل في التفسير الصوفي النظري]

---

[٨٢٣] سبق تخريجه.

[٨٢٤] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ١٢٨/٥.

[٨٢٥] *التأويلات النجمية*،١٢٧–١٢٨.

"قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰؤُاْ﴾ قال في [ابن عربي][٨٢٦]: أي: ما يخشى الله إلا العلماء، العرفاء به، لأن الخشية ليست هي خوف العقاب بل هيئة خشوعية انكسارية في القلب عند تصور وصف العظمة وحضوره لها، فمن لم يدرك عظمته لم تمكنه خشيته، ومن تجلى الله له بعظمته خشيه حق خشيته. وبين الحضور التصوري الحاصل للعالم الغير العارف، وبين التجلي الثابت للعالم العارف، بَونٌ بعيد. ومراتب الخشية لا تحصى بحسب مراتب العلم والعرفان.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على كل شيء بعظمته. ﴿غَفُورٌ﴾ يستر صفة تعظم النفس، وهيئة تكبرها، بنور تجلي عزته. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ اللَّهِ﴾ الذي أعطاهم في بدء الفطرة، من العقل القرآني بإظهاره ليصير فرقانا. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَٰوةَ﴾ صلاة الحضور القلبي عند ظهور العلم الفطري. ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من صفة العلم والعمل [الموجب][٨٢٧] لظهوره عليهم. ﴿سِرًّا﴾ بالتجريد عن الصفات. ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ بترك الأفعال والأقوال. [﴿يَرْجُونَ﴾ في مقام القلب بالترك والتجريد. ﴿تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ من استبدال أفعال الحق وصفاته، بأفعالهم وصفاتهم][٨٢٨]. ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ في جنات النفس، من ثمرات التوكل والرضا. ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ في جنات الروح، مشاهدات في التجليات. ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ يستر لهم ذنوب أفعالهم وصفاتهم. ﴿شَكُورٌ﴾ يشكر سعيهم بالإبدال من أفعاله وصفاته.

---

[٨٢٦] في الأصل (قال في التأويلات)، أي أنه ذكر أن التفسير الذي سيذكره لهذه الآية هو من كتاب *التأويلات النجمية*، لكن الصحيح أن هذا التفسير لابن عربي،٢/١٥٥.

[٨٢٧] سقط من الأصل، وكتبتها من *تفسير ابن عربي*، ٢/١٥٦.

[٨٢٨] سقط من الأصل، وكتبتها من *تفسير ابن عربي*، ٢/١٥٦.

﴿وَٱلَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَٰبِ﴾ الفرقاني. ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت المطلق الذي لا يزيد عليه ولا ينقص فيه. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لكونه مشتملا عليها، حاويا لما فيها بأسرها. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ﴾ يعلم أحوال استعداداتهم. ﴿بَصِيرٌ﴾ بأعمالهم، يعطيهم الكمال على حسب الاستعداد، بقدر السعي بالأعمال"[٨٢٩]. هذا هو الباطن، والإقرار بظواهرها واجب، والله أعلم بحقائق الأمور.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (٣٣) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (٣٥)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

ثم أخبر عن أعمال أهل السعادة، وأهل الشقاوة، بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ﴾ "يعني إنا أعطينا الكتاب، وهو القرآن. وإنما سُمي ميراثا لأنه بغير كسب ولا إرث يستحق بنسب أو سبب. والنسب ههنا هو الإيمان، والسبب هو الطاعة. وفي الإرث يُبدأ بصاحب الفرض، وقد يقل نصيبه. وكذا ههنا بدأ بالظالم، ونصيبُه أقل من نصيب الآخرين. ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ أي هذه الأمة الذين اخترناهم. ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي هم من خواصنا، وهم ثلاث

---

[٨٢٩] تفسير ابن عربي،٢/١٥٥-١٥٦.

طبقات. ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وهو الذي يقترف الذنوب غير مستحلّ بها، ولا جاحد تحرمها. ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ وهو الذي لم يبلغ النهاية في الطاعات مستكثرا منها بل سلك القصد في أعماله، فيأتي بالفرائض دون النوافل، أو بقليل من النوافل، كالمقتصد في النفقة الذي لا يسرف ولا يقتر. أو خلط عملا صالحا وآخر سيئا. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ أي مبادرا إلى كلها، مخلصا مستكثرا منها. ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بتيسير الله تعالى ذلك عليه"[٨٣٠].

"قال الإمام القشيري – رحمه الله –: كأنه قال: يا ظالم ارفع رأسك، فإنك وإن ظلمت فما ظلمت إلا نفسك، ويا سابق اخفض رأسك، فإنك وإن سبقت فما سبقت إلا بتوفيقي"[٨٣١].

"وقد كثرت الأقاويل فيها، قال عمر – رضي الله عنه –: سابقنا سابق، ومقتصدنا ناجي، وظالمنا مغفور له. وقال عثمان – رضي الله عنه –: سابقنا أهل الجهاد منا، ومقتصدنا أهل حَضَرِنا، وظالمنا [أهل][٨٣٢] بَدْوِنا. وقالت عائشة – رضي الله عنها –: السابق بالخيرات من مضى على عهد رسول الله ﷺ وأصحابه، فشهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق، والمقتصد من اتبع أثره من أصحابه، والظالم لنفسه مثلي ومثلك ومن اتبعنا. وروي عن مجاهد أنه قال: الظالم هم أصحاب المشأمة، والمقتصد هم أصحاب الميمنة، والسابق هم السابقون بالخيرات. وما روي عن الحسن البصري أنه قال: الظالم هم المنافقون المراؤون، والمقتصد هم التابعون بالإحسان، والسابق هم أصحاب النبي ﷺ. وطريق آخر عن الحسن البصري أنه قال: السابق الذي ترك الدنيا، والمقتصد الذي أخذ من الحلال، والظالم الذي لا يبالي من أين أخذ. ويقال:

---

[٨٣٠] *التيسير في التفسير*، ٣١٠–٣١١.

[٨٣١] القشيري: *لطائف الإشارات*، ٣/٢٠٥.

[٨٣٢] في الأصل (أي)، وصححتها من *التيسير*.

السابق الذي رجحت حسناته على سيئاته، والمقتصد الذي استوت حسناته مع سيئاته، والظالم الذي رجحت سيئاته على حسناته. ويقال: السابق الذي سره خير من علانيته، والمقتصد الذي سره وعلانيته سواء، والظالم الذي علانيته خير من سره. ويقال: السابق الذي يتهيأ للصلاة قبل دخولها، والمقتصد الذي يتهيأ بعد دخولها، والظالم الذي الذي ينتظر الإقامة. ويقال: السابق يُعطى كتابه بيمينه، والمقتصد يُعطى كتابه بشماله، والظالم يُعطى كتابه وراء ظهره. وروي عن كعب أنه قيل له: مامنعك أن تسلم على عهد النبي ﷺ ؟ قال: مكنني أبي من جمع التوراة إلا ورقات منعني أن أنظر فيها، فخرج يوما لحاجة فنظرت فيها، فوجدت فيها نعت محمد ﷺ، وأن أمته أثلاثا: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة، وثلث يشفع لهم الملائكة والنبيون، فأسلمت، فقلت: لعلي أكون من الصنف الأول، وإن لم أكن من الصنف الأول، فلعلي أكون من الصنف الثاني، أو من الصنف الثالث، فلما قرأت الكتاب وجدتها في القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ إلى قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ الآية. ويقال: الظالم من له علم اليقين، والمقتصد من له عين اليقين، والظالم من له حق اليقين. ﴿ذَٰلِكَ هو الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يعني الذي أورثهم من الكتاب، واختارهم هو الفضل الكبير من الله تعالى.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ يعني لهم جنات أي دار إقامة يدخلونها. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ يعني يلبسون الحلي من أساور ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ يعني لباسهم من حرير الجنة، لا حرير الدنيا.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ يعني حزن الموت، وحزن خوف الخاتمة. ويقال: خوف المرور على الصراط. ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يعني يغفر الذنوب، شكور يقبل اليسير، ويعطي الكثير.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ يعني الحمد لله الذي أنزلنا دار المقامة، يعني دار الخلود. المقام والمقامة بمعنى واحد يعني الإقامة والدوام. ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني بفضله وكرمه. ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ يعني لا يصيبنا في الجنة تعب وعناء. ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ يعني لا يصيبنا فيها من عناء كما يصيبنا في الدنيا. وعن أبي مسلم الخولاني – رحمه الله –: (أن رجلا من أهل الكتاب أسلم، فقال له ناس: ما حملك على الدخول في ديننا؟ فقال: رغبتي فيكم، وسأحدثكم أيتها الأمة أنكم تنزلون يوم القيامة على ثلاث فرق، فأما فرقة فيدخلون الجنة بغير حساب، وأما فرقة فيحاسبون حسابا يسيرا، وأما الثالثة فتقوم الملائكة فيقولون: ربنا هؤلاء أصحاب الدنيا الحرام، والأموال الحرام، والفروج الحرام، غير أنا وجدناهم لا يشركون بك شيئا. فقال: فيقول: اجعلوا خطاياهم على أهل النار، وأدخلوهم الجنة). ﴿ذَٰلِكَ هو الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي بتوفيق الله. السابق إلى الخيرات بالسبق أفضل من الله تعالى كبير. وقيل: إنزال الكتاب هو الفضل الكبير. وقيل: اصطفاؤهم. وقيل: إضافتهم إلى نفسه بقوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾. ويقال: قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي بساتين. دار إقامة ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أي هذه الفرق الثلاث. قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ إلى آخرها، وقد بيّنّا تفسيره في سورة الحجّ. قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ قيل: هو حزن الحبس في موقف الحساب. وقيل: هو حزن الفزع الأكبر، كما قال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾[الأنبياء:١٠٣]. وقيل: هو حزن

الموت، يقولون ذلك حين يفزع الموت. وقيل: هو حزن الدنيا، والاهتمام للقوت. وقيل: هو حزن الأخذ بتقصير الطاعات، والعقوبة على ارتكاب الجنايات. ويدل عليه ما بعده قوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي غفر الجنايات الكبيرة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ قيل: هو نعتُ قوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾. وقيل: هو عطف على قوله: ﴿شَكُورٌ﴾. وقيل: تقديره: هو الذي أحلنا دار المقامة. ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي هذا بفضله لا باستحقاقنا. ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي لا سعي عليهم في أسباب المعاش، فلا تعب، ولا إعياء، ولا تهتم قلوبهم بعدم مراد، ولا مشقة، ولا عناء"[٨٣٣].

وقال الإمام القشيري – رحمه الله –: "إذا أرادوا أن يروه لم يحتاجوا إلى قطع مسافة، ولا إلى تحديق مقلة نحو جهة"[٨٣٤]. كما قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا﴾[النساء:١٢٢]: ﴿أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾[الفرقان:٢٤]، يرون الله وينسون النعيم من لذة لقائه الذي لا تجد الكيفية إليه سبيلا، وينظرون إلى أعدائهم الذين أخذهم أخذا وبيلا. ولهم فيها ما لا يحصى من النعم، وحور عين، ويطوف عليهم ولدان مخلدون، بأكواب وأباريق وكأس من معين، توضع تيجان العزة التي لا ذلّ بعدها على رؤوسهم، وتخرج الهموم بأسرها من أكنة نفوسهم، تشرف بقلائد من النور تَرَاقِيهم، وتكتحل بكحل الكرامة مآقيهم، فهم على الأرآئك في دار الخلود متكئون، ولا تغني معهم سرر عليها بفضل الله متكئون، ولا يوانسهم إلا اللواتي ﴿كأمثال اللؤلؤ المكنون (٢٣) جزاء بما كانوا يعملون﴾، تدار عليهم

---

[٨٣٣] *التيسير في التفسير*، ٣١١–٣١٨.

[٨٣٤] القشيري: *لطائف الإشارات*، ٣/٢٠٧.

كؤوس مرصعة باليواقيت والدرر، وهم كالملوك جالسون على السرر، وبين أيديهم غلمان من الليل قيام، وحور مقصورات في الخيام، تلوح شموس الملاحة من وجوههم وأبداهم لكثرة ما أُعطوا من أنواع النعم مع إخوانهم، يركبون على مراكب أضوء من النور، ويتنقلون إلى ما يشاؤون من القصور، ويدورون في بساتين لا يوصف حسنها على مهور، من السرور يفوزون في أسواق الجنة العالية بتجارة رابحة لن تبور، ويقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

[فصل في التفسير بالرأي]

"وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هو الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ اتفق المفسرون على أن المراد من الكتاب: القرآن، كما مرّ. وعلى هذا فالذين اصطفيناهم الذين أخذوا بالكتاب وهم المؤمنون، والظالم والمقتصد والسابق، كلهم منهم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾[الرعد:٢٣]، أخبر بدخولهم الجنّة. وكلمة ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾[٥٣٥] أيضاً تدل عليه، لأن الإيراث بعد الاجتباء، ولا كتاب بعد القرآن فهو المورث، والإيراث المراد منه الإعطاء بعد ذهاب من بيده المعطى، ويقال المراد من الكتاب هو جنس الكتاب، كما في قوله: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَٰتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ﴾[فاطر:٢٥] والمعنى على هذا: إنا أعطينا الكتاب الذين اصطفيناهم، وهم الأنبياء. ويدل عليه أن لفظ المصطفى على الأنبياء إطلاقه كثير، ولا

---

[٥٣٥] سقط من الأصل كلمة (أورثنا).

كذلك على غيرهم، لأن قوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ دلّ على أن العباد أكابر مكرمون بالإضافة إليه، ثم المصطفى أشرف منهم، ولا يليق بمن يكون أشرف من الشرفاء أن يكون ظالماً. مع أن لفظ الظالم أطلقه الله في كثير من المواضع على الكافر، وسمي الشرك ظلماً، وعلى الوجه الأول التفسير ظاهر، معناه آتينا القرآن لمن آمن بمحمد، وأخذوه منه، وافترقوا ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ﴾ وهو المسيء، ﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، و﴿سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ وهو الذي أخلص العمل لله وجرده عن السيئات. وقال بعضهم: الظالم التالي للقرآن غير العالم به، والعامل بموجبه، والمقتصد التالي العالم، والسابق التالي العالم العامل. ويقال: الظالم المُصرّ على المعصية، والمقتصد هو النادم التائب، والسابق هو المقبول التوبة. ويقال: الظالم الذي أخذ القرآن ولم يعمل به، والمقتصد الذي عمل به، والسابق الذي أخذ به وبيّن للناس العمل به فعملوا به، فهو كامل مكمل، والمقتصد كامل، والظالم ناقص. والمختار:هو أن الظالم من خالف فترك أوامر الله وارتكب مناهيه، فإنه واضع للشيء في غير موضعه، والمقتصد هو المجتهد في ترك المخالفة وإن لم يوفق لذلك، وندر منه ذنب، وصدر عنه إثم، فإنه اقتصد، واجتهد، وقصد الحق، والسابق هو الذي لم يخالف بتوفيق الله، اجتهد، ووُفّقَ لما اجتهد فيه، وفيما اجتهد، فهو سابق بالخيرات، يقع في قلبه فيسبق إليه قبل تسويل النفس، والمقتصد يقع في قلبه فتردده النفس، والظالم تغلبه النفس. ونقول بعبارة أخرى: من غلبته النفس الأمّارة وأمرته فأطاعها ظالم، ومن جاهد نفسه فَغَلَبَ تارة وغُلِبَ أخرى فهو المقتصد، ومن قهر نفسه فهو السابق. وقوله: ﴿ذَلِكَ هو الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يحتمل وجوهاً أحدها: التوفيق

المذكور بقوله: ﴿بِإِذْنِ الله ذَلِكَ هو الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾، ثانيها: السبق بالخيرات هو الفضل الكبير ثالثها: [الإيراث][٨٣٦] فضل كبير.

ثم قال تعالى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وفي الداخلين وجوه: أحدها: الأقسام الثلاثة، وهو أن الظالم، والمقتصد، والسابق، أقسام المؤمنين. والثاني: الذين يتلون كتاب الله. والثالث: السابق، وهو أقوى لقرب ذكرهم، ولأنه ذكر إكرامهم بقوله: ﴿يُحَلَوْنَ﴾، والمكرم هو السابق. وقوله:﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ إشارة إلى سرعة الدخول، فإن التحلية لو وقعت خارجاً لكان فيه تأخير المدخول. فقال: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ وفيها تحليتهم. وقوله:﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾ ليس كذلك، لأن الإكثار من اللباس يدل على حاجةٍ من دفع برد أو غيره، والإكثار من الزينة لا يدل إلا على الغنى.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ والمراد من إذهاب الحزن، ذهاب كل حزن. والألف واللام للجنس واستغراقه. وإذهاب الحزن بحصول كل ما ينبغي، وبقائه دائماً، فإن شيئاً لو لم يحصل لكان الحزن موجوداً بسببه، وإن حصل و لم يَدُمْ لكان الحزن غير ذاهب بعد بسبب زواله.

ثم قال تعالى: ﴿الذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾ لّما ذكر الله تعالى سرورهم وكرامتهم بتحليتهم وإدخالهم الجنات، بيّن سرورهم ببقائهم، وأعلمهم بدوامها، حيث قال: الحمد لله ﴿ٱلَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾. وقوله:﴿لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا

[٨٣٦] في الأصل (الأثواب)، وصححتها من مفاتيح الغيب، ٢٦/٢٣٩.

لُغُوبٌ﴾ واعلم أنه تعالى قال:﴿لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ لأن ما قال الله تعالى في غاية الجلالة، وكلام الله أجلّ، وبيانه أجمل، ووجهه هو أنه تعالى بيّن مخالفة الجنة لدار الدنيا، فإن الدنيا أماكنها على قسمين: أحدهما: موضع تمسّ فيه المشاق والمتاعب، كالبراري، والصحاري، والطرقات. والآخر: موضع يظهر منه الإعياء، كالسوق، والمنازل التي في الأسفار من الخانات. فإن من يكون في مباشرة شغل لا يظهر عليه الإعياء إلا بعدما يستريح، فقال تعالى: ﴿لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي ليست الجنة كالمواضع التي في الدنيا، مظانّ المتاعب، بل هي أفضل من المواضع التي هي مواضع مرجع العيّ، فقال: ﴿وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي لا نخرج منها إلى مواضع نتعب ونرجع إليها، فيمسُّنا فيها الإعياء"[٨٣٧].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ "يشير إلى إيراثهم الكتاب، حيث علّمهم القرآن قبل خلقهم؛ لأنه قال:﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ ٱلإِنسَٰنَ﴾[الرحمـٰن:١-٣] ثم بعد خلقهم علمهم البيان، كما قال:﴿خَلَقَ ٱلإِنسَٰنَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[الرحمـٰن:٣-٤] وهذا النوع من الإيراث مخصوص بهذه الأمة. وإنما ذكر بلفظ الميراث، لأن الميراث يقتضي صحة النسب أو صحة السبب على وجه مخصوص، فمن لا سبب له ولا نسب، فلا ميراث له. فالسبب ههنا طاعة العبد، والنسب فضل الربّ، فأهل الطاعة هم أهل الجنة. كما قال:﴿أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْوَارِثُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ

[٨٣٧] *مفاتيح الغيب*،٢٣٨-٢٤٢.

ﵟٱلۡفِرۡدَوۡسَﵞ[المؤمنون:١٠-١١] فهم ورثة الجنة بسبب الطاعة. وأصل وراثتهم بالسببيّة المبايعة التي جرت بينهم وبين أحد بقوله:ﵟإِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَﵞ[التوبة:١١١] فهؤلاء أطاعوا الله بأنفسهم وأموالهم، فأدخلهم الله الجنة جزاء بما كانوا يعملون. وأهل الفضل هم أهل الله، وفضله معهم بأن أورثهم الجنة، والمعرفة، والقربة. فمن لا سبب له ولا نسب، فلا ميراث له. ولما كانت الوراثة بالنسب والسبب، وكان السبب جنساً واحداً: كالزوجية وهما صاحبا الفرض، وكان النسب من جنسين: الأصول، والفروع. الأصول: كالآباء، والأمهات، والفروع: كالأولاد، والإخوة، والأخوات، وأولادهم، والأعمام وأولادهم، وهم صاحب فرض وعصبة. فصار مجموع الورثة ثلاثة أصناف: صنف صاحب الفرض بالسبب، وصنف صاحب الفرض بالنسب، وصنف صاحب الباقي وهم العصبة. كذلك الورثة ههنا ثلاثة أصناف. كما قال تعالى: ﵟفَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚﵞ واعلم أنه تعالى قدم ظالما لنفسه في البداية، والوسط، والنهاية. أما في البداية: فبأنه عرض الله تعالى الأمانة على السماوات وأهلها، والأرض وأهلها، والجبال وأهلها ﵟفَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗاﵞ[الأحزاب:٧٢]، لأنه ظلم على نفسه لما قصد وضع الأمانة القديمة بحملها في غير موضعها، وهو تحمل الإنسان الذي خلق ضعيفاً. ولهذا لما زلّت قدم آدم من ثقل حمل الأمانة، قال:ﵟرَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَاﵞ[الأعراف:٢٣] أي: بحمل الأمانة الثقيلة. وإنما ﵟٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِﵞ[طه:١٢٢] بعد زلّة قدمه استحقاقاً، لأنه لو لم يحملها لبقيت الأمانة غير محمولة. ولما كانت الحكمة في عرضها حَمْلَها، فلو لم تحمل لكان الغرض لحملها عبثاً، وجلّ جناب

القدس الإلـــهي أن يقع فعل من أفعاله عبثاً، فآدم – عليه السّلام – إنما ظلم على نفسه بحملها تاركاً لحظوظه، راغباً لحظوظ الحق، لئلا يقع عرض الأمانة من الله عبثاً، فإن المخلوقات لم يحملنها رعاية لحظوظ أنفسهم. وقد ظلم الإنسان على نفسه رعاية لحقوق ربه، فلا جرم أمرهم بسجوده لظلمه على نفسه إيثاراً لربه، فثبت أن الظالم أولى بالتقديم، وأما ظلمه في الوسط على نفسه، فبإعراضه عن الدنيا وترك زينتها، على خلاف طبع نفسه، ونهي نفسه عن هواها، وفطامها عن شهواتها الحيوانية، ومألوفاتها الإنسانية، وتكليفها على الطاعات والعبادات، وتزكيتها عن أوصافها بالمجاهدات والرياضات، وبتركها الأوطار والأوطان، ومفارقتها عن الإخوان والأخدان، ومهاجرتها عن الأهالي والبلدان، ومقاساة الشدائد في الأسفار، بالمشي على الأقدام، وركوب الأهوال في البوادي والجبال، والصبر في البلاء عند نزول القضاء، وبذل الروح في محاربة الأعداء، وأمثال مما يعالجون به أرباب الطلب وأهل الإرادة نفوسهم. وأما ظلمه على نفسه في النهاية: فبالسعي في إفناء صفاتها في صفات الروح، ثم إفناء ذاتها في ذات الروح، ثم إفناء ناسوتية الإنسانية في محبة لاهوتية الربانية. وهذا تحقيق قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً (٢٨) فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي (٢٩) وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾[الفجر:٢٧-٣٠] وأما الدليل على فضيلة السابق على الظالم لنفسه، فبأن للسابق في سبقيته بداية، ووسطاً، ونهاية. وله في هذه المراتب الثلاثة فضل على الظالم لنفسه، أما في البداية: فبأن له سبق العناية الأزلية، بقوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾[الأنبياء:١٠١] يعني في الأزل قبل خلقهم. وأما في الوسط: فبأن له سبقة في الخروج من العدم إلى الوجود، وأهل سبقة العناية متتابعين لروحه. وأما في النهاية: فبأن له

سبقة في الرجوع إلى الحضرة على أقدام الخيرات، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَاتِ﴾ وهذه الخيرات على قسمين: قسم مركب: من كسب العبد بتقديم الخيرات، وقسم: من فضل الله بتواتر الجذبات، إلى أن يسبق على الظالم لنفسه، وهو على المقتصد بالسير بالله، في الله، وإن كان مسبوقاً بالذكر في الأخير كما كان حال النبي ﷺ مسبوقاً بالخروج في آخر الزمان للرسالة، سابقاً بالرجوع إلى الحضرة ليلة المعراج على جميع الأنبياء والرسل. كما أخبر عن حال نفسه، وحال سابقي أمته بقوله ﷺ: "نحن الآخرون السابقون" الآخرون خروجاً في عالم الصورة، السابقون وصولا إلى عالم الحقيقة. واعلم أن الإنسان على ضربين: سابق ولد سابقاً، وعاش سابقاً، ومات سابقاً. وسابق ولد سابقاً، وعاش ظالماً، ومات سابقاً. فالمقدم من السابق في الحقيقة هم الذين عاشوا سابقين، وماتوا سابقين. والمؤخر منهم هم الذين عاشوا ظالمين، وماتوا سابقين. وكان اسم الظالم عارية إذ ولدوا سابقين وماتوا سابقين. فأما من ولد ظالماً، وعاش ظالماً، ومات ظالماً، فهذا نوع آخر من هذه الأمة، فهو من أهل الكبائر الذين قال النبي ﷺ فيهم: "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي"[٨٣٨]. فعلى هذا المقتصد من مات على التوبة، والسابق من عاش في الطاعة، ومات في الطاعة، وهذا بلسان أهل الظاهر. وأما بلسان القوم، فالظالم السالك، والمقتصد المجذوب، والسابق المجذوب السالك. فإن السالك هو المتقرب، والمجذوب هو المقرب، والمجذوب السالك هو المستهلك في كمالات القرب الفاني عن نفسه الباقي بربه. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي ذكر الظالم مع السابق

---

[٨٣٨] ابن حنبل: *المسند*، ٤٣٩/٢٠، رقم (١٣٢٢٢). أبو داود: *سنن أبي داود*، ١١٩/٧، رقم (٤٧٣٩). الترمذي: *سنن الترمذي*، ٦٢٥/٤، رقم (٢٤٣٥). ابن حبان: *صحيح ابن حبان*، ٣٨٧/١٤، رقم (٦٤٦٨). الحاكم: *المستدرك*، ١٣٩/١، رقم (٢٢٨).

في الإيراث والاصطفاء ودخول الجنة، ومن دقائق حكمته أنه تعالى ما قال في هذا المعرض ذلك هو الفضل [العظيم][٨٣٩] ، لأن الفضل العظيم في حق الظالم، أن يجمعه مع السابق في الفضل والمقام، كما جمعه مع السابق في الذكر. ومن الفضل الكبير جنات عدن، وهي أدنى الجنات إلى الحضرة يدخلونها بفضل الله، وذلك أنه لما ذكرهم أصنافاً ثلاثة، ولما ذكر حديث الجنة والتنعم والتزين فيها، ذكرهم على الجميع، ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ نبّه على أن دخولهم الجنة لا باستحقاق، بل بفضله، وليس في الفضل تمييز فيما يتعلق بالنعمة دون ما يتعلق بالمنعم، لأن في الخبر: أن من أهل الجنة من يرى الله سبحانه في كل جمعة بمقدار أيام الدنيا مرة، فهو مقام الظالم، ومنهم يراه في كل يوم مرة، وهو مقام المقتصد، ومنهم من هو غير محجوب عنه لحظة، وهو مقام السابق.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ والحزن سمي حزناً لحزونة الوقت على صاحبه، وليس في الجنة وهي من جوار الحق حزونة، وإنما هو رضا واستبشار. ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للظالم لنفسه، ﴿شَكُورٌ﴾ للمقتصد والسابق. وإنما قدم ما للظالم رفقاً بهم، لضعف أحوالهم. وبقوله: ﴿أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ كشف القناع عن وجه الأحوال كلها، أن الظالم، والمقتصد، والسابق، قد حلّ كل واحد في مقام أحله الله من فضله، لا بجهده وعمله،

[٨٣٩] في الأصل (الكبير)، وصححتها من التأويلات النجمية، ٥/١٣٢.

وإن الذي أدخله الجنة جزاء عمله، فتوفيقه للعمل أيضاً من فضل [الله][٨٤٠]، وهذا حقيقة ﷺ: "قَبِلَ من قَبِلَ لا لعلّة، وردّ من ردّ لا لعلّة"[٨٤١].

﴿لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ في نيل مرادنا، وقضاء حوائجنا، حتى إذا أرادوا أن يروا ربهم لا يحتاجون إلى قطع مسافة وانتظار وقت، بل هم في غرفهم يلقون فيها تحية وسلاماً، وإذا رأوه لا يحتاجون إلى تحديق مقلة في جهة، يرونه بلا كيفية، حصلت لهم إرادة الرؤية لقوله:﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلأَنْفُسُ وَتَلَذُّ ٱلأَعْيُنُ﴾[الزخرف: ٧١]"[٨٤٢].

[فصل في التفسير الصوفي النظري]

"قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ هذا ﴿الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ المحمديين، المخصوصين عند الله بمزيد العناية وكمال الاستعداد بالنسبة إلى سائر الأمم، لأنهم لا يرثونه ولا يصلون إليه إلا منك وبواسطتك، لأنك المعطي إياهم الاستعداد والكمال، فنسبتهم إلى سائر الأمم نسبتك إلى سائر الأنبياء. ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بنقص حق استعداده، ومنعه عن خروجه إلى الفعل، وخيانته في الأمانة المودعة عنده بحملها وإمساكها، لانهماكه في اللذات البدنية، والشهوات النفسانية. ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ يسلك طريق اليمين، ويختار الصالحات من الأعمال والحسنات، في تكسب الفضائل والكمالات في مقام القلب. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ

---

[٨٤٠] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٣٣.

[٨٤١] وجدته بهذا اللفظ عند الرازي: *مفاتيح الغيب*، ٣٢/٣١١.

[٨٤٢] *مفاتيح الغيب*، ١٢٨-١٣٣.

بِالْخَيْرَاتِ﴾ التي هي تجليات الصفات إلى الفناء في الذات. بِإِذْنِ اللَّهِ بتيسيره هيئة أصل الاستعداد، وتوفيقه بإبرازه إلى الفضل. ﴿ذَلِكَ هو الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾ من الجنان الثلاث. ﴿يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ صور كمالات الأخلاق والفضائل والأحوال والمواهب الموضوعة بالأعمال. ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ العلوم الروحانية. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ المعارف والحقائق الكشفية الذوقية. ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ الصفات الإلـٰهية.

﴿وَقَالُوا﴾ بألسنة أحوالهم وأقوالهم عند اتصافهم بجميع الصفات الحميدة، حالة البقاء بعد الفناء. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ اللازم لفوات الكمالات الممكنة بحسب الاستعداد بهبته لنا إياها في هذا الوجود الحقاني. ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ يستر عنا ذنوب وجوداتنا، وأنانياتنا، وصفاتنا، وأحوالنا. ﴿شَكُورٌ﴾ جزاؤنا منه [أوفى وأبقى مما نستحقه بسعينا][٨٤٣].

﴿ٱلَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أي دار الإقامة الدائمة، التي لا انتقال منها بوجه في هذا الوجود الموهوب من عطائه الصرف، وفضله المحض. ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ بالسعي والانتقال. ولا لُغُوبٌ بالسير والترحال"[٨٤٤]. هذا هو الباطن، والله أعلم بالسرائر والحقائق.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي

---

[٨٤٣] سقط من الأصل، وكتبتها من تفسير ابن عربي،٢/١٥٧.

[٨٤٤] تفسير ابن عربي،١٥٨.

كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَساراً (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤١) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (٤٢) اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً (٤٤) وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً (٤٥)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

ثم أخبر عمّن لا نسب له ولا سبب، بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ "هو وعيد المخالفين بعد وعد الموافقين. ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ﴾ بالموت، ويقال: لا يرسل ولا يترل عليهم الموت. ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فيستريحوا. ﴿يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾[الحاقة:٢٧]، يعني

الموت. ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾[القصص:١٥]، أي أماته. ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ فيستريحوا بعض الراحة، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾[الإسراء:٩٧]، لأن الآلام لا تنقطع، وإن خَبَتْ أحيانا. ثم تقسيم الفرق الثلاث على المؤمنين في الآية الأولى هونظر. قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾[التوبة:١٠٠]، وبعدها: ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾[التوبة:١٠٢]، وبعدها: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾[التوبة:١٠٦]. وبعضهم حملوها على غيرهم كما في سورة الواقعة: ﴿فَأَصْحَٰبُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَٰبُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحَٰبُ الْمَشْئَمَةِ (٩) وَالسَّٰبِقُونَ السَّٰبِقُونَ﴾[الواقعة: ٨-١٠]، وفي آخر السورة: ﴿فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَٰبِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾[الواقعة: ٨٨-٩٢]. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ مبالغة الكافر، وهو الذي يجحد الله أو كتبه أو رسله أو شيئا مما أخبرته أنه كائن.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي يستغيثون في النار. ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ هذا بيان صراخهم يقولون: رُدّنا إلى دار الامتحان، نعمل الطاعات غير الذي كنا نعمل من المعاصي. ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ وهذا ردّ عليهم، وهو استفهام بمعنى التوبيخ. ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أي الرسول المنذر. وقيل: هو إلزام الحجة عليهم بالعقل والسمع. فإن التذكر من باب العقل، والإنذار من باب السمع. وقيل: قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ أنه سبعون سنة. وقيل: ستون سنة. وقيل: أربعون سنة. وقال الحسن – رحمه الله –: عشرون سنة. وقال ابن عباس – رضي الله عنهما –: ثماني عشر

سنة. وقيل: يوم واحد فما فوقه. وقيل: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أي السبب. ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني أنه تعالى يعلم لو ردكم إلى الدنيا لم تعملوا غير الذي كنتم تعملون. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بخَفِيَّاتِ القلوب، فيعلم أنكم كاذبون في هذا الكلام.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كما أورثكم الكتاب، أورثكم الأرض، فجعلكم خلفاء لمن بعدكم فيها. ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فمضرّة كفرانه النعمة راجعة إليه. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي بغضاً. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي هلاكاً.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ﴾ وهذا من محاجة المشركين أيضا، يقول: قل يا محمد للمشركين: أخبروني عن الأصنام جعلتموها شركائي. ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي تدعونهم آلهة. وقيل: تعبدونهم. وقيل: تدعونهم في حوائجكم، أو تستغيثون بهم. ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمٰوٰتِ﴾ أم خلقوا شيئا في السماوات فكان لهم شركة أونصيب بذلك؟!. ﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَٰبًا﴾ أي أنزلنا عليهم كتابا. ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ﴾ أي حجة وبصيرة، ولا يمكنهم أن يدّعوا شيئا من ذلك، فإذا لا حجة لهم عقلا ولا سمعا، فالعقل أن تخلقوا كخلقي، والسمع أن يتلى بذلك كتابي، فإذا عُدِمَا لم يكن فعلهم إلا ضلالة وجهالة. ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي المشركون يقول بعضهم لبعض: إن آلهتنا تنفعنا عند الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوٰتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أي فإذا لم يكن لآلهتهم شرك في السماوات والأرض فيستحقوا أن يعبدوا فاعلموا أني أنا المستحق لها لأني خالقهما وحافظهما، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما﴾[البقرة:٢٥٥]، ولو لم أمسكهما لزالتا. ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني ما أمسكهما أحد من بعد إمساكه إياهما. وقيل: بعد زوالهما ما أمسكهما أحد. ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ تعليل لمعنى اقتضاه قوله: ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي ولئن زالتا لردّهما الله إلى مكانهما وأمسكهما كما كانتا لمصالح العباد، لأنه كان حليماً قادراً لا يعاجل بالعقوبة. غفوراً ساتراً لذنوب العباد ماحياً إذا تابوا.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أي وحلف هؤلاء المشركون، قبل أن يبعث الله تعالى محمدا، أيمانا بالَغُوا في تأكيدها على أنفسهم، إن جاءهم رسول من الله تعالى ينذرهم كما جاءهم من قبلهم من الأمم، ليكونُنّ أهدى من إحدى الأمم، أي أشدُّ اتباعا له من أهل الكتاب لأنبيائهم – صلوات الله عليهم – ، وذلك أن أهل الكتاب كانوا يظهرون الفضل وأنفسهم على العرب بالكتاب والنبوة، فكان العرب يسوؤهم ذلك لما كانوا عليه من الأَنَفَة والحَمِيّة، فكانوا يتمنون أن يكون منهم رسول. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو محمد ﷺ. ﴿مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي ما زادوا مع مجيئه إلا نفورا عن الحق. قال ابن عباس – رضي الله عنهما –: لما بلغ قريشا أن اليهود والنصارى كذبوا رسلهم وجحدوهم، قالوا: لعن الله اليهود والنصارى، لئن جاءنا رسول نذير لنكونُنّ أهدى منهم.

﴿اسْتِكْبَارًا فِى الْأَرْضِ﴾ أي نفروا عنه لتكون لهم الكبرياء والعلوّ. ﴿فِى الْأَرْضِ﴾ أي في بلادهم. ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ يعني قول الشرك واجتماعهم على قتل النبي ﷺ. ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي لا يدور ولا يترل المكر السيء إلا بأهله، يعني عقوبة المكر ترجع إليهم. ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون. ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني مثل عقوبة الأمم الخالية أن تترل بهم مثل مانزل بالأولين حين كذبوا أنبياءهم – صلوات الله عليهم –. ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ يعني أن الله لا يبدل هذه الطريقة في الكفار ولا يحولها عنهم.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فيعرفوا كيف كان سنة الله فيهم. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَىْءٍ فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ﴾ أي من صفة الله العجز عن شيء من إنزال العذاب بالأعداء. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ عالما بكل شيء، قادرا على كل شيء. ثم بيّن أن تأخر العذاب عنهم ليس للعجز، بل لحكمة، فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ أي يعاقبهم. ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من الكفر والعصيان.

﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا﴾ أي ظهر الأرض. ﴿مِنْ دَآبَّةٍ﴾ يعني لهلكت الدوابّ من قحط الأرض. ويقال: من دابّة، يعني من الجنّ والإنس. فيعاقبهم بذنوبهم، فيهلكهم. وقال مجاهد: ما ترك على ظهرها من دابّة، أي من هوام الأرض من العقارب والخنافس. وروي عن عبد

الله بن مسعود أنه قال: كاد الجُعَل[٨٤٥] أن يُعذَّب في جحره بذنب ابن آدم، ثم قرأ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ الآية. وفي هذا إشارة إلى الإخبار عن تأخر العذاب عنهم ليس للعجز بل لحكمة، فلهذا قال بعده: ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي إلى الميعاد الذي وعدهم الله تعالى. ويقال: إلى الوقت الذي وقت في اللوح. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ يعني إذا انقضت حياتهم، ويقال هو حين البعث. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ يعني عالما بهم وبأعمالهم. ويقال: عالما بوقت عذابهم. ويقال: يغفر لمن يحوب ثم يؤوب إلى بابه، ويتوب من يفكر في طول السماوات والأراضي والعرض، وقال: الحمد لله فاطر السماوات والأرض، ففي كل ذرة من ذراري وجود خلقه أنه يدل على أنه واحد، يفعل الله ما يشاء، ويحكم ما يريد. وقال في محكم تنزيله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[ق:١٦]، أوجد بني آدم من كتم العدم، ولم يكونوا شيئا مذكورا، وجعلهم بكمال قدرته إناثا وذكورا، وشرفهم بتشريف الأوامر والنواهي، ليفوزوا يوم لا ينفع مال ولا بنون من الدواهي، ومنّ بإرسال الرسل عليهم، بتبيين السبل إليهم عرفهم بأنهم لا يجدون سواه، ولا نصيرا فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾"[٨٤٦].

---

[٨٤٥] الجُعَل: دابة سوداء من دوابّ الأرض. حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية. ابن منظور: *لسان العرب*، ١١/١١٠. إبراهيم مصطفى ـــ أحمد الزيات ـــ حامد عبد القادر ـــ محمد النجار، *المعجم الوسيط*، دار الدعوة، ١/١٢٦.

[٨٤٦] *التيسير في التفسير*، ١٢/٣١٩-٣٢٨.

[فصل في التفسير بالرأي]

"قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عطف على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ على بعض الأقوال راجع إلى الذين يتلون كتاب الله. وقوله: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أي لا يستريحوا بالموت، بل بالعذاب الدائم. ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ أي النار. وقوله: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ أي صراخهم بهذا، أي يقولون: ربّنا لأن صراخهم كلام. وفيه إشارة إلى أن إيلامهم تعذيب لا تأديب، وذلك لأن المؤدب إذا قال لمؤدبه: لا أرجع إلى ما فعلت وبئسما فعلت فيتركه. وأما المعذب فلا. وترتيبه حسن، وذلك لأنه لما بيّن أنه لا يخفف عنهم بالكليّة، ولا يعفو عنهم، بيّن أنهم لا يقبل منهم وعداً، وهذا لأن المحبوس يصبر لعله يخرج من غير سؤال، فإذا طال لبثه يطلب الإخراج من غير قطيعة على نفسه، فإن لم يَـــقُدْهُ يقطع على نفسه قطيعة، ويقول: أخرجني أفعل كذا وكذا. واعلم أن الله تعالى قد بيّن أن من يكون في الدنيا ضالاً فهو في الآخرة ضالا كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي آلْ أ آخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الإسراء:٧٢] ثم إنهم لم يعلموا أن العود إلى الدنيا بعيد محال بحكم الإخبار. ومع هذا قالوا: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾، جازمين من غير استعانة بالله، و لم يقولوا إن الأمر بيد الله، فقال الله لهم: إذا كان اعتمادكم على أنفسكم، فقد عمّرناكم مقداراً يمكن التذكر فيه، والإتيان بالإيمان، والإقبال على الأعمال. وقولهم: ﴿غَيْرَ الذى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ إشارة إلى ظهور فساد عملهم لهم، وكأن الله تعالى كما لم يهدهم في الدنيا لم يهدهم في الآخرة، فما قالوا:

ربنا زدت للمحسنين حسنات بفضلك لا بعلمهم، ونحن أحوج إلى تخفيف العذاب منهم إلى تضعيف الثواب، فافعل بنا ما أنت أهله، نظراً إلى فضلك، ولا تفعل بنا ما نحن أهله نظراً إلى عدلك، وانظر إلى مغفرتك الهاطلة، ولا تنظر إلى معذرتنا الباطلة، وكما هدى الله المؤمنين في الدنيا، هداه في العقبى حتى دعاه بأقرب دعاء إلى الإجابة وأثنى عليه بأطيب ثناء عند الإنابة، فقالوا: الحمد لله. وقالوا: ربنا غفور اعترافاً بتقصيرهم. شكور إقراراً بوصول ما لم يخطر ببالهم إليهم. وقالوا: ﴿أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي لا عمل لنا بالنسبة إلى نعم الله تعالى. وهم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ إعراضاً عن الاعتراف بعجزهم عن الإتيان بما يناسب عظمته. ثم إنه تعالى قال: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾، وقد مرّ تفسيره.قال بعض الحكماء قوله: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ وقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾[البقرة:٢٧٠]، يحتمل أن يكون المراد من الظالم الجاهل جهلاً مركباً، وهو الذي يعتقد الباطل حقاً في الدنيا، وما له من نصير أي من علم في الآخرة ينفعه، والذي يدلّ عليه هو أن الله تعالى سمى البرهان سلطاناً، كما قال تعالى: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ﴾[إبراهيم:١٠]، والسلطان أقوى ناصر، والحق التعميم، لأن الله تعالى [لا ينصره][٨٤٧] وليس غيره نصيراً فما لهم من نصير أصلاً. ويمكن أن يقال بأن الله تعالى قال في آل عمران: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾[٨٤٨] [آل عمران:١٩٢]، وقال: ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[الروم:٢٩]، وقال ههنا: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي هذا وقت كونهم واقعين

---

[٨٤٧] في الأصل (ولا ينصر)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٤٣/٢٦.

[٨٤٨] في الأصل (من نصير)، وهو خطأ في كتابة الآية.

في النار، فقد أيسَ كل منهم من كثير ممن كانوا يتوقعون منهم النصرة، و لم يبق إلا توقعهم من الله تعالى. فقال: ما لكم من نصير أصلاً.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقريراً لدوامكم في العذاب، وذلك من حيث إن الله تعالى لما قال: أن جزاء السيئة سيئة مثلها ولا يزاد عليها. فلو قال الكافر: ما كفر بالله إلا أياماً معدودة، وكان ينبغي أن لا يجزى إلا مثل تلك الأيام. فقال تعالى: إن الله لا يخفى عليه غيب السماوات، فلا يخفى عليه ما في الصدور، وكان يعلم من الكافر أن في قلبه تمكن الكفر، بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله ولا عبد.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تقريراً لقطع حجتهم فإنهم لما قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَا يَتَذَكَّرُ﴾ إشارة إلى أن التمكين والإمهال مدة يمكن فيها المعرفة قد حصل، وما آمنتم. وزاد عليه بقوله: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾، أي آتيناكم عقولاً، وأرسلنا إليكم من يوحد العقول بالدليل المنقول. زاد على ذلك بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي نبهكم بمن مضى، وحال من انقضى، فإنكم لو لم يحصل لكم علم بأن من كذب الرسل أهلك، لكان عنادكم أخفى، وفسادكم أخف، لكن أمهلتم وعمرتم وأمرتم على لسان الرسل بما أمرتم وجعلتم خلائف في الأرض، خليفة بعد خليفة، تعلمون حال الماضين، وتصبحون بحالهم راضين. ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ بعد هذا كله ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا﴾، لأن الكافر السابق كان ممقوتاً كالعبد الذي لا يخدم سيده، واللاحق الذي أنذره الرسول و لم ينتبه، وكالعبد الذي ينصحه الناصح، ويأمره بخدمة سيده، ويوعده، ولا ينفعه النصح ولا يسعده.

ثم قال تعالى: ﴿وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا﴾ أي الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيد إلا المقت، ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يفيدهم إلا خسارا، فإن العمر كرأس مال، من اشترى رضا الله ربح، ومن اشترى سخطه خسر.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تقريراً للتوحيد وإبطالاً للإشراك. وقوله: ﴿أَرَءيْتُمْ﴾ المراد منه أخبروني، لأن الاستفهام يستدعي جواباً، يقول القائل: أرأيت ماذا فعل زيد؟ فيقول السامع: باع أو اشترى. وقوله: ﴿شُرَكَاءَكُمُ﴾ من حيث إن الأصنام في الحقيقة لم تكن شركاء لله، وإنما هم جعلوها شركاء، فقال: شركاءكم، أي الشركاء بجعلكم. ويحتمل أن يقال شركاءكم، أي شركاءكم [في النار][٥٤٩]، لقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[الأنبياء:٩٨]. ويحتمل أن يقال قوله: ﴿أَرَءيْتُمْ﴾ استفهام حقيقي، و﴿أَرُونِىَ﴾ أمر تعجيز، فلما قال: ﴿أَرَءيْتُمْ﴾ يعني أعلمتم هذه التي تدعونها كما هي، وعلى [ما هي عليه من العجز][٥٥٠]، أو تتوهمون فيها قدرة، فإن كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها؟ وإن كان وقع لكم أن لها قدرة فأروني قدرتها في أي شيء هي؟ أهي في الأرض؟ كما قال بعضهم: إن الله إلـٰه السماء، وهؤلاء آلهة الأرض. أم هي في السماوات؟ كما قال بعضهم: إن السماء خلقت باستعانة الملائكة، والملائكة شركاء في خلق السماوات، وهذه الأصنام صُوَرُها؟ أم قدرتها في الشفاعة لكم؟ كما قال بعضهم: إن الملائكة ما خلقوا شيئاً، ولكنهم مقربون عند الله فنعبدها ليشفعوا لنا. فهل معهم كتاب من

---

[٥٤٩] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٢٤٥.

[٥٥٠] في الأصل (ما يبني عليه من المعجزة)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٢٤٥.

الله فيه إذنه لهم بالشفاعة؟ وقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَٰبًا﴾ وفيه وجهان: أحدهما: أن الضمير عائد إلى الشركاء، أي هل أتينا الشركاء كتاباً؟. وثانيهما: أنه عائد إلى المشركين، أي هل آتينا المشركين كتاباً؟. وعلى الأول فمعناه ما ذكرنا، أي هل مع ما جعل شركاء كتاب من الله فيه أن لهم شفاعة عند الله؟ فإن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه. وعلى الثاني معناه أن عبادة هؤلاء إما بالعقل، ولا عقل لمن يعبد من لم يخلق من الأرض جزءاً من الأجزاء. وإما بالنقل، ونحن ما آتينا المشركين كتاباً فيه أمرنا بالسجود لهؤلاء ولوأمرنا [لجاز][٥٥] كما أمرنا بالسجود لآدم، وإلى جهة الكعبة. فهذه العبادة لا عقلية ولا نقلية، فوعدُ بعضهم بعضاً ليس إلا غروراً، غرّهم الشيطان وزيّن لهم عبادة الأصنام.

ثم لما بيّن الخلق للأصنام، ولا قدرة لها، بيّن أن الله قرر بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾، ويحتمل أن يقال: لما بيّن شركهم، قال: مقتضى شركهم زوال السماوات والأرض. كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾[مريم: ٩٠-٩١]. ويدل على هذا قوله تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ما ترك تعذيبهم إلا حلماً منه، وإلا كانوا يستحقون إسقاط السماء، وانطباق الأرض عليهم. وإنما أخَّرَ إزالة السماوات بقيام الساعة حلماً. وتحتمل الآية وجهاً آخر: وهو أن يكون ذلك من باب التسليم، وإثبات المطلوب على تقدير التسليم، كأنه قال تعالى: شركاؤكم ما خلقوا من الأرض شيئاً، ولا في السماء جزءاً، ولا

---

[٥٥] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٤٥.

قدروا على الشفاعة، فلا عبادة لهم. ولا ما فعلوا شيئاً من الأشياء، فهل يقدرون على إمساك السماوات والأرض؟ ولا يمكنهم القول بأنهم يقدرون لأنهم ما كانوا يقولون به، كما قال عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالأَرضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[لقمان:٢٥]، ويؤيد هذا قوله: ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ فإذا تبيّن أن لا معبود إلا الله من حيث إن غيره لم يخلق شيئا من الأشياء، وإن قال كافر بأن غيره خلق فما خلق مثل ما خلق فلا شريك له إنه كان حليماً غفوراً، حليماً لم يعجل في إهلاكهم، وغفوراً يغفر لمن تاب ويرحمه، وإن استحق العقاب.

ثم قال تعالى:﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ لما بيّن إنكارهم للتوحيد، ذكر تكذيبهم للرسول ومبالغتهم فيه، حيث كانوا يُقسِمون على أنهم لا يكذبون الرسل إذا تبيّن لهم كونهم رسلاً. وقالوا: إنما نكذب بمحمد ﷺ لكونه كاذباً، ولو تبيّن لنا كونه رسولاً منّا. كما قال تعالى عنهم: ﴿وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أيمانهم لَئِن جَاءَتْهُمْ ءايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ﴾[الأنعام:١٠٩] وهذا مبالغة في التكذيب. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني محمدا ﷺ جاءهم، أي صَحَّ مجيؤه لهم بالبينة، ما زادهم إلا نفوراً، فإنهم قبل الرسالة كانوا كافرين بالله، وبعدها صاروا كافرين بالله ورسوله.

ثم قال: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ ونصبه يحتمل ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون حالاً، أي مستكبرين في الأرض. وثانيها: أن يكون مفعولاً له، أي للاستكبار. وثالثها: أن يكون بدلاً عن النفور. وقوله: ﴿وَمَكْرَ السَّيِّىءِ﴾ إضافة الجنس إلى نوعه. كما يقال: علم الفقه وحرفة الحدادة. وتحقيقه أن يقال معناه: ومكروا مكراً سيئاً، ويحتمل أن يقال بأن المكر

يستعمل استعمال العمل كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي يعملون السيئات، ومكرهم السيء، هو جميع ما كان يصدر منهم. قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي لا يحيط إلا بفاعله. فإن قيل: كثيراً نرى أن الماكر يمكر، ويفيده المكر، ويغلب الخصم بالمكر، والآية تدل على عدم ذلك، وجوابه: أن من مكر غيره ونفذ فيه المكر عاجلاً في الظاهر، ففي الحقيقة هو الفائز، والماكر هو الهالك. وذلك مثل راحة الكافر، ومشقة المسلم في الدنيا. ويبين هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ آلأَوَّلِينَ﴾ يعني إن كان لمكرهم في الحال رواج، فالعاقبة للمتقين، والأمور بخواتيمها، فيهلكون كما هلك [الأولون][٨٥٢]. ومعنى قوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ آلأَوَّلِينَ﴾ أي ليس لهم بعد هذا إلا انتظار الإهلاك، وهو سنة الأولين. وسنة الله استئصالهم بإصرارهم، فكأنه قال: أنتم تريدون الإتيان بسنة الأولين، والله يأتي بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها. وهو معنى قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا﴾ فبهذا حصل العلم بأن العذاب مع أنه لا تبديل بالثواب لا يتحول عن مستحقه إلى غيره. والمخاطب بقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون عاماً كأنه قال لن تجد أيها السامع لسنة الله تبديلاً. والثاني: أن يكون مع محمد ﷺ وعلى هذا فكأنه قال: سنة الله أنه لا يهلك في القوم من كتب الله إيمانه، فإذا آمن من في علم الله أنه يؤمن يهلك الباقين.

---

[٨٥٢] في الأصل (الأولى)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٤٧.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ﴾ لما ذكر أن للأولين سنة، وهي الإهلاك، نبّههم بتذكير حال الأولين، فإنهم كانوا مارّين على ديارهم، رائين لآثارهم، وأملهم كان فوق أملهم، وعملهم كان دون عملهم، أما الأول فلطول أعمارهم وشدة اقتدارهم، وأما عملهم فلأنهم لم يكذبوا مثل محمد ولا محمداً وأنتم يا أهل مكة كذبتم محمداً ومَن تقدّمه، وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وفيه أبحاث: الأول: أنه قال في سورة الروم: ﴿كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[الروم:٩]، وقال هنا: ﴿وَكَانُواْ﴾ بالواو فما الفرق؟ وجوابه: أن المذكور ههنا كونهم أشد منهم قوة لا غير، فقالوا بالواو. وأما هناك المذكور أشياء كثيرة، فإنه قال: ﴿كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأَرضَ وَعَمَرُوهَا﴾[الروم:٩]، وفي موضع آخر قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الّذينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الأَرضِ﴾[غافر:٨٢]، ولعلّ علمهم لم يحصل بآثارهم الأرض، أو بكثرتهم، ولكن نفس القوة ورجحانهم فيما عليهم كان معلوماً عندهم، فإن كل طائفة تعتقد فيمن تقدّمه أنه أقوى منه ولا ينازع فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِي الأرضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون بياناً لهم أن الأولين مع شدة قوتهم ما أعجزوا الله وما فاتوه، فهم أولى بأن لا يعجزوه. والثاني: أن يكون قطعاً لأطماع الجهال. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ عليما بأفعالهم وأقوالهم. ﴿قَدِيرًا﴾على هلاكهم واستئصالهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ لما خوّف المكذبين بمن مضى، وكانوا من شدة عنادهم وفساد

اعتقادهم يستعجلون بالعذاب، ويقولون عجل لنا عذابنا، فقال الله تعالى: للعذاب أجَل، [والله][٨٥٣] لا يؤاخذ الله الناس بنفس الظلم، فإن الإنسان ظلوم جهول، وإنما يؤاخذ بالإصرار، وحصول يأس الناس عن إيمانهم، ووجود الإيمان ممن كتب الله إيمانه، فإذا لم يبق فيهم من يؤمن، يهلك المكذبين، ولو يؤاخذون بنفس الظلم لكانوا كل يوم هلاك. ولو قال قائل: إذا كان يؤاخذ الله الناس بما كسبوا فما بال الدوابّ؟ وذلك لأن خلق الدواب نعمة من نعم الله تعالى، فإذا كفر الناس يزيل الله النعم، والدواب أقرب النعم. ومنها أن إنزال المطر إنعام من الله تعالى في حق العباد، فإذا لم يستحقوا الإنعام قطعت الأمطار عنه، فتموت جميع الخلائق. ويقال: أن ذلك بيان لشدة العذاب وعمومه، فإن بقاء الأشياء بالإنسان، وذلك لأن الإنسان يدبر الأشياء ويصلحها، فتبقى الأشياء، ثم ينتفع بها الإنسان، فيبقى الإنسان. فإذا كان الهلاك عاماً لا يبقى من الإنسان من يعمّر، فلا تبقى الأبنية والزروع، ولا تبقى الحيوانات الأهلية، لأن بقاءها بحفظ الإنسان إياها عن التلف والهلاك، بالسقي والعلف.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ تسلية للمؤمنين، وذلك لأنه تعالى: ﴿مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾، وقال: ﴿لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[الأنفال:٢٥] فقال: فإذا جاء الهلاك فالله بالعباد بصير، إما أن ينجّيهم، أو يكون تَوفّيهم تقريباً من الله لا تعذيباً "[٨٥٤].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

---

[٨٥٣] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٤٨.

[٨٥٤] *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٤٢-٢٤٩.

"قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ يشير بهذا إلى أن من ستر صفاء القلب، ونور الروح الفطري بظلمات صفات البشرية يعذَّب بنار البعد والقطيعة. ﴿لاَ يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت. ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ بالأرواح والنفوس. ﴿وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا﴾ عذاب البعد والقطيعة. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ بستر نعمتنا بالكفران.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ تستغيث أرواحهم في نار البعد، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ من ظلمات البشرية. ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ تصفية للقلب وتجلية للروح. ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ من متابعة الهوى والطبع، ومخالفة الشرع. يقول لهم منادي العزة: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي لم تبلغوا حدّ البلاغة التي تفتح بها نظر العقل، فينظروا بنظر العقل إلى المصنوعات فيعرفوا صانعها. ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ أي وما جاءكم النذير فيدعوكم إلى الله ويخوفكم منه، فإذا لم تستعملوا العقل ولم تسمعوا قول نذير الظاهر من الأنبياء، وقول نذير الباطن من الإلهامات الربانية، وما رجعتم بالقلوب إلى الحضرة. ﴿فَذُوقُواْ﴾ عذاب نار البعد الذي كنتم معذبين به. ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بصرف الاستعداد لعبودية الحق تعالى في غير موضعه، من عبودية الدنيا، والهوى، والشيطان. ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يغيثه منهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ سماوات القلوب. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أرض النفوس. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عالم بإخلاص المخلصين، وصدق الصادقين، وعالم بنفاق المنافقين، وجحد الجاحدين.

وبقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يُشير إلى أن كل واحد من الأفاضل والأراذل خليفة من خلفائه في أرض الدنيا، فالأفاضل يظهرون جمال صفاته في مرآة خلافتهم

الربانية، وهو سبحانه يتجلى بذاته، وجميع صفاته لمرآة قلوب الصادقين منهم، لتكون مرآة قلوبهم، لجمال صفاته، وجلال ذاته مَظهرة ومُظهرة، والأراذل يظهرون جمال صنائعه، وكمال بدائعه، في مرآة حرفهم، وصنعة أيديهم. ومن خلافتهم أن الله استخلفهم في خلق كثيرٍ من الأشياء كالخبز، فإنه تعالى يخلق الحنطة، والإنسان بخلافته يخبزها. وكالثوب، فإنه تعالى يخلق القطن، والإنسان يغزله، وينسج منه الثوب بالخلافة. وهلمّ جرّا. ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ يعني نعمة الخلافة، بأن يخالف أمر مستخلفه، ولا ينقاد لأحكامه، ويتبع هواه. ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ بالطرد واللعن. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ طردا بالعداوة. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾ أي كفران النعمة. ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ في الطرد والبعد.

وبقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ يشير إلى عجز كل أحد من الخليقة أن يخرجوا من أرض البشرية عملا من أعمالهم. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي في سماوات الروحانية بإخراج عمل من أعمالها. ﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَٰبًا﴾ في الهداية. ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ يسفّه بذلك آراءهم، وينبههم إلى ذميم أقوالهم وأفعالهم، ونقصان عقولهم بإعراضهم عن الله، وإقبالهم على غير الله.

ثم أخبر عن كمال قدرته، وجلال عظمته، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ يشير إلى إمساك سماوات القلوب، وأرض النفوس، أن تزولا عن الخصائص القلبية والنفسية، لأن الإنسان محتاج إلى كلتا الصفتين في السير إلى الله، فإنها له كالقدمين حالة السير، يشير بهما إلى أعلى عليّين مقامات الربّ، ومن ثَمّ كالجناحين يطير

بهما كالفراشة إلى قاب قوسين. وبقوله: ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يشير إلى كل واحد إلى القلب والنفس، إن أراد أن ينفر من خاصيته ليس لأحد إمساكها إلا بالله. ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ يحتمل بحلمه تغيرات أحوال عباده. ﴿غَفُورًا﴾غفور لهم زلّات أقدامهم.

وبقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ يشير إلى أن الإنسان لما كان مركبا من الروح والجسد، فبروحانيّته يميل إلى الدّين وما يتعلق به، وببشريّته يميل إلى الدنيا وما يتعلق بها. الكافر والمؤمن فيه سواء، إلا أن الكافر إذا مال إلى شيء من الدّين بحسب غلبة روحانيته على بشريّته، وعاهد عليه، ثم وقع في معرض الوفاء به، لم توافقه نفسه، لأنها مائلة إلى الكفر راغبة عن الدّين، وظلمة الكفر تحرضه على نقض العهد فينقضه. وإن المؤمن إذا مال إلى شيء من الدنيا، بحسب عليّة بشريته على روحانيته، وعاهد عليه، وهو يريد الوفاء به، يمنعه نور إيمانه عن ذلك، ويحرضه عن نقض العهد فينقضه، وكذلك المريد الصادق إذا اشتدّ عليه الفيض، وملّت نفسه عن مقاساة شدة الرياضة والمجاهدة، تمنى نفسه بنوع من الرُّخص وربما عاهد الله عليه، ويؤكد الشيطان فيه عقده ويمينه، فإذا وقع في معرض الوفاء، وأراد أن يفي بعهده، تحرك سلسلة طلبه، فينقضي عهده مع النفس، ويجدد عهد الطلب مع الله، ويتمسك بدوام الذكر، وملازمته، إلى أن يفتح الله بمفتاح الذكر باب قلبه إلى الحضرة، ويزهق بمحي الحق الباطل، فتسود وجوه النفس، وابيضاض وجه القلب بنور الذكر. ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ من حال إلى حال.

وبقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخرها، يشير إلى أن ماخاب له وليّ، وما ربح له عدوّ، ولم ينال الحقيقة بما انعكس قصده، وليرتد عليه كيده، دمر على أعدائه تدميرا، وأوسع لأوليائه فضلا كثيرا.

وبقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ إلى آخرها، يشير إلى أنه ما من إنسان إلا ويصدر منه ما يستوجبه المؤاخذة، ولكن الله بفضله ورحمته ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ يؤاخذ به من يكون عنده أهل المؤاخذة، ويعفو عمّن هو أهل المغفرة"[٨٥٥]، والله أعلم بسرائر الأمور.

---

[٨٥٥] التأويلات النجمية، ٥/١٣٣-١٣٥.

٣.٢ سورة يسٓ

بسم الله الرحمن الرحيم

"بسم الله الذي أنزل الكتاب الحكيم، الرحمـٰن الذي من خشيه بالغيب فله مغفرة وأجر كبير، ثم الرحيم الذي لأوليائه في الجنة سلام قولا من ربّ رحيم. وهذه السورة مكية، وهي ثلاث وثمانون آية، وقيل: اثنتان وثمانون آية. الاختلاف في يـــسٓ أنه آية عند الكوفيين. وكلماتها سبعمائة وخمس وعشرون، وحروفها ألفان وسبعمائة وستة وتسعون. وانتظام أول هذه السورة بآخر تلك السورة بالكلمتين أن آخر تلك السورة باسم من أسماء الله، وأول هذه السورة كذلك. وانتظام السورتين أنهما في محاجّة المشركين المنكرين بَعثَ الرسل في الدنيا، وبَعثَ الموتى في العقبى، وفي ذمّهم ووعيدهم، وفي مدح المؤمنين المقرّين بذلك ومواعيدهم"[٨٥٦]. وعن أبيّ بن كعب – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: "إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يـــسٓ، فمن قرأ يـــسٓ يريد به وجه الله تعالى، غفر الله تعالى له، وأعطي من الأجر كأنما قرأ القرآن اثني عشر مرة، وأيّما مسلم قرئت عنده سورة يـــسٓ حين نزل به ملك الموت، نزلت إليه بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفا يصلون عليه، ويستغفرون له، ويشهدون قبضه، ويشهدون غسله، ويتبعون جنازته، ويصلون عليه، ويشهدون دفنه، وأيّما مريض قرئ عنده يـــسٓ، وهو في سكرات الموت، لا يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان– خازن الجنة – بشربة من شراب الجنة، فيشربها وهو على

---

[٨٥٦] *التيسير في التفسير*، ١٢/٣٣١–٣٣٢.

فراشه، فيقبض ملك الموت روحه وهو ريّان، ويمكث في قبره وهو ريّان، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريّان"[٨٥٧]. وروى الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: "إنّ أهل الجنة لا يقرؤون من القرآن إلا يــس وطه"[٨٥٨]. وقال النبي ﷺ لعليّ – رضي الله عنه –: "يا عليّ أكثر من قراءة يــس، فإن فيها خصالا من البركات، ما قرأها جائع إلا أشبعه الله، وما قرأها خائف إلا أمّنه الله، وما قرأها ملهوف ولا مكروب إلا فرّج الله عنه، وما قرأها ظمآن إلا رُوِي، ولا عريان إلا كُسِي، ولا فقير إلا استغنى، ولا عزب إلا تزوج، ولا مسافر إلا أعين على سفره، ولا مديون إلا قضي عنه دَينه، ولا محبوس إلا أخرج، ولا قرئت عند ميّت قط إلا خفف الله عنه، ولا يجد تلك الساعة من كرب، وما قرأها رجل ضلت له ضالّة إلا ردها عليه ووجدها، ومن قرأها صباحا كان في أمان الله حتى يمسي، ومن قرأها مساء كان في أمان الله حتى يصبح"[٨٥٩]. وقال النبي ﷺ: "من قرأ يــس أمام حاجة قضيت له"[٨٦٠][٨٦١].

---

[٨٥٧] الثعلبي: *الكشف والبيان*،٢٢/٢٣٩. الألباني: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، *سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة*، ١٢/٧٩١-٧٩٢، رقم (٥٨٧٠). الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (ت. ٥٣٨هـ)، *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل*، ٤/٣٢. وهو حديث موضوع.

[٨٥٨] الثعلبي: *الكشف والبيان*،١٧/٤٨٦. الزمخشري: *الكشاف*،٣/١٠٠.

[٨٥٩] السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، جلال الدين (ت. ٩١١هـ)، *جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير»*، تحقيق: مختار إبراهيم الهائج، وآخرون،١٨/٤٦٩، رقم (٢٦٠٨). السيوطي: *اللآلئ المصنوعة*،٢/٣١٢. ابن حجر: *المطالب العالية*،١٥/١٤٥، رقم (٣٦٩٢). الشوكاني: *الفوائد المجموعة*، ص٣١٢. ابن أبي أسامة: أبو محمد الحارث بن محمد بن داهر التميمي البغدادي الخصيب (ت. ٢٨٢هـ)، بغية *الباحث عن زوائد مسند الحارث*، المنتقي: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت. ٨٠٧ هـ)، تحقيق: حسين أحمد صالح الباكري،١/٥٢٦، رقم (٤٦٩).

[٨٦٠] الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد (ت. ٢٥٥هـ)، مسند *الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)*، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، كتاب فضائل القرآن، باب في فضل يس،٤/٢١٥٠، رقم (٣٤٦١)، بلفظ: "مَنْ قَرَأَ يس فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قُضِيَتْ حَوَائِجُهُ".

﴿يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

"قوله تعالى: ﴿يـــس﴾ قيل: هو اسم من أسماء الله تعالى أقسم به. وقيل: هو اسم القرآن. وقيل: هو اسم هذه السورة. قال ابن عباس وابن مسعود والضحاك – رضي الله عنهم – معناه: يا إنسان. وقال الهيثم بن عدي – رضي الله عنه –: هو يا إنسان بلغة طيّ. وقال ابن عباس – رضي الله عنهما – هو بالسريانية. وقيل: معناه: يا سيد المرسلين. وقيل: يا يوم الميثاق، وسين سرُّ الله مع أحبابه.

﴿وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ﴾ قسم بالقرآن الحكيم. وقيل: أي ذو الحكمة. وقيل: أي الحاكم بما فيه من الأحكام.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ خطاب لنبينا محمد ﷺ، وقسم على إرساله إلى الخلق.

---

[١٦٠] التيسير في التفسير، ١٢/٣٣٢.

﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ له وجهان: أحدهما: إنك على صراط مستقيم. والثاني: أنه صفة للمرسلين، أي أنت منهم. ودليل الأول قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[الزخرف:٤٣]. ودليل الثاني قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة:٦-٧].

﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر - رحمهم الله - (تنزيلُ) بالرفع، أي هذا تنزيل، أو هو، وهو مصدر بمعنى مفعول، أي المنزل، العزيز، المنيع، االمنتقم من أهل معصيته، الرحيم بأهل طاعته. وقرأ الباقون بالنصب أي المصدر، أي والقرآن المنزل تنزيلا من العزيز الرحيم.

﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا﴾ أي لتخوّف بالقرآن قوما. ﴿مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ أي لم تنذر آباؤهم، و لم يرسل إليهم رسولا منهم. ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ عن ذلك، يعني عمّا أنذر آباؤهم. فعلى المعنى الأول أن (ما) للنفي. وعلى الثاني بمعنى (الذي).

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لقد تحقق قول الله تعالى على أكثر هؤلاء بموتهم على الكفر، فهم لا يؤمنون. وهو في قومٍ علمَ الله منهم اختيارَ الكفر والإصرار عليه، فشآء منهم ذلك. ويقال: لقد حقّ القول وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[الأعراف:١٨]. ويقال: القول كناية عن العذاب، أي وجب عليهم العذاب. وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني لا يصدّقون بالقرآن.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ يعني جعلنا أيديهم ممسكة عن الخيرات، مجازاة لكفرهم. ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ الغاضّ بصره بعد رفع رأسه. يعني غاضّ الطرف، لا يبصرون يعني موضع أقدامهم. قال قتادة: يعني مغلولين عن كل خير. قال السدّي – رحمه الله –: نزلت في قوم قريش اجتمعوا وكان النبي ﷺ جالسا عند البيت في نفر من أصحابه – رضي الله عنهم ورضوا عنه –، فقالت قريش: انطلقوا فنأخذ محمدا وأصحابه، فنرتقي بهم فوق أبي قيس، فأما محمد فنضرب عنقه، وأما أصحابه فأيّما رجل افتدت عشيرته بدِيَتِهِ خلّينا سبيله، وإلا ضربنا عنقه. فأقبلوا فجعل الله تعالى بين أيديهم سدّا وظلمة، ومن خلفهم سدّا وظلمة، وغلّت أيديهم إلى أعناقهم بغير حديد، فهم مقمحون. وعن عكرمة – رحمه الله – قال: من المشركين من قريش يقول بعضهم لبعض: لو قد رأيت محمدا لفعلت به كذا وكذا. يقول بعضهم: لو قد رأيته لفعلت به كذا كذا، فأتاهم النبي ﷺ وهم في حلقة في المسجد فوقف عليهم، فقرأ عليهم: ﴿يسٓ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ حتى بلغ: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ثم أخذ ترابا فجعل يذريه على رؤوسهم، وما يرفع رجل منهم طرفه، ولا يتكلم بكلمة، ثم جاوز النبي ﷺ فجعلوا ينفضون التراب عن رؤوسهم، وهم يقولون: والله ما أبصرنا، والله ما سمعنا، والله ما عقلنا. وقيل: في أبي جهل، وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى النبي ﷺ يصلي لندمغنّه، فأتاه وهو يصلي فرفع الحجر ليدمغه فيبست يده إلى عنقه، والترق الحجر بيده، فرجع إلى أصحابه فخلّصوا الحجر من يده. وفي رواية: رجل آخر من بني المغيرة ليقتله، فطمس الله على بصره، فلم يرَ النبي ﷺ، فرجع إلى أصحابه فلم يروه حتى نادوه، فذلك قوله:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَٰقِهِمْ﴾ أي نجعل في أعناقهم يوم القيامة ﴿أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ يعني ظلمة. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ يعني ظلمة. ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ يعني بالظلمة. ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ويقال: وجعلنا من بين أيديهم الألطاف فانسدّت عليهم المسالك، فلم يقدروا على النفوذ منها، فأغشينا أي أعميناهم وغطينا أبصارهم فهم لا يبصرون. وهذا من أشد ما يقع به المنع والنفوذ، وقيل: هو مَثَلٌ لتحيّرهم وترددهم في ضلالتهم.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ يعني خوّفتهم. اللفظ لفظ الخبر، والمراد به الخبر، يعني إن خوفتهم. ﴿أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ يعني أو لم تخوفهم فهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني لا يصدقون. وهم قوم علِمَ الله تعالى منهم ذلك. وإنما نزلت الآية في شأن الذين ماتوا على كفرهم، أو قُتِلوا على كفرهم.

﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ يعني تخوّف بالقرآن من قَبِلَ الموعظة، وسمع القرآن. ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ يعني أطاعوه بالغيب. ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ في الدنيا. ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[٨٦٢] في الآخرة. ويقال: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي إنما تنفع بإنذارك من اتبع القرآن. كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾[الحجر:٩]. وقيل: من اتبع تذكيرك ووعظك، وخشي الرحمـٰن بالغيب، قيل: بالعذاب الغيب الذي أخبر به. قال

[٨٦٢] في الأصل (وأجر كبير)، وهو خطأ في كتابة الآية.

قتادة – رحمه الله –: خشي عذاب الله وناره. وقيل: خشي بالقلب الذي هو غيبٌ عن الناس، فبشره يا محمد بمغفرة بأن الله تعالى يغفر له ما سلف في شركه، وأجر كبير أي ثواب خطير في الجنة"[٨٦٣].

[فصل في التفسير بالرأي]

قوله تعالى: ﴿يـــسٓ (١) والقُرآنِ الحَكِيمِ﴾[٨٦٤] "اعلم أن في كل سورة بدأ الله تعالى فيها بحروف التهجي كان في أوائلها الذكر أو الكتاب أو القرآن كما مرّ في سورة العنكبوت، وهي غير خالية عن الحكمة، ولكن علم الإنسان لا يصل إليها بعينها. أما بيان أن فيها ما يدل على الحكمة هو أن الله تعالى ذكر من الحروف نصفها، وهي أربعة عشر حرفا، وهي نصف ثمانية وعشرين حرفا، وهي جميع الحروف التي في لسان العرب، على قولنا الهمزة ألف متحركة. ثم إنه تعالى قسّم الحروف ثلاثة أقسام: تسعة أحرف من الألف إلى الذال، وتسعة أحرف أخر في آخر الحروف من الفاء إلى الياء، وعشرة من الوسط من الراء إلى الغين، وذكر من القسم الأول حرفين هو: الألف، والحاء، وترك سبعة. وترك من القسم الآخر حرفين هما: الفاء، والواو، وذكر سبعة. ولم يترك من القسم الأول من حروف الحلق والصدر إلا واحداً [لم يذكره وهو الخاء، ولم يذكر من القسم الآخر من حروف الشفة إلا واحداً][٨٦٥] لم يتركه وهو الميم، والعشر الأواسط ذكر منها حرفاً، وترك حرفاً، فذكر الراء،

---

[٨٦٣] *التيسير في التفسير*، ١٢/٣٣٤–٣٤١.

[٨٦٤] في الأصل (والقرآن القرآن).

[٨٦٥] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٥٠.

وترك الزاي، وذكر السين، وترك الشين، وذكر الصاد، وترك الضاد، وذكر الطاء، وترك الظاء، وذكر العين، وترك الغين. وليس هذا أمراً يقع اتفاقاً، بل هو ترتيب مقصود، فهو لحكمة. واعلم أن في كَونِ بعض السور مفتتحة بحرف كسورة (نٓ)، و(قٓ)، و(صٓ). وبعضها بحرفين كسورة (حمٓ)، و(يـــسٓ)، و(طسٓ)، و(طه). وبعضها بثلاثة أحرف كسورة (الٓمٓ)، و(طسٓمٓ)، و(الٓر). وبعضها بأربعة كسورتي (الٓمٓر)، و(الٓمٓصٓ). وبعضها بخمسة أحرف كسورتي (حمٓ عسٓقٓ)، و(كٓهيعٓصٓ). وفي تخصيص بعض بالحروف، والبعض بأكثر، إشارة إلى سرٍّ لا يعلم تمامه إلا الله أو مَن أعلمه الله تعالى به. اعلم أن العبادات منها قلبية، ومنها لسانية، ومنها خارجية. وكل واحد قسمان: قسم عقل معناه وحقيقته، وقسم لم يعلم. أما القلبية فالإيمان به واجب سمعاً كالصراط الذي هو أدق من الشعر، وأحدُّ من السيف، ويمر عليه المؤمن كالبرق الخاطف. والميزان الذي توزن به الأعمال التي لا ثقل لها في نظر الناظر، وكيفيات الجنة والنار، ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع. ومنها ما علم كالتوحيد، والنبوة، وقدرة الله، وصدق الرسول. وكذلك في العبادات الخارجية منها ما علم معناه، وما لم يعلم. كمقادير النصب، وعدد الركعات. فكذلك في العبادات اللسانية الذّكْريّة وجب أن يكون ما لا يفهم معناه حتى إذا تكلم به العبد علم منه أنه لا يقصد غير الانقياد لأمر المعبود فإذا قال: (حم، يـــسٓ، الم، طس) علم أنه لا يذكر ذلك لمعنى يفهمه، فهو يتلفظ إقامة لما أمر به.

وقوله: ﴿يـــسٓ﴾ إنه كلام هونداء معناه يا إنسان، وقد مرّ هذا. قُرِئَ (يـــسٓ) بالرفع، على أنه خبر مبتدأ محذوف، وهو قوله تعالى: هذه. كأنه قال: هذه يـــسٓ، وإما

بالضمّ على نداء المفرد. [وقُرِئَ (يـــسَ) إما بالنصب على معنى اتلُ يـــس][٨٦٦]، وإما بالفتح كأينَ وكيفَ[٨٦٧].

وقوله: ﴿وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ﴾ يعني أنه ناطق بالحكمة، فهو كالحيّ المتكلم.

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يقسم عليه.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبرٌ بعد خبر. والمستقيم أقرب الطرق الموصلة إلى المقصد، فإنه يوجّهُ إلى الله تعالى وتولى عن غيره. والمقصد هو الله، والمتوجه إلى المقصد أقرب إليه من المولى عنه، والمتحرف منه، ولا يذهب فَهم أحد إلى أن قوله: إنك منهم على صراط مستقيم، مميز له عن غيره، كما يقال: إن محمداً من الناس مجتبى، لأن جميع المرسلين على صراط مستقيم. والمقصود بيان كَوْنِ النبي ﷺ على الصراط المستقيم الذي يكون عليه المرسلون.

وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ووجهُ القراءة قد مرّ في الأول. ووجه الجرّ على أنه بدل من القرآن، كأنه قال: والقرآن الحكيم، تتريل العزيز الرحيم، إنك لمن المرسلين. ووجه آخر في إعرابه: وهو أنه مبتدأ وخبره (لتنذر)، كأنه قال: تتريل العزيزالرحيم للإنذار.

---

[٨٦٦] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٢٥١.

[٨٦٧] ذكر حاجي باشا القراءات الشاذة دون إيضاح لها، فقراءة الرفع وردت عن هارون، عن أبي بكر الهُذَلي، عن الكلبي، وقراءة الفتح عن ابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر الثقفي، وابن أبي عبلة. ابن جني: *المحتسب*،٢/٢٠٣. الكرماني: *شواذ القراءات*،ص٣٩٨. أبو حيان: *البحر المحيط*،٩/٤٨. العكبري: *إعراب القراءات الشواذ*، ٢/٣٥٤.

وقوله: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ ءَابَاؤُهُمْ﴾ قد تقدم تفسيره في قوله: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾[القصص:٤٦]. ويقال معنى قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ﴾ أي ما أنذروا بعد ما ضلوا عن طريق الرسول المتقدم، واليهود والنصارى دخلوا فيه، لأنهم لم ينذروا آباءهم الأدنون بعد ما ضلوا، فهذا دليل على كون النبي ﷺ مبعوثاً إلى الخلق كافة.

وقوله: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ دليل على أن البعثة لا تكون إلا عند الغفلة.

ثم قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لما بيّن أن الإرسال أوالإنزال للإنذار، أشار إلى أن النبي ﷺ ليس عليه الهداية المستلزمة للاهتداء، وإنما عليه الإنذار، وقد لا يؤمن من [المنذَرين][٥٦٨] كثير. ويقال معنى قوله: لقد حقّ القول الذي قاله الله على لسان الرسل من التوحيد وغيره، وبَانَ برهانه، فأكثرهم لا يؤمنون بعد ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ لما بيّن أنهم لا يؤمنون، بيّن أن ذلك من الله فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾. ويقال معناه: أن المراد إنا جعلناهم ممسكين لا ينفقون في سبيل الله كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾[الإسراء:٢٩]، وأشير إلى هذا الوجه في الأول، والوجه الأقوى وأشد مناسبة لما تقدم، وهو أن ذلك كناية عن منع الله إياهم عن الاهتداء. وقوله: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ المقمح هو الرافع رأسه، يعني إذا رفع رأسه فلم يشرب الماء، ولم يطأطئه للشرب. والإيمان كالماء

[٥٦٨] في الأصل (المؤمنين)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٢٥٤.

الزلال الذي به الحياة، وكأنه تعالى قال: إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون لا يضعون الرقاب لأمر الله.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ إشارة إلى أهم لا ينتهجون سبيل الرشاد، فكأنه قال: لا يبصرون الحقّ فينقادون له لمكان السدّ، ولا ينقادون لك فيبصرون الحقّ لمكان الغلّ والإيمان المورث للإيقان، إما باتباع الرسول أولاً، فيلوح له الحقّ ثانياً. وإما بظهور الأمور أولاً، واتباع الرسول ثانياً. وفيه وجه آخر: وهو أن يقال المانع إما أن يكون في النفس، وإما أن يكون خارجاً عنها، ولهم المانعان جميعاً من الإيمان، أما في النفس: فالغلّ، وأما من الخارج: فالسدّ، فلا يقع نظرهم على أنفسهم، فيرون الآيات التي في أنفسهم. كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ﴾[فصلت:٥٣] فيرون الآيات التي في أنفسهم، وذلك لأن المقمح لا يرى نفسه، ولا يقع بصره على يديه، ولا يقع نظره على الآفاق، لأن مَنْ بين السدّين لا يبصرون الآفاق، ولا تبين لهم الآيات التي في الآفاق. وعلى هذا فقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ﴾، ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله في الأنفس والآفاق. ويقال معنى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ فلا يسلكون طريق الاهتداء التي هي نظرية، وجعلنا ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ فلا يرجعون إلى الهداية الجبليّة التي هي فطرية. فقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ إشارة إلى هلاكهم.

وقوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ بحرف الفاء يقتضي أن يكون الإغشاء مرتباً على جعل السدّ. فكأنه تعالى قال: إنا جعلْنا في أعناقهم أغلالا فلا يبصرون أنفسهم

لإقماحهم، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فلا يبصرون ما في الآفاق. وبعد هذا كله: وجعلنا على أبصارهم غشاوة فلا يبصرون شيئاً أصلاً.

ثم بيّن تعالى أن الإنذار لا ينفعهم، بقوله تعالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني أن الإنذار وعدمه سيّان بالنسبة إلى الإيمان منهم، إذ لا وجود له منهم على التقديرين.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أي الإنذار المفيد لا يكون إلا بالنسبة إلى من يتبع الذكر، ويخشى الله. ويقال معناه: إنما تنذر العلماء الذين يخشون ربهم، وهو كقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمٰٓؤُاْ﴾[فاطر:٢٨] وكقوله تعالى: ﴿والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[البقرة:٨٢]. ومعنى قوله: ﴿مَنِ اتَّبَعَ﴾ أي آمن. وقوله: ﴿وَخشِيَ الرَّحْمَـٰنَ﴾ أي عمل صالحا. وهذا الوجه يتأيد بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ لأنا ذكرنا مراراً، أن الغفران جزاء الإيمان، فكل مؤمن مغفور، والأجر الكريم جزاء العمل. وفيه لطيفة: وهي أن الرحمة تورث الاتكال والرجاء، فالعاقل لا ينبغي أن يترك الخشية، فإن كل من كانت نعمته بسبب رحمته أكثر، فالخوف منه أتمّ، مخافة أن يقطع عنه [النعم المتواترة. وتكملة اللطيفة: هي أن من أسماء الله اسمين يختصان به هما:][٨٦٩] الله، والرحمـٰن. كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِادْعُوا الرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[الإسراء:١١٠]. حتى قال بعض

---

[٨٦٩] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٢٥٧.

الأئمة: هما علمان فإذا عرفت هذا فالله اسم ينبيء عن الهيبة، والرحمـٰن ينبيء عن العاطفة. فقال في موضع آخر: ﴿يَرْجُو اللَّهَ﴾ [٨٧٠][الأحزاب:٢١]، وقال ههنا: ﴿وَخشِيَ الرَّحْمَـٰنَ﴾ يعني مع كونه ذا هيبة، لا تقطعوا عنه رجاءكم، ومع كونه ذا رحمة، لا تأمَنوه"[٨٧١].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

"قوله تعالى: ﴿يـس (١) وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يشير إلى سيادة النبي ﷺ، وإلى أنه ما بلغ أحد من المرسلين إلى رتبته في السيادة، وذلك لأنه تعالى أقسم بالقرآن الحكيم أنه لمن المرسلين، على صراط مستقيم، إلى قاب قوسين من القرب أوأدنى. أي بل أدنى من كمال القرب"[٨٧٢]. كما قال ﷺ: "لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل"[٨٧٣]. "فإن لكل نبي مرسل كان يشير إلى مقام معين إلى صراطٍ مستقيم هو صراط الله. كما أن النبي ﷺ أخبر أنه ليلة المعراج رأى في كل سماء بعض الأنبياء، حتى قال: رأيت موسى – عليه السّلام – في السماء السادسة، ورأيت إبراهيم– عليه السّلام – في السماء السابعة. وقد عبر عنهم إلى كمال رتبته ما بلغ أحد من العالمين إليها، وإنما قال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ لأنه منبع كل حكمة، ومعدن كل عظة.

---

[٨٧٠] في الأصل (وارجوا الله)، وهو خطأ في كتابة الآية.

[٨٧١] *مفاتيح الغيب*،٢٦/٢٥٠-٢٥٧.

[٨٧٢] *التأويلات النجمية*،٥/١٣٦.

[٨٧٣] العجلوني: كشف الخفاء،٢/٢٠٤، رقم (٢١٥٩). القاري: *الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة*، ص٢٩٩، رقم (٣٩٢).

وبقوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يشير إلى أن القرآن من عزيز غني، لا يحتاج في تنزيله لعلة، بل هو رحيم اقتضت حكمته تنزيل القرآن، فإنه حبل الله ليعتصم به الطالب، ويصعد إلى سرادقات عزته وعظمته.

وبقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ يُشير إلى أنا خصَّصناك بإنذار قوم ما أُنذِر آباؤهم منذر بعد عيسى – عليه السّلام – وقد حصلوا في أيام الفترة لتنذرهم بهذا القرآن فإنه هادي العباد إلى سبيل الرشاد.

وبقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ يشير إلى القول الذي صدر منه في الأزل لخلق الموجودات. كما قال تعالى:﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[النحل: ٤٠] كن كما أردناه، فحقّ ذلك القول على أكثرهم أنهم لا يؤمنون على وفق إرادتنا.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيۤ أَعْنَاقِهِمْ﴾ بالتقدير في الأزل. ﴿أَغْلاَلاً﴾ من الأحكام الأزلية في صورة الموانع من الإيمان. ﴿فَهِيَ﴾ يعني الموانع. ﴿إِلَىٰ ٱلأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ فيما قدرنا لهم.

﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ من العزة بينهم، ومن الإيمان.﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ إلى الأبد. ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ بظلمة البشرية. ﴿فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ طريق السداد، وسبيل الرشاد.

وبقوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ يشير إلى أن من أحاط بهم سرادقات الشقاوة، وسدّ بين أيديهم وخلفهم سداً أنواع البلاء كيف يؤثر فيهم الإنذار وينجيهم النصح من عذاب النار.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ بالمداومة عليه. ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يعني بنور غيبي يشاهد، وخاصة عاقبة الكفر والعصيان، ويتحقق عنده بشواهد الحقّ كمالية حلاوة الإيمان، ورفعة رتبة العرفان. ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ أنهم استوجبوا. ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ منه خاصة. ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ يناسب كرمه"[٨٧٤].

[فصل في التفسير الصوفي النظري]

"قوله تعالى: ﴿يسٓ﴾ أقسم بالصفتين الدالتين على كمال استعداده كما ذكر في (طه).

﴿وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ﴾ هو كماله التامّ اللائق باستعدادك.

﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ على طريق التوحيد الموصوف بالاستقامة، وذلك أن (يا) إشارة إلى اسمه الواقي، و(سين) إشارة إلى اسمه السلام، أي بالذي وقى سلامة فطرتك السالمة عن النقص في الأزل عن آفات حجب النشأة. ويقال: ﴿وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ﴾ هو كماله الجامع لجميع الكمالات، المشتمل على جميع الحكم.

﴿إِنَّكَ﴾ بسبب هذه الثلاثة ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي القرآن الشامل للحكمة، الذي هو صورة كمال استعدادك، تنزيل بإظهاره مفصلا من مكمن الجمع، من العزيز الغالب الذي غلب على أنانيتك وصفات نشأتك، وقهرها بقوته.

---

[٨٧٤] *التأويلات النجمية*، ٥/١٣٦-١٣٨.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ بلغوا في كمال استعدادهم ما لم يبلغ آباؤهم فما أنذروا بما أنذرتم. ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ عمّا أوتي إليهم من الاستعداد البالغ حدّا لم يبلغه استعداد أحد من الأمم السابقة، كما قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[فاطر:٣٢].

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ في القضاء السابق بأنهم أشقياء. ﴿فَهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ﴾ لأنه إذا قَوِيَتِ الاستعدادات عند ظهورك، قَوِيَ الأشقياء في الشرّ، كما قَوِيَ السعداء في الخير.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلًا﴾ من قيود الطبيعة البدنية، ومحبة الآثار السفلية. ﴿فَهِيَ إِلَىٰ ٱلأَذْقَانِ﴾ تمنع رؤوسهم من التطأطؤ للقبول، فمنعت مفاصلها من تصرفات الرؤوس، فلم يبق لهم تصرف القبول، ولا تأثير للانفعال والميل إلى الركوع، والسجود، والانقياد، والفناء، فإن الكمالات الإنسانية انفعالية لا تحصل إلا بالتذلل والانقهار. ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ ممنوعون عن قبولها بإمالة الرؤوس.

﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من الجهة الإلـٰهية، وجهة القلب. ﴿سَدًّا﴾ من حجاب ظهور النفس، وصفاتها المستولية على القلب، منعهم من النظر إلى فوق، ليستفيدوا العلم والمعرفة، فيشتاقوا إلى لقاء الحقّ عند رؤية الأنوار الجمالية. ﴿ومِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من الجهة البدنية. ﴿سَدًّا﴾ من حجاب الطبيعة، ولذّاتها المانعة لامتثالهم الأوامر والنواهي، فمنعهم من العمل الصالح الذي يعدهم لقبول الخير، فانسدّ لهم طريق العلم والعمل، فهم واقفون مع أصحاب الأبدان حيارى. ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ بالانغماس في الغواشي الهيولانية، والانغمار في الملابس

الجسمانية. ﴿فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ لكثافة الحجب من جميع الجهات، وإحاطتها بهم، وإذا لم يبصروا ولم يتأثروا، والإنذار وعدم الإنذار بالنسبة إليهم سواء.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أي: يؤثّرُ الإنذار في ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ لنوريّة استعداده، وصفاته، فيتأثر به، فيقبل الهداية، بما في استعداده من التوحيد الفطري، والمعرفة الأصلية، فيتذكر ويخشى الرحمــٰن، بتصور عظمته مع غيبته من التجلي، فيتبعه بالسلوك ليحصل ما هو غائب عنه، ويرى ما استضاء بنوره. ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة من ستر ذنوب حجب أفعاله، وصفاته، وذاته. ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ من جنات أفعال الحقّ، وصفاته، وذاته. وهم الأقلّون عددا بالنسبة إلى من قال فيهم: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ الأكثرون قدرا"[٨٧٥]، والله أعلم بسرائر الأمور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ

---

[٨٧٥] ابن عربي، ٢/١٥٨.

مُهْتَدُونَ (٢١) وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (٢٩)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

ثم أخبر عن إنعامه العميم، وأجره الكريم بقوله تعالى: "﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى﴾ يعني نبعثهم في الآخرة. ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ﴾ يعني نحفظ ما عملوا، وما سلفوا من أعمالهم. ويقال: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أي تكتب عليهم الكرام الكاتبين من خير وشر، يعني ما استنّوا من سنة خير أو شر عملوه، واقتدى بهم من بعدهم، فلهم أجورهم، وعليهم مثل أوزارهم من غير أن ينقص منهم شيء"[٨٧٦]. وهذا كما قال النبي – عليه السّلام –: "من سنَّ سُنَّةً..." إلى آخره. "وقال مجاهد: ﴿وَءَاثَرَهُمْ﴾ يعني خُطاهم. وروي عن مسروق أنه قال: ما خطا عبد خطوة إلا كتب له بها حسنة أو سيئة. وعن جابر بن عبد الله أنه قال أن بني سلمة ذكروا للنبي – عليه السّلام – بُعْدَ منازلهم من المسجد، فقال – عليه السّلام –: يا بني سلمة ديارُكم، فإنما تُكتبُ آثارُكم. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ يعني حفظناه وبيّناه. ﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾

---

[٨٧٦] بحر العلوم، ٣/١١٧.

يعني اللوح المحفوظ"[٨٧٧]. "قال ابن عباس – رضي الله عنهما –: كانت الأنصار – رضي الله عنهم – منازلهم بعيدة من المسجد، فأرادوا أن ينتقلوا قريبا من المسجد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ﴾ فقالوا: بل [نمكث][٨٧٨] مكاننا. وقال مغيرة بن شعبة والضحاك – رضي الله عنهما –: نزلت الآية في بني عُذرة، وكانت منازلهم بعيدة من المسجد، وكان يشق عليهم حضورهم الجماعات، فأنزل الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ في الشرك. ﴿وَءَاثَارَهُمْ﴾ ما عملوه في الإسلام.

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَٰبَ الْقَرْيَةِ﴾ أمر نبيّه بإنذار هؤلاء المشركين أن يترل بهم في الدنيا ما نزل بكفار أهل تلك القرية. فقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا﴾ أي صِفْ لهم شبها يمتثلونه في أمرك. وقوله: ﴿أَصْحَٰبَ الْقَرْيَةِ﴾ وهي أنطاكية. ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ رسل الله. وقيل: عيسى – عليه السّلام –.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ أي أرسلنا في الابتداء رسولين. وقال محمد بن إسحاق – رحمه الله –: أحدهما تاروص، والآخر ماروص. وقال وهب: يحي، ويونس. وقال مقاتل: تومَان، وبَالُوس[٨٧٩]. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ يعني قوّيناهما بثالث، وهو شمعون. [فعزَزنا بالتخفيف يعني غلبنا، وبالتشديد: قوّينا. قراءة عاصم، والباقي بالتخفيف][٨٨٠]. وذلك أن

---

[٨٧٧] *بحر العلوم*،٣/١١٧.

[٨٧٨] في الأصل (نكتب)، وصححتها من *التيسير*.

[٨٧٩] مقاتل: *تفسير مقاتل*،٣/٥٧٥.

[٨٨٠] نسب حاجي باشا القراءة لعاصم براوييْه، والصحيح أن قراءتهما مختلفة، فشُعبة قرأ (فعزَزْنا) خفيفة الزاي، بينما قرأ حفص (فعزَّزْنا) مشددة الزاي. ابن مجاهد: *السبعة في القراءات*، ص ٥٣٩. ابن الجزري: *النشر*،٢/٣٥٣.

عيسى – عليه السّلام – بعث رسولين إلى أنطاكية. وإنما كان إرساله بإذن الله تعالى، فأضاف إليه حيث قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ ثم بعث بعد ذلك شمعون. وروي في بعض الروايات أن عيسى – عليه السّلام – أوصى إلى الحواريين أن يتفرقوا في البلدان، ثم رفع عيسى – عليه السّلام –، فكان مجيء الرسل بعد ما رفع عيسى – عليه السّلام –. وروي في بعض الروايات أنه أرسل الرسل، ثم رفع إلى السماء. وكان للرسل من المعجزة ما للأنبياء بدعاء عيسى – عليه السّلام – فلما جاءهم الرسولان الأولان، ودخلا أنطاكية، وجعلا يناديان فيها بالإيمان بالرحمـٰن، يعني يدعوان إلى الإيمان بالله، ويزجران أهلها عن عبادة الشيطان، فأخذهما شُرَط المَلِك، وأتَوْا بهما إلى الملِك، فلما دخلا على الملِك، قالا: إن الأوثان التي تعبدونها ليست بشيء، وإن إلـٰهكم الله الذي خلقكم، وأن من مات منكم صار إلى النار. فغضب الملِك، وجلدهما، وسجنهما، ثم حضر شمعون ودخل أنطاكية، وجاء إلى السجن، وقال للسجان: ائذن لي حتى أدخل السجن، فإني أريد أن أدفع لكل واحد منهم كسرة خبز، فأذن له، فدخل وجعل يعطي لكل واحد منهم كسرة خبز، حتى انتهى إلى صاحبيه، فقال: إني أريد أن آتي الملِك، فأطلب فكاككما، حتى أخلصكما، وإنكما لم تأتيا الأمر من قبل وجهه. ألم تعلما أنكما لا تطاعان إلا بالرفق واللطف، وأن مثلكما مثل امرأة لم تلد زماناً من دهرها ثم ولدت غلاماً، فأسرعت بشأنه، فأطعمته الخبز قبل أوانه، فغص به فمات. فكذلك دعوتكما هذا الملِك قبل أوان الدعاء، فأصابكما البلاء، ثم انطلق شمعون، وتركهما، فقعد عند بيت الأصنام، [حتى إذا دخلوا بيت الأصنام][881]، دخل في صلاتهم، فقام بين يدي تلك الأصنام

[881] سقط من الأصل، وكتبتها من بحر العلوم، ٣/١١٨.

يصلي، ويتضرع، ويسجد لله تعالى، ولا يشكون أنه على ملتهم، وأنه إنما يدعو آلهتهم، ففعل ذلك أياماً، فذكروا ذلك للملك، فدعاه، وكلمه، وقال له: من أين أنت؟ فقال: أنا رجل من بني إسرائيل، وقد انقرضوا، وكنت بقيتهم، وجئت إلى أصحابك [آنس بهم][٨٨٢]، وأسكن فيهم، وسأله الملِك عن أشياء، فوجده حسن الرأي والتدبير، فلبث فيهم ما شاء الله، فلما رأى أمره قد استقام، قال: أيها الملِك قد بلغني أنك سجنت رجلين منذ زمان يدعوانك إلى إلــٰـه غير آلهتك، فهل لك أن تدعوهما، فأسمع كلاهما فأخاصمهما عنك؟ قال الملِك: نعم. فدعا بهما، فأقامهما بين يدي الملِك، فقال لهما شمعون: أخبرا عن إلــٰـهكما. فقالا: إنه يبرئ الأكمه والأبرص، فدعا برجل أعمى فدعوا الله، فأبصر الأعمى. قال شمعون: فأنا أفعل مثل ذلك. فأتي بآخر، فدعا شمعون فبرئ، فقال: لا فضل لكما عليّ بهذا. ثم أتي برجل أبرص، فدعوا، فبرئ، وفعل شمعون بآخر مثل ذلك. فقال لهما شمعون: وهل عندكما شيء غير هذا؟ فقالا: نعم، إن ربنا يحيي الموتى. فقال: أنا لا أقدر على ذلك. ثم قال للملك: هل لك أن تأتي إلــٰـهك فلعله يحيي الموتى، فيكون الفضل لك ولإلــٰـهك؟ فقال الملِك: إنك تعلم أنه لا يبصر، ولا يسمع، فكيف يحيي الموتى؟! ثم قال الملِك: سَلْهُما.. هل يستطيعان أن يفعلا مثل ما قالا؟ فسألهما الملِك، فقالا: نعم. فقال الملِك: إن عندنا ميتاً قد مات منذ سبعة أيام، وكان لأبيه ضيعة قد خرج إليها وأهله ينتظرون قدومه، واستأذنوني في دفنه، فأمرتهم أن يؤخروه حتى يحضر أبوه، فَأَمَرَ بإحضار ذلك [الميت][٨٨٣]، فلم يزالا يدعوان الله، وشمعون يُعينهما في

---

[٨٨٢] سقط من الأصل، وكتبتها من بحر العلوم، ٣/١١٨.

[٨٨٣] سقط من الأصل، وكتبتها من بحر العلوم، ٣/١١٩.

نفسه بالدعاء، حتى أحياه الله تعالى. فقال شمعون: أنا أشهد أنهما صادقان وأن إلــٰههما حق. فاجتمع أهل المصر، وقالوا: إن كلمتهم كانت واحدة. فرجموهم بالحجارة، فجاء أبوالغلام، وأخبروه بإحياء ولده، وأسلم، فقتل أبوالغلام أيضاً، وهو حبيب النجار. ثم إن الله تعالى بعث جبريل – عليه السّلام – فصاح صيحة فماتوا كلهم بها، فذلك قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا﴾ يعني هؤلاء الثلاثة ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ وأروهم العلامات.

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ يعني آدميٌّ مثلنا. ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمــٰنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني لم يرسل الرسل من الآدميين. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ بأنكم رسل الله تعالى، أرسلكم عيسى – عليه السّلام – بأمر الله تعالى.، فأنكروا ذلك.

﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ يعني قالت الرسل ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ يعني أرسلنا عيسى – عليه السّلام – بأمر الله تعالى.

﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ يعني ليس علينا من طاعته إلا أن نبلغ رسالته إليكم.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ يعني أهل أنطاكية قالوا: تَشَاءَمْنَا بكم في هذا الذي يصيبنا من شؤمكم، وهو قحط المطر. ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ يعني لنقتلنّكم بالحجارة. ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي غليظ شديد وجيع.

﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ يعني ما تطيّرتم به من المكروه ألزَمَه الله تعالى أعناقكم، وكتب عليكم، فهو جار لكم، ووقع معكم لا من جهتنا. ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ بالله، يعني أئن وعظّتم تهددوننا بالرّجم والتعذيب. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ يعني مشركين، ويقال: ليس لكم التطيّر

لعلمكم بأنّا صادقون، ولكنّكم قوم أسرفتم على أنفسكم في ارتكاب المعاصي، أي أكثرتم في ذلك، وجاوزتم الحدّ في قلة النّظر في أنفسكم.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ يعني من وسط المدينة، ثبت أن تلك القرية مدينة متباينة الأطراف. ﴿يَسْعَى﴾ يعني يسعى في مشيه، يعني حبيب النجار. وقال بعضهم: كان ابنه مريضا، فبرئ بدعوة الرسل، فصدّقهم، فلما بلغه أن القوم أرادوا قتل الرسل، جاء إليهم ليمنع الناس عن قتلهم. وقال قتادة: كان يعبد الله تعالى، فلما بلغه مجيء الرسل أتاهم. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني دين المرسلين. ثم قال للرسل: هل تسألون على هذا أجراً؟ فقالوا: لا. فقال: للقوم ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لاَّ يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا﴾ على الإيمان. ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يعني يدعوكم إلى التوحيد. فقال له قومه: تبرأت عن ديننا، واتبعت دين عدوّنا. ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي خلقني. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني تصيرون إليه بعد الموت. قالوا له: ارجع إلى ديننا. فقال حبيب النجار: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ يعني أصناماً. ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ﴾ يعني ببلاء وشدة. ﴿لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ يعني لا تقدر الآلهة أن يشفعوا لي. ﴿وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ يعني لا يدفعون عني الضرّ. ﴿إِنِّى إِذًا﴾ يعني إني إنْ فعلت ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُبِينٍ﴾ يعني كنت في خسران مبين.

﴿إِنِّى ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ يعني فاشهدوني، وأعينوني بقول لا إلـٰه إلا الله. وقال ابن عباس: أُلقي في البئر وهو الرّسّ، كما قال في آية أخرى: ﴿وَأَصْحَٰبُ الرَّسِّ﴾[ق:١٢]. وقال قتادة: قتلوه بالحجارة، وهو يقول: رَبّ اهْدِ قومي فإنهم لا

يعلمون"[٨٨٤]. وقال مقاتل: "أخذوه وطرحوه تحت أقدامهم، حتى خرجت أمعاؤه، ثم ألقي في البئر، وقتلوا الرسل الثلاثة"[٨٨٥].

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ "وههنا مضمر، أي فقيل، وقيل له: ادخل الجنة. أي لحبيب النجار، فلما ذهب بروح حبيب النجار إلى الجنة. ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾ يعني بالذي غفر لي ربي. ويقال: بمغفرتي. ويقال: بماذا غفر بي ربي، فلو علموا لآمنوا بالرسل، فنصح لهم في حياته وبعد وفاته. ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ يعني بالثواب. ويقال: بالتوحيد.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ﴾ أي من بعد حبيب النجار من جُنْد. ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني من الملائكة. ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ يعني لم نبعث إليهم أحداً.

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يعني ما كانت إلا صيحة جبريل. ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ يعني ميتين لا يتحركون.

وقال الحسن – رحمه الله –: في قوله: ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله تعالى، فهو في الجنة. وقال غيره: قتلوه فلما دفن نقله الله إلى الجنة. وقيل: وطئوه بأقدامهم حتى تلفت تحتها، وباشتغالهم بقتله تخلص الرسل.

---

[٨٨٤] *التيسير في التفسير*، ١٢/٣٤٢-٣٥٢.

[٨٨٥] مقاتل: *تفسير مقاتل*، ٣/٥٧٧.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أي وليس من صفاتي الحاجة إلى ذلك. وقيل: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أي والذي كنا منزلين على من قبلهم من الطوفان، والقذف، والصاعقة.

وقوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي ما كانت العقوبة إلا صيحة واحدة من جبريل – صلوات الله عليه –. ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ يعني خمدت أرواحهم، وسكنت أنفاسهم، كالنّار إذا طفأت من الإيقاد، وصاروا تذكرة لأولي الألباب من العباد، جاوزوا حدّهم في العتوّ، فأصبحوا بصيحة واحدة خامدين، حيث وعظوا فما اتعظوا بمواعظ رسلهم وظنوهم سامدين. وفي قصة شمعون دليل على جواز التمسك بالاحتيال، وخدمة أهل الضلال، لنخرجهم بالتدريج من موبق الغواية إلى مأمن الهداية. وكذا في قصة يوسف – عليه أفضل التحية وأكمل التسليم – حين قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٥]، ففعلوا ورأوا معجزات الأنبياء، فأصرُّوا واستكبروا استكبارا، ومكروا مكرا كُبّارا، وعصوا الله ورسوله مع ما علموا أن الله خير الغافرين، فادخلوا نارا وقودها الناس والحجارة، أعدت للكافرين الذين كفروا فما ظفروا بشيء سوى الخذلان، فولجوا جهنم يطوفون بينها وبين حميم آن، وطغوا وآثروا الحياة الدنيا، فنادوا إلى ما خلقوا بصيحة جبريل – صلوات الله عليه – عادوا وعبروا لأولي الأبصار إلى يوم الدين"[٨٨٦].

[فصل في التفسير بالرأي]

---

[٨٨٦] *التيسير في التفسير*، ١٢/٣٥١–٣٣٢.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ "وفي الترتيب وجوه: أحدها: أنه تعالى لما بيّن الرسالة، وهو أصل من الأصول الثلاثة التي بها يصير المكلّف مؤمنا مسلما، ذكر أصلاً آخر وهو الحشر. وثانيها: وهو أن الله تعالى لما ذكر الإنذار والبشارة بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾[يـس:١١]، و لم يظهر ذلك بكماله في الدنيا فقال: إن لم يرَ في الدنيا، فالله يحيي الموتى، ونحن المنذرين، ويجزي المبشرين. وثالثها: أنه تعالى لما ذكر خشية الرحمـٰن بالغيب ذكر ما يؤكده وهو إحياء الموتى. وقوله:﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ فيه إشارة إلى التوحيد، لأن معنى قوله: إنا نحن، ليس أحد غيرنا يشاركنا في أمر من الأمور، ولا في شيء من الأشياء، فحينئذٍ تصير الأصول الثلاثة مذكورة، وهي: الرسالة، والتوحيد، والحشر.

وقوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ فيه وجوه: أحدها: المراد ما قدموا وأخروا، فاكتفى بذكر أحدهما، كما في قوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[٨٨٧][النحل:٨١]، [والمراد والبرد أيضاً][٨٨٨]. وثانيها: المعنى ما أسلفوا من الأعمال صالحة كانت أو فاسدة. وهو كما قال تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾[البقرة:٩٥]، أي بما قدمت في الوجود على غيره. وثالثها: نكتب نياتهم قبل الأعمال. ﴿وَءَاثَارَهُمْ﴾ أي أعمالهم على هذا الوجه.

وقوله: ﴿وَءَاثَرَهُمْ﴾ فيه وجوه: الأول: آثارهم أقدامهم، وقد مرَّ هذا. والثاني: هي السنن الحسنة، كالكتب المصنفة، والقناطر المبنية، والسنن السيئة كالظلمات المستمرة التي

---

[٨٨٧] في الأصل (سرابيلهم من قطران)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٢٥٨.

[٨٨٨] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٢٥٨.

وضعها ظالم، والكتب المضلة، وآلات الملاهي، وأدوات المناهي المعمولة الباقية"[٨٨٩]. وهو في معنى قوله ﷺ: "من سنّ سُنّة حسنةً فله أجرُها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجر العامل شيء، ومن سنّ سُنّة سيئةً فعليه وزرها ووزر من عمل بها"[٨٩٠]. "فما قدموا هو أفعالهم وآثارهم أفعال الشاكرين فبشرهم حيث يؤاخذون بها ويؤجرون عليها. والثالث: أن الآثار: الأعمال، وما قدموا: النيات قبل الأعمال.

وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يحتمل وجوهاً: أحدها: أن يكون ذلك بياناً لِكَوْنِ ما قدموا وآثارهم وهو أمر مكتوب عليهم لا يبدّل، فإن القلم جفّ بما هو كائن. وثانيها: أن يكون ذلك مؤكداً لمعنى قوله: ﴿وَنَكْتُبُ﴾ لأن من يكتب شيئاً في أوراق ويرميها قد لا يجدها، فكأنه لم يكتب، فقال: نكتب ونحفظ ذلك في إمام مبين، وهذا كقوله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[طه:٥٢]. وثالثها: أن يكون تعميماً بعد التخصيص، كأنه قال تعالى: ونكتب ما قدموا وآثارهم، وليست الكتابة مقتصرة عليه، بل كل شيء محصي في إمام مبين. [وهذا][٨٩١] يفيد أن شيئاً من الأقوال والأفعال لا يعزب عن علم الله ولا يفوته. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزبر (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾[القمر:٥٢-٥٣]، يعني ليس ما في الزبر منحصراً فيما فعلوه، بل كل شيء مكتوب. وقوله: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أبلغ مِن (كَتَبْنَاه)، لأن من كتب شيئاً مفرقاً يحتاج إلى جمع

---

[٨٨٩] *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٥٧.

[٨٩٠] مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشقّ تمرة، أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، ٢/٧٠٤، رقم (١٠١٧).

[٨٩١] في الأصل (وهو كقوله تعالى)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٥٩.

عدده، فقال: هو مُحْصَىً. وقيل: هو اللوح المحفوظ، وقد مرّ. وقوله: ﴿إِمَامٍ﴾ جاء جمعاً في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[الإسراء:٧١]، أي بأئمتهم. و(المبين) هو المظهر للأمور، لكونه مظهراً للملائكة ما يفعلون.

ثم قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَٰبَ الْقَرْيَةِ﴾ وفيه وجهان: الأول: واضرب لأجلهم مثلاً. والثاني: أن يكون المعنى واضرب لأجل نفسك أصحاب القرية لهم مثلاً، أي مثّلهم عند نفسك بأصحاب القرية. وعلى الأول: لما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِيْنَ﴾[يس:٣]، وقال: ﴿لِتُنذِرَ﴾[يس:٦]، قال: قل لهم:﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾[٨٩٢][الأحقاف:٩]، بل قبلي بقليلٍ جاء أصحاب القرية مرسلون، وأنذروهم بما أنذرتكم، وذكروا التوحيد، وخوفوا بالقيامة، وبشروا بنعيم دار الإقامة. وعلى الثاني: لما قال تعالى إن الإنذار لا ينفع من أضلّه الله، وكتب عليه أنه لا يؤمن، قال للنبي ﷺ: فلا تأس واضرب لنفسك ولقومك مثلاً، أي مثل لهم عند نفسك مثلاً حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا وصبر الرسل على القتل والإيذاء، وأنت جئتهم واحداً وقومك أكثر من قوم الثلاثة فإنهم جاؤا قرية وأنت بعثت إلى العالم. وقوله: ﴿أَصْحَٰبَ الْقَرْيَةِ﴾، معناه واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية، فترك المثل وأقيم الأصحاب مقامه في الإعراب.

وقوله: ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾، (إذ) منصوبة، كأنه قال تعالى: واضرب لهم وقت مجيء المرسلين، ومثل ذلك الوقت بوقت مجيئك. وقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ بدل عن ﴿إِذْ

---

[٨٩٢] في الأصل (ما أنا بداع من الرسل)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٢٥٩.

جَاءَهَا﴾، كأنه قال: اضرب لهم مثلاً، إذ أرسلنا إلى أصحاب القرية اثنين. والمرسلون وهم أقرب مرسل أرسل إلى قوم إلى زمان محمد ﷺ، والفعل الواقع فيه. ﴿جاءها﴾ أي جاءها المرسلون حين أرسلناهم إليهم. أي لم يكن مجيئهم من تلقاء أنفسهم، وإنما جاءوهم حيث أمروا. وفيه لطيفة: وهي أن في الحكاية يقال أن الرسل كانوا مبعوثين من جهة عيسى – عليه السّلام – أرسلهم إلى أنطاكية، فقال تعالى: إرسال عيسى – عليه السّلام – هو إرسالنا، ورسول عيسى رسول الله بإذن الله، فلا يقع لك يا محمد أن أولئك كانوا رسل الرسول، [وأنت][٨٩٣] رسول الله فإن تكذيبهم كتكذيبك. فتتم التسلية بقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ وهذا يؤيد مسألة فقهية وهي أن وكيل الوكيل بإذن الموكل وكيل الموكل، لا وكيل الوكيل، حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه، وينعزل إذا عزله الموكل الأول، وهذا على قولنا: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلًا﴾ ضرب المثل لأجل محمد ﷺ ظاهر.

وقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ في بعثة الإثنين حكمة بالغة، وهي أنهما كانا مبعوثين من جهة عيسى – عليه السّلام – بإذن الله، [فكان عليهما إنهاء الأمر إلى عيسى][٨٩٤] والإتيان بما أمر الله، والله عالم بكل شيء لا يحتاج إلى شاهد يشهد عنده، وأما عيسى فهو بَشَرٌ، فأمره الله بإرسال اثنين ليكون قولهما على قومهما عند عيسى حجة تامة.

وقوله: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ مخففا من عزّ إذا غلب، فكأنه قال: فغلبنا نحن وقهرنا بثالث. ثم بيّن الله تعالى ما جرى منهم وعليهم مثل ما جرى من محمد ﷺ، فقالوا: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ

---

[٨٩٣] في الأصل (وأنا)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٢٦٠.

[٨٩٤] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٢٦٠.

مُرْسَلُونَ﴾، كما قال: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[يس:٣]. وبيّن ما قال القوم بقوله: ﴿مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَـٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ جعلوا كونهم بشراً مثلهم دليلاً على عدم الإرسال، وهذا كما قال المشركون في حقّ محمد ﷺ: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾[ص:٨]، وإنما ظنوه دليلاً بناءً على أنهم لم يعتقدوا في الله الاختيار، وإنما قالوا إنه موجب بالذات، وقد استوينا في البشرية فلا يمكن الرجحان، والله تعالى ردَّ عليهم قولهم بقوله: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[الأنعام:١٢٤]، إلى غير ذلك. وقوله: ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَـٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ يكون متمّماً لما ذكروه وهو أنهم قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا، ولا يجوز رجحانكم علينا. ذكروا الشبهة من جهة النظر إلى المرسلين، ثم قالوا شبهة أخرى من جهة المرسل، وهي قولهم ليس بمنزل شيئاً في هذا العالم، فإن تصرفه ليس في العالم العلوي، وللعلويات التصرف في السفليات على مذهبهم، فالله لم ينزل شيئاً من الأشياء في الدنيا فكيف أنزل إليكم؟!. وقوله: ﴿الرَّحْمَـٰنُ﴾ إشارة إلى الرد عليهم، لأن الله لما كان رحمـٰن الدنيا، والإرسال رحمة، فكيف لا ينزل رحمته وهو رحمـٰن؟ فقال إنهم قالوا: ما أنزل الرحمـٰن شيئاً، وكيف لا ينزل الرحمـٰن مع كونه رحمـٰن شيئاً، هو الرحمة الكاملة.ثم قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ أي ما أنتم إلا كاذبين. ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب لم يتركوا، بل أعادوا ذلك لهم، وكرّروا القول عليهم، وأكّدوه باليمين، وقالوا ربُّنا يعلم إنا إليكم لمرسلون، وأكده باللّام، لأن [يعلمُ الله][٨٩٥] يجري مجرى القسم.

[٨٩٥] في الأصل (علم)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٢٦١.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ تسليةً لأنفسهم، أي نحن خرجنا عن عهدة ما علينا. وحثاً لهم على النظر، فإنهم لما قالوا: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ كان ذلك يوجب تفكرهم في أمرهم، حيث لم يطلبوا منهم أجراً، ولا قصدوا رياسة، وإنما كان التبليغ والذكر. و﴿الْمُبِينُ﴾ يحتمل أموراً: أحدها: البلاغ المبين للحق عن الباطل، أي الفارق بالمعجزة والبرهان. وثانيها: البلاغ المظهر لما أرسلنا للكل، أي لا يكفي أن نبلغ الرسالة إلى شخص أو شخصين. وثالثها: البلاغ المظهر للحقّ بكل ما يمكن، فإذا تمَّ ذلك و لم يقبلوا يحقُّ هنالك الهلاك.

ثم كان جوابهم بعد هذا قولهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ وذلك على ما ظهر من الرسل المبالغة في البلاغ، ظهر منهم الغلو في التكذيب. فلما قال المرسلون: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾، قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾. ولما أكد الرسل قولهم باليمين، حيث قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ أكدوا قولهم بالتطيّر بهم، فكأنهم قالوا في الأول كنتم كاذبين، وفي الثاني صرتم مصرين على الكذب، حالفين مقسمين عليه باليمين الكاذبة، فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وقوله: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: من الرجم بالقول، وعلى هذا فقوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ﴾ كأنهم قالوا: ولا نكتفي بالشتم، بل يؤدي إلى الضرب والإيلام الحسّي. وثانيهما: أن يكون المراد بالرجم بالحجارة، وقد تقدم هذا، وحينئذٍ فقوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ﴾ بيان الرجم، يعني ولا يكون الرجم رجماً قليلاً نرجمكم بحجر وحجرين، بل نُديمُ عليكم ذلك إلى الموت وهو عذاب أليم، والأليم بمعنى المؤلم.

ثم أجابهم المرسلون بقولهم: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ وهو الكفر.ثم قالوا: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ جواباً عن قولهم: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ يعني أتفعلون بنا ذلك، وإن ذكرتم أي بُيّنَ لكم الأمر بالمعجز والبرهان؟! ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ حيث تجعلون من نزل به ممّن يتشاءم، وتقصدون إيلام من يجب في حقه الإكرام. و﴿مُّسْرِفُونَ﴾ حيث [تكفرون][٨٩٦] ثم تصرُّون بعد ظهور الحقّ بالمعجز والبرهان، فإن الكافر مسيء فإذا تمّ عليه الدليل، وأوضح له السبيل، ويصر يكون مسرفاً، والمسرف هو المجاوزُ الحدَّ بحيث يبلغ الضدّ، وهم كانوا كذلك في كثير من الأشياء، أما في التبرك والتشاؤم فقد علم، وكذلك في الإيلام والإكرام. وأما في الكفر فلأن الواجب اتباع [الدليل][٨٩٧]، وهم جزموا بالكفر بعد البرهان على الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ وفي فائدته وتعلّقه بما قبله وجهان: أحدهما: أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين، حيث آمن بهم الرجل الساعي، وعلى هذا فقوله: ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ فيه بلاغة باهرة، وذلك لأنه لما جاء من أقصى المدينة رجل وهو قد آمن، دلّ على أن إنذارهم وإظهارهم بلغ إلى أقصى المدينة. وثانيهما: أن ضرب المثل لما كان لمحمد ﷺ تسلية لقلبه، ذكر بعد الفراغ من ذكر الرسل، سعيَ المؤمنين في تصديق رسلهم، وصبرهم على ما أوذوا، ووصول الجزاء الأوفى إليهم، ليكون ذلك تسلية لقلب[أصحاب محمد، كما أن ذكرَ المرسلين تسلية لقلب][٨٩٨] محمد ﷺ. وفي تنكير قوله:

---

[٨٩٦] في الأصل (تكونون)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٢٦٢.

[٨٩٧] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٢٦٢.

[٨٩٨] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٢٦٣.

(رَجُل) تعظيم لشأنه، أي رجل كامل في الرجوليّة. وقوله: ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ وهي تبليغهم الرسالة، بحيث انتهى إلى من في أقصى المدينة، وهي كانت كبيرة، والآن دونَ ذلك. وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ فيه معان لطيفة: الأول: في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ فإنه ينبيء عن إشفاق عليهم، فإن إضافتهم إلى نفسه بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يفيد أنه لا يريد بهم إلا خيراً. الثاني: جمع بين إظهار النصيحة، وإظهار إيمانه، فقوله: ﴿اتَّبِعُوا﴾ نصيحة، وقوله: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ إظهار أنه آمن. الثالث: قدّم إظهار النصيحة على إظهار الإيمان، لأنه كان ساعياً في النصح، وأما الإيمان فقد آمن من قبل. وقوله: ﴿رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ يدل على كونه مريداً للنصح.

ثم إنه تعالى قال: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ وهذا في غاية الحسن، وذلك من حيث إنه قال: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ كأنه منعهم كونهم مرسلين، فنزل درجة وقال لا شك أن الخلق في الدنيا سالكون طريقة وطالبون للاستقامة، والطريق إذا حصل فيه دليل يدل يجب اتباعه، والامتناع عن الاتباع لا يحسن إلا عند أحد أمرين: إما مغالاة الدليل في طلب [الأجرة][٨٩٩]، وإما عدم اعتماد على اهتدائه، لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة، وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحقّ، فَهَبْ أنهم ليسوا بمرسلين هادين، أليسوا بمهتدين؟! فاتّبعوهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ لما قال: ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ بيّن ظهور اهتدائهم بأنهم يدعون من عبادة الجماد إلى عبادة الحيّ القيّوم، ومن عبادة ما لا ينفع إلى

---

[٨٩٩] في الأصل (الآخرة)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٦٣.

عبادة مَنْ مِنهُ كل نفع. وقوله: ﴿وَمَا لِيَ﴾ إشارة إلى المانع، وعند عدم المانع لا يوجد الفعل ما لم يوجد المقتضى، فقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ينبيء عن الاقتضاء، فإن الخالق مالك، والمالك يجب على المملوك إكرامه وتعظيمه، وهو منعم، والمنعم عليه يجب شكر نعمته. وإنما اختار من الآيات فطرة نفسه لأنه لما قال: ﴿وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ﴾ بإسناد العبادة إلى نفسه، وبيان ذلك هو أن خالق عمرويجب على زيد عبادته، لأن من خلق عمراً لا يكون إلا كامل القدرة، شامل العلم، واجب الوجود، وهو مستحق للعبادة بالنسبة إلى كل مكلف، لكن العبادة على زيد بخلق زيد أظهر إيجاباً. واعلم أن المشهور في قوله: ﴿فَطَرَنِى﴾ خلقني اختراعاً وابتداءً، والغريب فيه أن يقال: فطرني أي جعلني على الفطرة، كما قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ التِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[الروم: ٣٠]، وعلى هذا فقوله: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ﴾ لم يوجد فيَّ مانع فأنا باق على ما فطرني ربي، والفطرة كافية في الشهادة والعبادة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي خوفكم منه، ورجاؤكم فيه، فكيف لا تعبدونه؟!.

ثم قال تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ لِيَتِمَّ التوحيد، فإن التوحيد بين التعطيل والإشراك، فقال: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ﴾ إشارة إلى وجود الإلــه. وقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ﴾ إشارة إلى نفي غيره، فيتحقق معنى: لا إلــه إلا الله.

ثم قال: ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ وفي هذه الآيات بيان أن الله تعالى معبود من كل وجه، إن كان نظر إلى جانبه، فهو فاطرٌ، وربٌّ مالك، يستحق العبادة. سواء أحسن بعد ذلك، أو لم يحسن، وإن كان نظر إلى إحسانه، فهو رحمــٰن، وإن كان نظر إلى الخوف، فهو يدفع ضرّه، وغير الله لا يصلح أن يُعبد بوجه من

الوجود، لا يدفع شيئا إلا إذا أراد الله، وإن لم يرد فلا حاجة إلى دفع. واعلم أنه تعالى قال ههنا: ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَـٰنُ﴾، وقال في الزمر: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ﴾[الزمر:٣٨]، فما الحكمة في اختيار صيغة الماضي هناك، واختيار صيغة المضارع هنا؟ وذكر المريد باسم الرحمـٰن هنا، وذكر المريد باسم الله هناك؟ وذلك أن الماضي والمستقبل مع (إن) في الشرط يصير الماضي مستقبلا، لأن المذكور ههنا من قبل بصيغة الاستقبال في قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾، وقوله: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ﴾ والمذكور هناك من قبل بصيغة الماضي في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ [الزمر:٣٨]، وكذلك في قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾[الأنعام:١٧] المتقدم المذكور مذكور بصيغة المستقبل، وهو قوله: ﴿مَن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾[الأنعام:١٦]، وقوله: ﴿إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ﴾[الأنعام:١٥]، والحكمة فيه هو أن الكفار كانوا يخوفون النبي ﷺ بضرٍّ يصيبه من آلهتهم، فكأنه قال صدر منكم التخويف، وههنا ابتداء كلام صدر من المؤمن للتقرير، وأما قوله هناك: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ﴾[الزمر:٣٨]، فالاسمان المختصّان بواجب الوجود هما: الله، والرحمـٰن، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِادْعُواْ الرَّحْمَـٰنَ﴾[الإسراء:١١٠]. والله للهيبة والعظمة، والرحمـٰن للرحمة والرأفة، وهناك وصف الله بالعزة والانتقام في قوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ﴾[الزمر:٣٧]. وذكر ما يدل على العظمة بقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ﴾[العنكبوت:٦١]، فذكر الاسم الدال على العظمة، وقال ههنا ما يدل على الرحمة، بقوله: ﴿الَّذِى فَطَرَنِى﴾[يـس:٢٢]، فإنه نعمة هي شرط سائر النعم، فقال: ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ﴾. قوله: ﴿لَا تُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ على ترتيب ما يقع من العقلاء، وذلك لأن من يريد دفع الضر عن شخص أضرَّ به شخص، يدفع بالوجه الأحسن

فيشفع أولاً، فإن قَبِلَه وإلا يدفع، فقال: ﴿لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ ولا يقدرون على إنقاذي بوجه من الوجوه.

ثم قال تعالى: ﴿إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يعني إن فعلت ذلك فأنا ضالٌّ ضلالاً بيّناً.

ثم قال: ﴿إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ وفي المخاطب بقوله: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ وجوه: أحدها: هم المرسلون، قال المفسرون: أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين. وقال: إني آمنت بربكم فاسمعوا قولي تشهدوا لي. وثانيها: هم الكفار، كأنه لما نصحهم وما نفعهم، قال: فأنا آمنت فاسمعون. وثالثها: بربّكم أيها السامعون فاسمعون على العموم.

ثم قال تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه قُتِل، ثم قيل له: ادخل الجنة بعد القتل. وثانيهما: قيل ادخل الجنة عقيب: ﴿ءامَنتُ﴾[يس:٢٥]. وعلى الأول فقوله: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ يقول بعد موته، والله أخبر. وعلى الثاني ذلك في حياته، وكأنه سمع الرسل أنه من الداخلين الجنة، وصدّقهم، وقطع به، وعلمه، فقال: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ كما علمت، فيؤمنون كما آمنت. ومعنى قوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ كأنه قال: يا ليت قومي يعلمون بمغفرة ربّي. ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ فذكرنا أن الإيمان، والعمل الصالح، يوجبان أمرين هما: الغفران، والإكرام. كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[سبأ:٤]، والرجل كان من المؤمنين الصلحاء، والمُكرَم على ضد المُهَان، والإهانة بالحاجة، والإكرام بالاستغناء، فيغني الله الصالح عن كل أحد، ويدفع جميع حاجاته بنفسه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ إشارة إلى هلاكهم بعده سريعاً على [أسهل][٩٠٠] وجه، فإنه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم. وإنما قال ههنا: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ بإسناد الفعل إلى النفس، وقال في بيان حال المؤمن: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ بإسناد القول إلى غير مذكور، وذلك لأن العذاب من باب الهيبة فقال بلفظ التعظيم. وأما في: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فقال: (قيل) ليكون هو كالمهنأ، حيث يقول له كل ملك وكل صالح يراه: ادخل الجنة خالداً فيها. وكثيراً ما ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ أَدْخِلُواْ﴾ إشارة إلى أن الدخول يكون دخولاً بإكرام، كما يدخل العريس البيت المزين على رؤوس الأشهاد، يهنئه كل أحد.

ثم بيّن الله تعالى ماكان بقوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي إن كانت الواقعة إلا صيحة واحدة. وقوله: ﴿وَاحِدَةً﴾ تأكيد لكون الأمر هيّناً عند الله. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ فيه إشارة إلى سرعة الهلاك، فإن خمودهم كان من الصيحة وفي وقتها لم يتأخر، ووصفهم بالخمود في غاية الحسن"[٩٠١].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

"قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي نحيي قلوباً ماتت بالقسوة بماء يمطر عليها من ضروب الإقبال والزلفة. ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ من الأنفاس المتصاعدة ندماً على ما فرطوا، أو شوقاً إلى لقائنا. ﴿وَءَاثَرَهُمْ﴾ خطأ أقدام صدقهم على بساط التقرب إلينا، وترقرق

---

[٩٠٠] في الأصل (أكثر)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٦٨.

[٩٠١] *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٥٧-٢٦٩.

دموعهم على عرصات خدودهم. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ مما يتقربون به إلينا. ﴿أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ ثبتنا آثاره وأنواره في لوح محفوظ قلوب أحبابنا.

وقوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ إلى قوله:﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ أي أصناف ألطافه كرَّة بعد مرَّة، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ رسولين من الخواطر الرحمانيّة، والإلهامات الربانية، بالتجافي عن دار الغرور، وللإنابة إلى دار الخلود. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ النفس وصفاتها.

﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٞ مِّثْلُنَا﴾ أي ما أنتم إلا الخواطر البشرية. ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ أي من خاطر، ولا إلهام، ولا جذبة. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ بالانتماء إلى الحضرة.

﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (١٧) قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ وذلك أن الإلهام والجذبة يقويان القلب وصفاته، ويمنعان النفس عن استيفاء شهواتها، والتلذذ بلذائذ الدنيا، فلهذا تشاءم النفس وصفاتها بهؤلاء المرسلين.

﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي جاء هذا الشؤم معكم لا من العدم. كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾[الإسراء:١٣] وهو بَعدُ في العدم. ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ علمتم هذا التحقيق وتيقنتم. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٞ مُّسْرِفُونَ﴾ أيتها النفس وصفاتها في موافقة الطبع، ومخالفة الحقّ تعالى.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ يشير إلى صفة الروح المشتاق إلى جمال الحقّ تعالى.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ (٢٠) ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ أي لا يشرب من مشاربكم. ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى الحقّ.

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ يشير به إلى كلام الروح، وذلك لأنه أول خلقٍ فطره الله تعالى بأمر كُنْ لا من شيء. أي كيف بي ألا أعبد من خلقني قبل كل شيء؟ فكنت أعبده في عالم الأرواح قبل خلق الأجسام بألفي ألف عام، و لم يكن لي شريك في العبودية، كما لم يكن له شريك في الألوهية. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وصفاها بقوله:﴿ٱرْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ﴾[الفجر:٢٨] ومن كلام الروح.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ من الدنيا، والهوى، والشيطان.

﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ(٢٣) إِنِّىٓ إِذًا﴾ بعبادة غير ربي، ﴿لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ فأجيبوا لي وآمنوا بربكم. وإنما قال: آمنت بربّكم، وما قال: آمنت بربّي، لعلّهم يقولون: أنت تعبد ربك، ونحن نعبد ربنا، وهو آلهتهم.

وبقوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ يشير إلى أن الروح بالجذبة الإلهية تجذب إلى الحضرة قبل النفس وصفاها، والنفس حين تتشرف بتشريف الجذبة قيل لها أولاً:﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَادِى﴾[الفجر:٢٩] وهي عبارة عن عالم الأرواح، ثم قيل لها:﴿وَٱدْخُلِى

جَنَّتِى﴾[الفجر:٣٠]، ومن كلام الروح ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى﴾ وهم النفس وصفاتها، ﴿يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ ليرغبوا في نعيمها، ولا يرغبوا في الدنيا وشهواتها فإنها جحيمها.

وبقوله:﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يشير إلى أنه بعد رجوع الروح إلى الحضرة، وما أنزل إلى النفس وصفاتها ملائكة من السماء، لأنهم لا يقدرون على إصلاح حالهم، فإن صلاح النفس في موتها، والمميت هو الله. ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ يعني الملائكة في إماتتهم.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ من وارد الحقّ. ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ يعني النّفس وصفاتها. ﴿خَامِدُونَ﴾ ميتون عن أنانيتهم بهويّته.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يمكن أن يؤوّل أصحاب القرية: بأهل مدينة البدن، والرسل الثلاثة: بالروح، والعقل، والقلب. إذ أرسل إليهم اثنان أولًا، ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ لعدم التناسب بينهما، لمخالفتهم إياهما في النور والظلمة، فعززنا بالعقل الذي يوافق النفس في المصالح ويدعوها وقومها إلى ما يدعوإليه القلب والروح. فتشاؤمهم بهم: تنفرهم عنهم، لحملهم إياهم على الرياضة والمجاهدة، ومنعهم عن اللذات والحظوظ. ورجمهم إياهم في قوله: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ رميهم بالدواعي الطبيعية، والمطالب البدنية. وتعذيبهم إياهم: استيلاؤهم عليهم، واستعمالهم في تحصيل الشهوات البهيمية والسبعيّة.

والرجل الذي جاء من أقصى المدينة، أي من أبعد مكان بينهما، هو الحب، أي العشق المنبعث من أعلى وأرفع موضع ومرتبة منهما، بعد تدبير شمعون العقل، ونظره، وهدايته للملك، لإظهار دين التوحيد، والدعوة إلى الحبيب الأول، وتصديق الرسل. ﴿يَسْعَىٰ﴾ لسرعة حركته، ويدعو الكل بالقهر والإجبار إلى متابعة [الرسل][٩٠٢] في التوحيد. ويقول: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وكان اسمه حبيبا، وكان نجارا ينحت في بدايته أصناما، مظاهر الصفات من الصور، لاحتجابه بحسنها عن جمال الذات، وهو المأمور بدخول جنة الذات، قائلا: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي﴾ المحجوبين عن مقامي وحالي، ﴿يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّى﴾ ذنب عبادة أصنام مظاهر الصفات ونحرها. ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ لغاية قربي في الحضرة الأحدية بعد فنائي. وفي الحديث: "إن لكل شيء قلبا، وقلب القرآن يـــس"[٩٠٣]، فلعلّ ذلك لأن حبيباً المشهور بـــ (صاحب يـــسٓ) آمن به قبل بعثته بستمائة سنة. وقال النبي ﷺ: "سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب، وصاحب يـــسٓ، ومؤمن آل فرعون"[٩٠٤][٩٠٥]. والله أعلم بالسرائر.

---

[٩٠٢] سقط من الأصل، وكتبتها من *تفسير ابن عربي*،٢/١٦٠.

[٩٠٣] الترمذي: باب ماجاء في فضل يس، ٥/١٦٢، رقم (٢٨٨٧). وقال: "هذا حديث غريب". وحكم عليه بالوضع الألباني: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، (ت. ١٤٢٠هـــ)، *سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة*، ٣١٢/١، رقم (١٦٩).

[٩٠٤] الثعلبي: *الكشف والبيان*،٢٢/٢٦٨-٢٦٩. الطبراني: *المعجم الكبير*،٩٣/١١، رقم (١١١٥٢) بلفظ: "السبق ثلاثة: فالسابق إلى موسى يوشع بن نون، والسابق إلى عيسى صاحب ياسين، والسابق إلى محمد ﷺ علي بن أبي طالب". الهيثمي: *مجمع الزوائد*،١٠٢/٩، رقم (١٤٥٩٨). السيوطي: *الدر المنثور*،٥٢/٧. الألباني: *سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة*،٥٣٢/١، رقم (٣٥٨).

[٩٠٥] *تفسير ابن عربي*،٢/١٦٠.

﴿يٰحَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (٣٢) وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

ثم أخبر عن حسرة أهل الندامة يوم القيامة بقوله تعالى: ﴿يٰحَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ﴾ "يعني يا ندامة تكون من العباد على أنفسهم، إذا صاروا إلى دار الجزاء، ورأوا ثواب أهل الطاعة، فيقولون: يا حسرتنا على ما فرطت. أو الحسرة هي بلوغ النهاية في التلهف حتى يبقى القلب حسيرا لا موضع فيه لزيادة التلهف كالبصر الحسير الذي لا قوة فيه للنظر، والبصير الحسير الذي لا قوة له على المسير. قيل: هذا قول الرجل الذي جاء من أقصا المدينة يسعى. وقيل: هو قول رسلهم حين رأوا ما نزل بهم. وقيل: هو قول المعذبين حين رأوا نزول العذاب. وقيل: هو ابتداء كلام من الله تعالى. ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ أي ما يأتي العباد رسول. ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي يسخرون.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي كفار قريش. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ على تكذيب الرسل، فاعتبروا بهم. ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قراءة العامة بفتح الألف، لوقوع يروا عليها، أي قد رأوا أن من هلك لا يرجع إلى الدنيا، بل هم يبقون في قبورهم إلى أن يبعثوا فيحاسبوا ويجازوا بأعمالهم. ومن قرأ بالكسر فعلى الابتداء، أي حكمنا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا، وإنما يبعثون يوم القيامة، وكذلك حال هؤلاء. ودلت الآية على بطلان قول القائلين بالتناسخ، والقائلين بالرجعة. وبها استدل ابن عباس – رضي الله عنهما – في ردّ من قال: أن عليّاً – رضي الله عنه – مبعوث والنبأ مردود.

﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ قرئ (لمّا) بالتشديد، وله معنيان: أحدهما: وإنْ كلٌّ، أي وما كلٌّ [لمّا جميع][٩٠٦]، أي إلا جميع، كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[الطارق:٤]، أي ما كلُّ نفس إلا عليها حافظ. والثاني: أنّ (إنْ) الحقيقة للتأكيد، و(لمّا) بمعنى (لمما)، حذفت الميم الأولى تخفيفا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾[الإسراء:١٠٨]، على قول من قال: أن كلمة تأكيد. وقرئ بالتخفيف، وعلى هذا (إنْ) للتأكيد، و(لما) اللام للتأكيد أيضا في جواب (إنْ)، [و(ما) صلة][٩٠٧]، وتقديره: وإن كل الجميع لدينا محضرون، يعني في موقف حسابنا يوم القيامة محضرون للعرض والجزاء.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي ومن العلامات الدالة على كمال قدرتنا على إحياء الموتى، وغير ذلك أنا نحيي بالماء الذي ينزل من

---

[٩٠٦] سقط من الأصل، وكتبتها من التيسير.

[٩٠٧] سقط من الأصل، وكتبتها من التيسير.

السماء إلى الأرض التي قد ماتت فصارت لا نبات لها ولا حركة بها. ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي أخرجنا منها أنواع الحَبّ، يأكلون غذاء لهم.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض. ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أي بساتين. ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ وهما أعلى الثمار، فخصّهما بالذكر لذلك. ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي في الجنات عيون الماء، ليحسّن مناظرهما، وهما النخيل والأعناب، ويبلغ ثمارهما.

﴿لِيَأْكُلُواْ مِنْ ثَمَرِهِ﴾ ليكون لهما ثمار يأكلونها. ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي لم تعمل أيديهم. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وهذا كلمة استبطاء، وحثٌّ على الشكر. ويقال: أفلا يشكرون ربَّ هذه النعم، فيوحّدوه؟ اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به: الأمر، يعني اشكروا ربَّ هذه النعم ووحّدوه.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ يعني تنزيهاً لله عما لا يليق به من قول الكفار. ويقال: تنزيهاً لله الذي خلق الأصناف كلها. ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ يعني ألوانا من النبات والثمار، ففي كل شيء خلق الله تعالى دليل ربوبيّته ووحدانيّته. ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني خلق من جنسهم أصنافا الذكر والأنثى ألوانا مختلفة. ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي وخلق من الخلق مالا يعلمون من أصناف خلقه في البرّ والبحر، وقُعور الأرض، وفي السماوات. وفي ذلك تعريف أنه إذا كان خالق الأصناف كلها من غير أن يشرك فيه غيره، وجب تنزيهه عن الشركاء الذين لا يخلقون كخلقه. ﴿وَءَايَةٌ لَهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي ومن علامات قدرتنا، وعلمنا، ورحمتنا، ما يرونه من مجئ الليل والنهار، يعني نخرج ونميّز منه النهار. ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ يعني داخلون في الظلمة، وروي أن الله تعالى خلق الدنيا مظلمة، ثم خلق الشمس

سراجا، فإذا طلعت الشمس صارت الدنيا مضيئة، وإذا غربت الشمس بقيت الظلمة كماكانت، فذلك قوله: ﴿الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ يعني نترع منه الضوء. ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ يعني يبقون في الظلمة. ويقال: داخلون في الظلمة بمجئ الليل. ودلَّ هذا كان الليل قبل، وأن الظلمة كالأصل، وأن النور دخيل عليه، فإذا انسلخ منه، أي نزع النور من الظلمة، خلصت الظلمة، فكان الليل، وإذا لبست الظلمة النور، كان النهار.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ يعني تسير في منازلها، حتى تنتهي إلى مستقرها، إلى أن لا تجاوزها، ثم ترجع إلى أول منازلها"[٢٠٨]. وروي عن أبي ذرّ الغفاري – رضي الله عنه – قال: كنت مع النبيّ ﷺ عند غروب الشمس، فقال: "يا أَبَا ذَر أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: "فإِنَّهَا تَغْرِبُ، وَتَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، وَتَسْتَأْذِن فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنَ لَهَا، حَتَّى تَسْتَشْفِعَ، وَتَطْلُبَ، فَإذا طَالَ عَلَيْهَا، قيلَ لَهَا: اطلعي مَكَانَكِ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾، قال: مُسْتَقَرُّها تَحْتَ العَرْشِ"[٢٠٩]. "وقيل: استقرارها قطع حركاها بانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ يعني ما ذكر من أمر الليل والنهار، والشمس والقمر، تقدير العزيز بالنقمة، العليم بما قدّره من أمرها، وخلقها. وقيل: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي من تأملَ أحوال مجئ الليل والنهار، ومجاري الشمس، علم ممّا يجد من دلائل الحدوث، وآثار التدبير، أها مقدّرة مدبّرة بمدبّر، قادر، عالم، عزيز، لا يغالب ولا يمنع مما يريد إمضاءه في خليقته.

---

[٢٠٨] التيسير في التفسير، ١٢/٣٥٣-٣٥٨.

[٢٠٩] سبق تخريجه.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ قال مقاتل: يعني قدرنا منازل في السماء، تزيد وتنقص في آخر [السنة]. وقال الكلبي: يعني ينزل كل ليلة في منزل، ويصعد في منزل، حتى ينتهي إلى مستقره الذي لا يجاوزه، ثم يعود إلى أول منازله. ويقال: أن القمر عرضه ثمانون فرسخاً مستديرة، والشمس هكذا. وكان ضوؤهما واحداً، فأخذ تسعة وتسعين جزءاً من القمر، وألحق بالشمس. وروي عن ابن عباس أنه قال: القمر أربعون فرسخاً في أربعين، والشمس ستون في ستين. وقال بعضهم: الشمس والقمر عرض كل واحد منهما مثل الدنيا كلها. ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ يعني صار كالعذق اليابس. والعرجون إذا يبس، دقّ واستقوس، فشُبِّه القمر به. يعني صار في عين الناظر كالعرجون، وإن كان في الحقيقة عظيم في نفسه، إلا أنه في عين الناظر يراه دقيقاً. وقيل: أي يدِقُّ القمر في ليلة ثمان وعشرين حتى يصير كالعرجون المتقادم في الدِّقة والتقوس، العرجون المتقادم الذي إذا تقادم يبس.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ يعني خلقهما الله تعالى على صفة يستحيل إدراك الشمس واجتماعهما ما بقيت الدنيا، فإذا انقضى العالم، وقامت القيامة، جُمِعَ الشمسُ والقمر. وقيل: أي لا يصلح أن تدرك الشمسُ القمرَ فيغلب ضوؤها ضوءه، فتذهب آية الليل، وتصير الأوقات كلها نهارا"[٩١٠].

"﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي فلا يدرك سوادُ الليلِ ضوءَ النهار، فيغلبه على ضوئه. ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يعني يسيرون فيها، جمع بالواو والنون، لأنه وصفها بصفات

---

[٩١٠] التيسير في التفسير، ١٢/٣٥٣-٣٦٠.

العقلاء، يعني وصفها بالسباحة، والسبق، والإدراك. قالوا: والأفلاك مختلفة في السير، تقطع القمر في ثمانية وعشرين يوماً، والشمس تقطع في سنة. ومطالعها ثلاثمائة وستون تتحرك كل يوم في مطلع منها، ثم لا تنزله إلى الحول"[٩١١].

[فصل في التفسير بالرأي]

"قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الألف واللام في ﴿الْعِبَادِ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: للمعهود، وهم الذين أخذتهم الصيحة، فيا حسرة على أولئك. وثانيهما: لتعريف الجنس، جنس الكفار المكذبين.وفي المتحسر وجهان: الأول: لا متحسر أصلاً في الحقيقة، إذ المقصود بيان ذلك وقت طلب الحسرة، حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب.الثاني: أن قائل يا حسرة هو الله تعالى على الاستعارة، [تعظيماً][٩١٢] للأمر وتهويلاً له، وحينئذٍ يكون كالألفاظ التي وردت في حق الله كالسخر، والتعجب، والتمني. أو نقول ليس معنى قولنا: يا حسرة ويا ندامة، أن القائل متحسر أو نادم، بل المعنى أنه مخبر عن وقوع الندامة. ثم بيّن الله تعالى سبب الحسرة بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهذا سبب الندامة، وذلك لأن من جاءه ملك من بادية، ويطلب منه أمراً ونهياً فكذّبه ولم يجبه إلى ما دعاه، ثم وقف بين يديه وهو على سرير ملكه فعرفه أنه ذلك، يكون عنده من الندامة ما لا مزيد عليه، فكذلك الرسل هم ملوك جاؤوا وعرفوا أنفسهم ولم يكن لهم عظمة ظاهرة في الحسّ، ثم يوم القيامة أو عند ظهور البأس ظهرت

---

[٩١١] *بحر العلوم*، ٣/١٢٤.

[٩١٢] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٧٠.

عظمتهم عند الله، وكان ما يدعون إليه أمراً ونهياً نفعه عائد إليهم من عبادة الله، وما كانوا يسألون عنيه أجراً، فعند ذلك تكون الندامة الشديدة، وكيف لم يقنعوا بالإعراض حتى آذوا، واستهزأوا، واستخفوا، واستهانوا. والضمير في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ﴾ يجوز أن يكون عائداً إلى قوم (حبيب)، أي ما يأتيهم من رسول من الرسل الثلاثة إلا كانوا به يستهزؤون، ويجوز أن يكون عائداً إلى الكفار المصرِّين.

ثم إن الله تعالى لما بيّن حال الأوّلين قال للحاضرين: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي الباقون، يعني ألا يرون ما جرى على من تقدمهم؟ ويحتمل أن يقال: إن الذين قيل في حقهم: ﴿يَا حَسْرَةً﴾، هم الذين قال في حقهم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾، ومعناه أن كل مهلك تقدّمه قوم كذّبوا وأُهلِكوا إلى قوم نوح وقبله. وقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ بدل في المعنى عن قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، وذلك لأن معنى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ ألم يروا حسرة إهلاكنا، وفيه معنى آخر: ألم يروا المهلكين الكثيرين أنهم إليهم لا يرجعون، حال من أحوال المهلكين، أي هلكوا بحيث لا رجوع لهم. وعلى هذا فقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أهلكوا إهلاكاً لا رجوع لهم إلى من في الدنيا. وثانيهما: وهو أنهم لا يرجعون إليهم. أي الباقون لا يرجعون إلى المهلكين بنسب ولا ولادة، ولا شكّ في أن الإهلاك الذي يكون مع قطع النسل أتمّ.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ﴾ لّما بيّن الإهلاك بيّن أنه ليس من أهلكه تركه، بل بعده جمع، وحساب، وحبس، وعقاب، ولو أن من أُهلِكَ تُرِكَ لكان الموت راحة، وَنِعْمَ ما قال القائل:

وَلَوْ أَنَّا إِذَا مِتْنَا تُرِكنَــــا لَكَانَ المَوْتُ رَاحةَ كُلِّ حَيٍّ

وَلَكِنَّا إِذَا مِتْنَــا بُعِثْنَــا وَنُسْأَلُ بَعْدَهَا عَن كُلِّ شَيْءٍ[٩١٣]

ثم قال: ﴿وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ووجهُ انتظام هذه الآية بما قبلها من وجهين: أحدهما: أنه لما قال: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ﴾ كان ذلك إشارة إلى الحشر، فذكر ما يدل على إمكانه لإنكارهم، واستبعادهم، وإصرارهم، وعنادهم، فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ كذلك نحيي الموتى. وثانيهما: أنه لما ذكر حال المرسلين، وإهلاك المكذبين، وكان شغلهم التوحيد ذكر ما يدل عليه، وبدأ بالأرض لكونها مكانهم لا مفارقة لهم منها عند الحركة والسكون. واعلم أن لكل ما ذكره الله تعالى في هذه الآية إلى آخرها فائدة، أما قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾ فله فائدة بالنسبة إلى بيان إحياء الموتى، وذلك لأنه لما أحيا الأرض وأخرج منها حَبّاً كان ذلك الإحياء تامّاً، لأن الأرض المخضرة التي لا تنبت الزرع ولا تخرج الحَبّ دون ما تنبته في الحياة، كأنه قال تعالى: الذي أحيا الأرض إحياءً كاملاً منبتاً للزرع، كذلك يحيي الموتى إحياءً كاملاً بحيث تدرك الأمور. وأما بالنسبة إلى التوحيد، فلأن فيه تعديد النعم، كأنه يقول آية لهم الأرض فإنها مكانهم ومهدهم الذي فيه تحريكهم وإسكانهم، والأمر الضروري الذي عنده وجودهم وإمكانهم، سواء كانت منبتة أو لم تكن، فهي مكان لهم لا بدَّ لهم منها، فهي نعمة. ثم إحياؤها بحيث تخضرّ نعمة ثانية، فإنها تصير أحسن وأنزه. ثم إخراج الحب منها نعمة ثالثة، فإن قُوْتَهم يصير

---

[٩١٣] علي بن أبي طالب: *ديوان أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب*، تحقيق: عبد العزيز الكرم، ط (١)، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م، ص ٢٢٠.

في مكانهم، وكان يمكن أن يجعل الله رزقهم في السماء أو في الهواء، فلا يحصل لهم الوثوق. ثم جعل الجنّات فيها نعمة رابعة، لأن الأرض تنبت الحب في كل سنة، وأما الأشجار بحيث يوجد منها الثمار فتكون بعد الحَبّ وجوداً. ثم فجرنا فيها من العيون ليحصل لهم الاعتماد بالحصول. وقوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ كالإشارة إلى الأمر الضروري الذي لا بدَّ منه وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ﴾ كالأمر الذي يحتاج إليه. وقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ إشارة إلى الزينة، فيقول الله عز وجل كما فعلنا في أموات الأرض، كذلك نفعل في الأموات في الأرض، فنحييهم ونعطيهم ما لا بدَّ لهم منه في بقائهم وتكوينهم من الأعضاء المحتاج إليها وقواها، كالعين، والقوة الباصرة، والأذن، والقوة السامعة، وغيرهما، ونزيد لهم ما هو زينة، كالعقل الكامل، والإدراك الشامل، فيكون كأنه قال: نحيي الموتى إحياءً تاماً، كما أحيينا الأرض إحياءً تاماً. وإنما خصص النخيل والأعناب بالذكر من سائر الفواكه، لأن ألذَّ الطعوم الحلاوة، وهي فيهما أتمّ. ولأن التمر والعنب قوت وفاكهة، ولا كذلك غيرهما. ولأنهما أعمّ نفعاً فإنهما تُحمل من البلاد إلى الأماكن البعيدة. ولو قال قائل: قد ذكر الله تعالى الرمّان والزيتون في الأنعام، والزيتون والتين في مواضع. قيل: المقصود ذكر الفواكه والثمار هناك، وههنا ذكر صفات الأرض فاختار منها الألذ الأنفع.

ثم قال تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وإنما أخّرَ التنبيه على الانتفاع بقوله: ﴿لِيَأْكُلُواْ مِنْ ثَمَرِهِ﴾ عن ذكر الثمار. حتى قال: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ وقال في الحَبّ: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ عقيب ذكر الحَبّ، ولم يقل عقيب النخيل والأعناب ليأكلوا، وذلك أن الحَبّ قُوْتٌ وهو يتمّ بمياه الأمطار، وأما الثمار فلا تتمّ إلا

بالأنهار، فلا تصير الأشجار حاملة للثمار إلا بعد وجود الأنهار فلهذا أخّر. ثم لما عدد النعم أشار إلى الشكر بقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وذِكره بلفظ الاستفهام قد تقدّم البحث فيه.

ثم قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ قد ذكرنا أن لفظة (سبحان) علم دالّ على التسبيح،وتقديره: تسبيح الذي خلق الأزواج، ومعنى سبّح: نزّه، ووجه تعلق الآية بما قبلها، هو أنه تعالى لما قال: ﴿أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾ وشكر الله بالعبادة، وهم تركوها، ولم يقتنعوا بالترك بل عبدوا غيره، وأتوا بالشرك، فقال: سبحان الذي خلق الأزواج كلها، وغيره لم يخلق شيئاً.

وفي ذكر قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ تنحصر فيها المخلوقات، فقوله: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ يدخل فيها ما في الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات والثمار. وقوله: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يدخل فيها الدلائل النفسية. وقوله: ﴿وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ يدخل ما في أقطار السماوات، وتخوم الأرضين. ولم يذكر الأنعام والمعادن مع أنهما من خلق الله تعالى، فإنهما تابعان للأرض، لأن حصول الأنعام لا يكون إلا في ظهر الأرض، والمعادن لا تكون إلا فيها. وفي قوله: ﴿وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ معنى لطيف، وهو أنه تعالى إنما ذكر كون الكل مخلوقاً لله تعالى، ليترّه ذاته تعالى عن الشريك، فإن المخلوق لا يصلح شريكاً للخالق، لكن التوحيد الحقيقي لا يحصل إلا بالاعتراف بأن لا إله إلا الله، فقال تعالى اعلموا أن المانع من التشريك فيما تعلمون وما لا تعلمون، لأن الخلق عام، والمانع من الشركة الخلق، فلا تشركوا بالله شيئاً مما تعلمون، فإنكم تعلمون أنه مخلوق، ومما لا تعلمون، فإنه عند الله كله مخلوق لكون كله ممكناً.

ثم قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ اعلم أنه تعالى لما استدلّ بأحوال الأرض، وهي المكان الكلّي، استدل بالليل والنهار، وهو الزمان الكلّي، فإن دلالة المكان والزمان مناسبة، لأن المكان لا تستغني عنه الجواهر، والزمان لا تستغني عنه الأعراض، لأن كل عرض فهو في زمان. ومثله مذكور في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾[فصلت:٣٧]، ثم قال بعده: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ﴾[فصلت:٣٩]، لكن المقصود أولاً هناك إثبات الوحدانية، بدليل قوله تعالى: ﴿لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ﴾[فصلت:٣٧]، ثم الحشر، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾[فصلت:٣٩]، وههنا إثبات الحشر، لأن السورة سورة فيها ذكر الحشر أكثر، وهناك التوحيد أكثر بدليل قوله تعالى فيه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِى خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ﴾[فصلت:٩]. وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي داخلون في الظلام، و(إذا) للمفاجأة.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ يحتمل أن تكون الواو للعطف على الليل، تقديره: وآية لهم الليل نسلخ، والشمس تجري، والقمر قدرناه، فهي كلها آية. وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى﴾ إشارة إلى سبب سلخ النهار، فإنها تجري لمستقر لها، وهو وقت الغروب، فينسلخ النهار. وقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ اللام يحتمل أن تكون للوقت، كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾[الإسراء:٧٨]، وقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[الطلاق:١]. فمعناه تجري الشمس وقت استقرارها، أي كلما استقرت زماناً، أمرنا

بالجري فَجَرَت. ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ يعني إنما هو بإرادة الله تعالى، وتقديره، وتسييره إياها، وتدبيره.

ثم قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ يعني قدرنا سيره منازل. ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ والقديم المتقادم الزمان. قيل: إن ما غبر عليه سنة فهو قديم. والصحيح أنه يثبت بحكم تقادم العهد، ومرور السنين عليه، وإطلاق القديم على العالم لا يعتاد إلا عند من يعتقد أنه لا أول له ولا سابق عليه.

ثم قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ إشارة إلى أن كل شيء من الأشياء المذكورة خلقها على وفق الحكمة، فالشمس لم تكن تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمر، وإلا لكان في شهر واحد صيف وشتاء، فلا تدرك الثمار. وقوله: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يعني إن سلطان الليل وهو القمر، ليس يسبق الشمس وهي سلطان النهار. وفي قوله: الليل والنهار، إشارة إلى الحركة التي بها تتم الدورة في مدة يوم وليلة. وتكون لجميع الكواكب ولا عليها طلوع وغروب في الليل والنهار. وقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يحقق ما ذكرنا أن للكل طلوع وغروب في كل يوم وليلة، لا يسبق بعضها بعضاً، بالنسبة إلى الحركة، ولكلٍّ حركة في فلكٍ تخصه"[914].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

---

[914] *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٦٩-٢٧٩.

قوله تعالى: ﴿يَحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ "يشير بهذا إلى أن للعباد موضع التحسر، وإن لم يتحسروا اليوم، وذلك لانخراطهم كلهم في سلك واحد من التكذيب، ومخالفة الرسل، والاستهزاء بهم، ومنافاة أولياء الله سبحانه. كما غلبت هذه الخصال الرديئة على أهل زماننا هذا، الذين يسمعون القول من المحققين، فيتبعون أقبحه، ويقعون في أولياء الله، ويستهزءون بهم وبكلماتهم المستحسنة،إلا من شاء الله به خيراً من أهل النظر، وأرباب الإرادة، وقليلٌ مّا هُم، فيهددهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني هؤلاء الغفلة الجهلة. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الماضية وما عاملنا قبلهم من الأمم الخالية. ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ وكلهم في قبضة القدرة لم يعننا أحد. ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ و لم يكن لواحد منهم عوناً ولا مدداً. وفيه إشارة أخرى وهي أن الله سبحانه جعل هذه الأمة آخر الأمم، فضلاً منه وكرماً، ليعتبروا هؤلاء بأفاضلهم وأراذلهم، وما جعلهم عبرة لأمة أخرى. وأنه تعالى قد شكا معهم عن كل أمة، وما شكاها إلى أحد من غيرهم شكايتهم.

وبقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ يشير إلى القلب الميت. ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ وهو الطاعة والعبادة. ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ فإنها غذاء الأرواح.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّتٍ مِّن نَّخِيلٍ﴾ نخيل الأذكار، ﴿وَأَعْنَابٍ﴾ من أعناب الأشواق. ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ عيون الحكمة. ﴿لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ﴾ وهي المكاشفات، والمشاهدات، فإن المجاهدات تورث المشاهدات. ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ من المصادقات والخيرات. ﴿أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله الظاهرة والباطنة.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ من الآباء العلوية، والأمهات السفلية، بازدواج الكاف والنون. ﴿مِمَّا تُنبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ أرض البشرية. ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ بازدواج الروح والقالب. ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ من تأثير نظر العناية في قلوب عباده المخلصين، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾ ليل البشرية. ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ نهار الروحانية. ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ بظلمة الخليقة، فإن الله خلق الخلق في ظلمة، ثم رشّ عليه من نوره.

﴿وَٱلشَّمْسُ﴾ أي شمس نور الله. ﴿تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ وهو قلب استقر فيه رشاش نور الله. ذلك المستقر ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يهتدي إليه أحدٌ إلا به. ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ الذي يعلم حيث يجعل رسالته.

وبقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ يشير إلى قمر القلب، فإن القلب كالقمر في استفادة النور من شمس الروح أولاً، ثم من شمس شهود الحقّ تعالى. وله ثمانية وعشرون منزلاً على حسب حروف القرآن، كما أن للقمر ثمانية وعشرون منزلاً فالقلب ينزل كل حين منها بمنزل وهذه أسماؤها: الألفة، والبر، والتوبة، والثبات، والجمعية، والحلم، والخلوص، والديانة، والذلة، والرأفة، والزلفة، والسلامة، والشوق، والصدق، والصبر، والطلب، والظمأ، والعشق، والغيرة، والفتوة، والقربة،والكرم، واللين، والمروءة، والنور، والولاية، والهداية، واليقين. فإذا صار إلى آخر منازله فقد تخلق بخلق القرآن، واعتصم بحبل الله، وله أوانٌ يعتصم بالله، ولهذا قال الله تعالى في قطع منازل العبودية:﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[الحجر:٩٩]. ويقال

للمؤمن في الجنة: (اقرأ وارتقِ) يعني اقرأ وارتقِ مقامات [القرب][٩١٥]. وبقوله: ﴿كَٱلْعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ يشير إلى سير قمر القلب في منازله، فإذا ألف الحقّ تعالى في أول متزل، ثم برّ بالإيمان، والعمل الصالح، ثم تاب وتوجّه إلى الحضرة، ثم ثبت على ذلك التوجه، حصل له الجمعية مع الله، فيستنير قمر قلبه بنور ربه حتى يصير بدراً كاملاً، ثم يتقاصر بدُنوّه من شمس شهود الحق تعالى قليلاً قليلاً كلما ازداد دُنوّه من الشمس ازداد في نفسه نقصاناً، إلى أن [يتلاشى][٩١٦] ويخفى ولا يرى له أثر، وهذا مقام الفقر الحقيقي الذي افتخر به النبي ﷺ في قوله: "الفقر فخري"[٩١٧] لأنه ﷺ كلما ازداد دنوّه إلى الحضرة ليلة المعراج، ازداد في فقره عن الوجود. كما أخبر الله عنه بقوله:﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾[النجم:٨-٩] تحمل ههنا قصره عن الوجود، فوجده الله عائلاً عن وجوده. [فأغناه بجوده. وبقوله: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ يشير إلى أن القمر عند تلاشي وجوده وفقره عن الوجود][٩١٨]، وإن كانت الشمس تغنيه بوجودها، وتنوره بنورها، لا تدرك القمر ليصير القمر. ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ ليكون نهاراً. يعني لا يصير القمر شمساً ولا الشمس قمراً، فقمر القلب يتوجّه إلى شمس شهود الحقّ تعالى يتنور بنورها، ولكنه لا يصير العبد ربّاً، ولا الربّ عبداً. ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ فالربّ تعالى يسبح في فلك الربوبية، والعبد يسبح في

---

[٩١٥] في الأصل (القرآن)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/١٤٤.

[٩١٦] في الأصل (يتلألأ)، وصححتها من *التأويلات النجمية*،٥/١٤٥.

[٩١٧] سبق تخريجه.

[٩١٨] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*،٥/١٤٥.

فلك العبودية، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، من أصحاب الحلول وأرباب الفضول"[٩١٩]. والله أعلم بسرائر الأمور.

﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (٤٤) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

ثم أخبر بعد السير في الفَلَك، عن السير في الفُلْك بقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ "قرأ نافع وابن عامر – رحمهما الله – (ذرياتهم) بالجمع، والباقون (ذريتهم) على الواحدة. أي ومن علامات قدرتنا، ودلائل وحدانيتنا، أنا حملنا ذرية

[٩١٩] *التأويلات النجمية*، ٥/١٤٤-١٤٥.

هؤلاء المشركين من أهل مكة في سفينة نوح المملوءة من الناس، ومما يحتاجون إليه، والفلك مذكّر ههنا وهو واحد، والذرية: الأولاد، وتقديره: ذرية أصلهم آدم – صلوات الله عليه –، وهو كقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾[غافر:٦٧]، أي خلق أصلكم، وهو آدم – صلوات الله عليه –. وقيل: أراد بالذرية الأسلاف، لأنه من الذرّ، وهو الخلق، فيصلح الاسم للأصل والنسل، لأن بعضهم خلق من بعض. وقيل: أي حملنا ذرية هؤلاء مع نوح – صلوات الله عليه – في السفينة، لأن ذرية آدم كلهم كانوا في أصلاب أولئك فكانوا محمولين كلهم.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ من السفن في كل زمان، وهذا عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في رواية، وعنه في رواية ﴿مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ هي الأنعام هذه في البرّ، وتلك في البحر للحمل والتنقل من مكان إلى مكان، وهو كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ﴾[الزخرف:١٢].

﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ في البحر مع السفينة. ﴿فَلا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي فلا مغيث لهم. ﴿وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ أي يخلصون. وقيل: ﴿فَلا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي لا يجدون في البحر صريخا، وإن وجدوا لا يقدر على إنقاذهم. وقيل: فلا صريخ لهم يحفظهم أن يغرقوا، ﴿وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ أي ليس لهم من يخلصهم بعد أن غرقوا.

﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي إلا أن نرحمهم نحن فنخلصهم. ﴿وَمَتاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ ونمتعهم بالبقاء إلى انقضاء أعمارهم. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وجوابه محذوف، وهو: أعرضوا. قال الكلبي – رحمه الله –: وإذا قيل لهؤلاء المشركين اتقوا ما بين أيديكم من الآخرة فاعملوا لها، وما خلفكم من الدنيا فاتقوها، ولا

تغترّوا بها. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ماسلف قبلكم من عقوبات الله للأمم الخالية، أن يترل بكم مثلها. ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من العذاب في الآخرة بعد هلاككم. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي اتقوا الكفر بآيات الله التي نزلت قبلكم، وبآياته التي نزلت خلفكم، وآمنوا بها جميعا. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لتُرحموا.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ وهذا يدلّ على أن المضمر أعرضوا. وقوله تعالى: ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ (من) للتأكيد، ومعناه وما تأتيهم آية"[٩٢٠]. قال مقاتل: "هو انشقاق القمر بمكة نصفين"[٩٢١].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ "يعني أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للمشركين: أعطونا ما زعمتم من أموالكم أنها لله مما ذرأ من الحرث والأنعام، فسألوهم نصيب الله من أموالهم. ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ يعني من لو يشاء الله أعطاه. وهذا استفهام بمعنى الإنكار. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَٰلٍ مُبِينٍ﴾ أي ما أنتم. قيل: هو قول الكفار للمؤمنين، أي إنكم تقولون أن الله قادر على أن يوسع على عبده، فلمَ تتركون مساءلته وتسألوننا؟!. وقيل: هو خطاب الله تعالى للكفار: إن أنتم إلا في ضلال مبين في التكلم بهذا على وجه الاستهزاء بالمؤمنين. ويقال إنهم كانوا يقولون: إنكم قلتم أنفقوا مما رزقكم الله، وإذا كان الله رزقنا فهو قادر على أن يرزقكم، فما معنى التماسكم الرزق منا؟ وهذا جهل منهم، لأن الله تعالى إذا رزق عبدا شيئا، وملكه لم ينقطع عنه ملكه وأوجب فيه

---

[٩٢٠] *التيسير في التفسير*، ١٢/٣٦١-٣٦٤.

[٩٢١] مقاتل: *تفسير مقاتل*، ١/٥٤٩.

حقوقا أمره بأدائها، فليس للعبد أن يمتنع عنها، كالمالك منا إذا أعطى عبده مالاً، ثم أمره بأن ينفق منه في كذا، فليس للعبد أن يقول: أعطيتني فأعطِ فلاناً أيضاً من عندك، ولا تأمرني به، فما هومالي، لأن المالك وإن أولاه فالعبد وما في يده لمولاه. ومن الجهل أيضا أن يقول العبد لا أعطي من لم يعطه الله"[٩٢٢]. روي عن النبي ﷺ أنه قال: "لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم، ولو شاء لجعلكم فقراء لا غنيّ فيكم، ولكنه ابتلى بعضكم ببعض، لينظر كيفَ عطفَ الغنيّ، وكيفَ صبرَ الفقير"[٩٢٣].

"﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ متصل بقوله: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي الساعة. قالوا: متى الساعة التي تعدوننا بها، فقد أتت على آبائنا [الدهور][٩٢٤] الكثيرة فلم تأت؟ فأُجيبوا عن ذلك بقوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحة. ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ أي ترسل عليهم فيهلكهم، وهي النفخة الأولى. ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ الواوللحال، أي في حال اختصامهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو(يَخَصِّمون) بفتح الخاء، وتشديد الصاد. إلا أن أبا عمرو- رحمه الله - يختلس حركة الخاء، وأصله (يختصمون)، فأدغمت التاء في الصاد، ونقلت فتحة التاء إلى الخاء. وقرأ نافع - رحمه الله - (يَخْصّمون) بفتح الياء، وتسكين الخاء، وتشديد الصاد، وجمع بين الساكنين ضرورة الإدغام. وقرأ ابن

---

[٩٢٢] *التيسير في التفسير*، ١٢/٣٦٤-٣٦٥.

[٩٢٣] ابن أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي (ت. ٢٣٥هـ)، *مُصنف ابن أبي شيبة*، تحقيق: محمد عوامة، كتاب الزهد،١٩/٦٦،٦٧، رقم (٣٥٤٧١). البيهقي: شعب *الإيمان*،١٢/٣٨٧، رقم (٩٥٩٩). الطبري: *جامع البيان*،١٩/٢٥٣.

[٩٢٤] سقط من الأصل، وكتبتها من *التيسير*.

عامر، وعاصم، والكسائي – رحمهم الله – (يَخِصِّمون) بفتح الياء، وكسر الخاء، وتشديد الصاد، وتحريكا للساكن إلى الكسرة، لأنها حركة ضرورة. وقرأ حمزة (يَخْصِمون) بفتح الياء، وتسكين الخاء على أصل الفعل الثلاثي، لعدم تاء الافتعال ضرورة، يقول: تأتيهم الساعة وهم يتخاصمون في أمور دنياهم، وأسباب معايشهم في الأسواق وغيرها.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ إلى أهلهم وهو بحضرتهم. ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ يتمكنون من الرجوع إليهم، أي لا يمهلون، بل يهلكون للحال. وقيل: ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ هومن رجع الكلام، أي لا يمكنهم أن يراجعوهم الكلام"[٩٢٥]. روى أبوهريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ أنه قال: "تقوم الساعة والرجل يلوط حوضه، ليسقي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم الساعة، ورجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعان به، فما يطويانه حتى تقوم الساعة، والرجل يرفع أكلته إلى فِيْهِ فما تصل إلى فِيْهِ حتى تقوم الساعة"[٩٢٦].

"وهذه نفخة الصّعق، ثم بعدها نفخة البعث، وهو قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي ينفخ إسرافيل في القرن للبعث. ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ يعني يخرجون من قبورهم أحياء. وكان بين النفختين أربعون عاما، ورُفع العذاب عن الكفار بين النفختين، فكأنهم رقدوا، فلما بعثوا ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ يعني من أيقظنا

---

[٩٢٥] *التيسير في التفسير*، ١٢/٣٦٥-٣٦٦.

[٩٢٦] البخاري: كتاب الرّقاق، باب طلوع الشّمس من مغربها، ٨/١٠٦، رقم (٦٥٠٦). مسلم: كتاب الفتن وأشراط السّاعة، باب قرب السّاعة، ٤/٢٢٧٠، رقم (٢٩٥٤).

من منامنا؟ قالت لهم حفظتُهم من الملائكة: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ على ألسنة الرسل. ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ بأن البعث كائن.

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي ماكانت إعادتهم. وقيل: أي النفخة. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي إلا نفخة واحدة في الصُّور. ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي قد أُحضِروا موقع الحساب بسرعة، لم يتخلف منهم أحد.

﴿فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي لا ينقص من ثواب طاعته، ولا يُحمَل عليه معصية غيره. ﴿وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر"[٩٢٧].

[فصل في التفسير بالرأي]

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ "ولها مناسبة مع ما تقدّم من وجهين: أنه تعالى لما منّ بإحياء الأرض، وهي مكان الحيوانات، بيّن أنه لم يقتصر بل جعل [للإنسان][٩٢٨] طريقاً من البحر يتخذه، ويسير فيه كما يسير في البرّ. ويؤيده بعده قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾. وثانيهما: هو أنه تعالى لما بيّن سباحة الكواكب في الأفلاك، وذكر ما هومثله، وهو سباحة الفلك في البحار. وله وجه ثالث: وهي أن الأمور التي أنعم الله بها على عباده منها ضرورية، ومنها نافعة، والأول للحاجة، والثاني للزينة، فخلق الأرض وإحياؤها من القبيل الأول، فإنها المكان الذي لولاه ما وجد الإنسان،

---

[٩٢٧] *التيسير في التفسير*، ١٢/٣٦٦-٣٦٩.

[٩٢٨] في الأصل (للأبصار)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٨٢.

ولو لم يحييها لما عاش. والليل والنهار في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾ أيضاً من القبيل الأول، لأنه الزمان الذي لولاه لما حدث الإنسان، والشمس والقمر وحركتهما لو لم تكن لما عاش. ثم إنه تعالى لما ذكر من القبيل الأول آيتين، ذكر من القبيل الثاني وهو الزينة آيتين: إحداهما: الفُلْك التي تجري في البحر، فيستخرج من البحر ما يتزين به. كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ﴾[فاطر:١٢]. وثانيهما: الدوابّ التي هي في البرّ كالفُلْك في البحر، في قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾، فإن الدوابّ زينة، كما قال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً﴾[النحل:٨]، وقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[النحل:٦]، فيكون استدلالاً عليهم بالضروري والنافع. وقوله: حَمَلْنَا المراد حملنا أولادكم إلى يوم القيامة في ذلك الفلك، ولولا ذلك لما بقي للآدمي نسل. وعلى هذا فقوله: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إشارة إلى كمال النعمة، أي لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية إلى أعقابكم إلى يوم القيامة. والضمير في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ عائد على العباد، حيث قال: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ فكأنه تعالى قال: وآية للعباد أنا حملنا ذرّيات العباد. وقوله: ﴿فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ يفيد فائدة وهي أن الآدمي يرسب في الماء ويغرق، فحمله في الفلك واقع بقدرته، لكن من الطبيعيين من يقول الخفيف لا يرسب في الماء، لأن الخفيف يطلب جهة فوق، فقال: ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾، ومع هذا حمل الله الإنسان فيه مع ثقله فوق الماء، فإذاً ليس حفظ الثقيل فوق الماء إلا بإرادة الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ فقوله لهم يحتمل أن يكون عائداً إلى الذرية، أي حملنا ذريتهم وخلقنا للمحمولين من ما يركبون. ويحتمل أن يكون عائداً إلى

العباد الذين عاد إليهم قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ وهو الحق، لأن الظاهر عَوْدُ الضمير إلى شيء واحد. والضمير في ﴿مِّثْلِهِ﴾ على قول الأكثرين [عائد][٩٢٩] على قول الأكثرين إلى الفلك الموجود في زمانهم، ويؤيد هذا قوله تعالى:﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾. ويحتمل أن يقال: الضمير عائد إلى معلوم غير مذكور، وتقديره أن يقال: وخلقنا لهم من مثل ما ذكرنا من المخلوقات في قوله: ﴿خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ إشارة إلى فائدتين: إحداهما: أن في حال النعمة ينبغي أن لا يأمَنوا عذاب الله. وثانيهما: أن ذلك جواب سؤال مقدر، وهو أن الطبيعي يقول: السفينة تحمل بمقتضى الطبيعة، والخفيف لا يرسب. فقال: ليس كذلك، بل لو شاء الله أغرقهم، وليس ذلك بمقتضى الطبيعة.

قوله: ﴿فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي لا مغيث لهم يمنع عنهم الغرق. ﴿وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ﴾ إذا أدركهم الغرق، وذلك لأن الخلاص من العذاب، إما أن يكون بدفع العذاب من أصله، أو برفعه بعد وقوعه. فقال: لا صريخ لهم يدفع، ولا هم ينقذون بعد الوقوع فيه. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿لاَّ تُغْنِ عَنِّي شفاعتهم شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونَ﴾. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ وهو يفيد أمرين: أحدهما: انقسام الإنقاذ إلى قسمين: الرحمة، والمتاع. أي فيمن علم الله منه أنه يؤمن فينقذه الله رحمة، وفيمن علم أنه لا يؤمن فليتمتع زماناً ويزداد إثماً. وثانيهما: أنه بيان

---

[٩٢٩] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٨٥.

أن يكون الإنقاذ غير مفيد للدوام، بل الزوال في الدنيا لا بدَّ منه، فينقذه الله رحمة، ويمتعه إلى حين، ثم يميته، فالزوال لازم أن يقع.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ووجهُ تعلق الآية بما قبلها، هو أن الله تعالى لما عدّ الآيات بقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ﴾،﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ﴾، ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[يس:٤١،٣٧،٣٣]، وكانت الآيات تفيد اليقين، وتوجب القطع بما قال تعالى، ولم تفدهم اليقين، قال: فلا أقلَّ من أن يحترزوا عن العذاب، فإن من أخبر بوقوع عذاب يتّقيه، وإن لم يقطع بصدق قول المخبر احتياطاً. فقال تعالى إذا ذكر لهم الدليل القاطع لا يعترفون به، وإذا قيل لهم: اتقوا، لا يتقون. فهم في غاية الجهل، ونهاية الغفلة، لا مثل العلماء الذين يتبعون البرهان، ولا مثل العامة الذين يبنون الأمر على الأحوط. ويدل على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بحرف التمنّي، أي في ظنّكم. وقوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما بين أيديكم من أمر محمد ﷺ، فإنه حاضر عندهم. وما خلفكم من أمر الحشر، فإنكم إذا اتقيتم تكذيب محمد ﷺ، والتكذيب بالحشر، رحمكم الله. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ مع أن الرحمة واجبة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يعني إذا جاءتهم الرسل كذبوهم، فإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها، وما التفتوا إليها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى أمرين: أحدهما: أن البخل به في غاية القبح، فإن أبخل البخلاء من يبخل بمال الغير. وثانيهما: أنه لا ينبغي أن يمنعكم من ذلك مخافة الفقر، فإن الله رزقكم، فإذا أنفقتم فهو يخلفه

ثانياً كما رزقكم أولاً. وفيه إشارة أخرى إلى أمر عجيب، وذلك أن المكلف عليه التعظيم لجانب الله، والشفقة على خلق الله، وهم تركوا التعظيم حيث قيل لهم: ﴿اتَّقُوا﴾ فلم يتقوا، وتركوا الشفقة على خلق الله، حيث قيل لهم: ﴿أَنفِقُواْ﴾ فلم ينفقوا. قوله: ﴿قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾وهو جواب لقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾. واعلم أن الإطعام من الصفات الحميدة وكانوا يفتخرون به، وإنما أرادوا ذلك رداً على المؤمنين، فقالوا: نحن نطعم الضيوف، معتقدين بأن أفعالنا ثناء، ولولا إطعامنا لما اندفع حاجة الضيف، وأنتم تقولون إن إلـٰهكم يرزق من يشاء، فلم تقولون لنا أنفقوا؟ فلما كان غرضهم الرد على المؤمنين لا الامتناع من الإطعام، قال تعالى عنهم: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إشارة إلى الرد. وقوله: ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ إشارة إلى لطيفة، وهي أن المراد بهذا القول الإنكار لقدرة الله، أولعدم وجود الأمر بالاتفاق مع قدرة الله، وكلاهما فاسد، لأن الله تعالى بيّن في قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ على قدرته، وأمره بالإعطاء، لأن من كان له في يد الغير مال، وله في خزائنه مال أكثر منه، فهومخيّر إن أراد أعطى مما في خزائنه، وإن أراد أمر من عنده المال بالإعطاء، ولا يقول من بيده المال في خزائنك مال أكثر مما في يده أعطه منه. وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضَلَلٍ مُّبِينٍ﴾ إشارة إلى اعتقادهم أنهم قطعوا المؤمنين بهذا الكلام، وأن أمرهم بالإنفاق مع قولهم بقدرة الله ظاهر الفساد، واعتقادهم هو الفاسد. ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهو إشارة إلى ما اعتقدوه، وهو أن التقوى المأمور بها في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا﴾[٩٣]، والإنفاق المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ

[٩٣] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٨٩.

لَهُمْ أَنفِقُواْ﴾، لا فائدة فيه، لأن الوعد لا حقيقة له. فلما أنكروا الرسالة والحشر، قالوا: إن كنتم يا أيها المُدَّعُون للرسالة صادقين، فأخبرونا متى يكون؟.

ثم قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي لا ينتظرون إلا الصيحة المعلومة، وهي النفخة الأولى. وقوله: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ مما يعظم به الأمر، لأن الصيحة المعتادة إذا وردت على غافل يرتجف إذا صاح به صائح، يعني يرتجف فؤاده بخلاف المنتظر للصيحة، فإذا كانت الصيحة مع ما ذكرنا من الشدة والقوة، وتَرِدُ على الغافل الذي هومع خصمه مشغول، يكون الإرتجاف أتمّ، والإيجاف أعظم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ هذا بيان شِدَّةِ الأخذ، وهي بحيث لا يمهلهم إلى أن يوصوا. واختار التوصية من بين سائر الكلمات، لأنها أهمّ الكلمات في هذا الوقت، فإن وقت الموت الحاجة إلى التوصية أمسّ. وفي قوله: ﴿وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني يموتون، ولا رجوع لهم إلى الدنيا.

ثم بيّن ما بعد الصيحة الأولى فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ أي نفخ فيه أخرى، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ وقوله: ﴿يَنسِلُونَ﴾ من النّسلان، وهو سرعة الشيء. يعني يسرعون إلى ربهم من غير اختيارهم.

ثم قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ يعني لما بعثوا قالوا ذلك. وقوله: ﴿هَذَا﴾ صفة للمرقد فكيف يصحُّ قوله تعالى: ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ ؟

يكون ما وعد به الرحمن، مبتدأ خبره محذوف، تقديره: ما وعد الرحمن حقّ، والمرسلون صدقوا.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي ما كانت النفخة إلا صيحة، يدل على أنها كانت التَّامَّة، بمعنى ما وقعت إلا صيحة واحدة.

ثم بيّن ما يكون في ذلك اليوم بقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني لا يجزون غير ما كانوا يعملون، بل يجزون بما كانوا يعملون. أو على ما كانوا وقوله: ﴿وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إشارة على وجه المبالغة إلى عدم الزيادة، وذلك لأن الشيء لا يزيد على عينه، فقوله: ﴿وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ﴾ في المساواة كأنه عين ما علموا، وهذا يوجب اليأس العظيم. ويقال: ﴿وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني إن كان حسنة فحسنة، وإن كانت سيئة فسيئة، ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[الشورى:٤٠]. ويقال: المراد بالسيئة الأولى الكفر، وبالثانية الخلود في النار"[٩٣١].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ "يشير إلى حمل عباده في سفينة الشريعة خواصهم في بحر الحقيقة، وعوامهم في بحر الدنيا، فإن من نجا من تلاطم أمواج الهوى في بحر الدنيا، إنما نجا بحمله العناية في سفينة الشريعة، وكذلك من نجا من تلاطم

---

[٩٣١] *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٢٨٢-٢٩٣.

أمواج الشبهات في بحر الحقيقة بحمله عواطف إحسان ربه في سفينة الشريعة، بملاحية أرباب الطريقة.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ وهو جناح من المشايخ الواصلين الكاملين. ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ يعني العوام في بحر الدنيا، والخواص في بحر الحقيقة بكسر سفينة الشريعة، كما ركب كثير من المتمنين بحر الحقيقة بلا سفينة الشريعة، أو كسروا الشريعة أُغرِقوا فأُدخلوا ناراً. ﴿فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾، وهم المشايخ، فإنهم صورة رحمة الحقّ تعالى. ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي حين تدركهم العناية الربانية.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُواْ﴾ احذروا. ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من الدنيا وما فيها من شهواتها ولذائذها. ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من الآخرة وما فيها من نعيمها، وحورها، وقصورها، وأشجارها، وأثمارها، وأنهارها، وما تشتهي الأنفس، وتَلَذ الأعين فيها. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بمشاهدة الجمال، ومكاشفة الجلال، وكمالات الوصال.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وهم الرجال البالغون الكاملون في الدارين من أرباب الحقيقة وأهل اليقين. ﴿إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ هذا صفة المسيئين في أودية الخذلان، ويريحهم من تِيْهِ الحيرة إلا قابلوه بإعراضهم، ونازعوه باعتراضهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الأموال والأهالي في طلب الحقّ تعالى بالتجريد والتفريد. ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بهذا الحدث، ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوآْ أَنُطْعِمُ﴾ من أموالنا. ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ خيراً من أموالنا. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ في طلب الحق

وترك الدنيا، بل هذا قول الرجال البالغين في هؤلاء الذين لعب بهم الشيطان وأضلَّهم عن سبيل الرَّشاد، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، في طلب الدنيا وترك لقاء المولى، ومن غاية ضلالتهم وفرط جهالتهم، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يستعجلون نجوم الساعة ويستبطئون قيام القيامة، [لا عن تصديق يزيحهم عن شكهم، أو خوف يمنعهم عن غيِّهم][٩٣٢]، ولكن تكذيباً لدعوة الرسل، وإنكاراً على أوضح السبل، واستبعاداً للحشر والنشر.

قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ بإنكار الحشر والنشر. ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي توصية بعضهم بعضاً في ترك الخصومة. ﴿وَلاَ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ للاستبصار.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ يشير إلى نفخ إسرافيل المحبَّة في صُوْرِ القلب، فإن السرّ والروح والخفي من أحداث أوصاف البشرية إلى ربهم يرجعون بالسير.

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ أي من رقادنا في الغفلة. ﴿بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ غير فضل الله وكرمه. ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ من كمال رحمته. ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فيما بلغوا من ألطاف الحق.

---

[٩٣٢] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٤٧.

﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يشير إلى جذبة واحدة. ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ بالخروج.

﴿فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ من استحقاقها وما هي مستعدة لقبوله. ﴿وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فمن عمل للدنيا يُجزى من الدنيا، ومن عمل للآخرة يُجزى منها، ومن عمل لله يُجزى عواطف إحسانه، وشواهد سلطانه"[٩٣٣]. والله أعلم بسرائر الأمور.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (٥٦) لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨) وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

ثم أخبر عن أهل الجنان، وأرباب الجنان بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ﴾ "أي الذين وعدهم الله الجنة على الإيمان والطاعة. ﴿فِى شُغُلٍ﴾ أي مما فيه أهل النار من العذاب. ﴿فَاكِهُونَ﴾ أي ناعمون. وقيل: معجبين بما هم فيه من النعم والكرم. ويقال: في شغل مما هم فيه من التغلب في النعيم، والتلذذ بالأحاديث الطيبة، والتعلل بالفواكه الشهية في الأماكن

---

[٩٣٣] *التأويلات النجمية*، ٥/١٤٦-١٤٨.

البهية، ومن زيارة الملائكة مع الكرامات، ومن ملاقاة الأحبّة والقرابات. وقيل: في شغل عن ذكر أهل النار، ولو خطر ذلك ببالهم. وقال بعض أهل المعرفة: أن الله تعالى يلقي في قلوب أوليائه عداوة أعدائه، فيعادي المؤمن كل من يعاديه الله تعالى، وإن كان من نفسه أحب في الدنيا إليه فيفرح برؤيته في النار، ولا يقبل في دار القرار بالمقت عليه، ويدل عليه: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف:٦٧].

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ يعني أن أهل الجنة مع أزواجهم من الحور العين في القصور. ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ يعني السُّرُر عليها الحجال. وروى مجاهد عن ابن عباس قال: الأرائك سرر في الحجال. وقوله: ﴿مُتَّكِؤُنَ﴾ يعني ناعمين. وإنما سمي بهذا لأن الناعم يكون متكئاً. ﴿لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ﴾ يعني لهم في الجنة من أنواع الفاكهة. ﴿وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ﴾ يعني ما يتمنون ويشتهون ما شاؤوا من الخير.

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ يعني يرسل إليهم ربهم بالتحية والسلام. ويقال: ﴿سَلامٌ﴾ أي ولهم سلام، أي تحية. ﴿قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ أي خطابا من الله تعالى بغير واسطة"[٩٣٤]. "وقال الإمام القشيري – رحمه الله –: أصحاب الجنة اليوم في شغل"[٩٣٥]. "قيل: لو علموا عمن شغلوا لما يتهنأوا بما فيه شغلوا. وقيل: هذا خطاب من الله عزّ وجلّ لمن بقي من العصاة في العرصات. يقول الله تعالى: إن أصحاب الجنة اليوم لا يتفرغون لكم لانشغالهم، ولا أهل النار لأهوالهم، فليس لكم إلا نحن.

---

[٩٣٤] التيسير في التفسير، ١٢/٣٦٩–٣٧٠.

[٩٣٥] القشيري: *لطائف الإشارات*، ٣/٢٢١.

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي يقال لهم: تميزوا عن أهل الجنة، فإنهم يجزون على ضد ما أنتم تجزون. ويقال: اعتزلوا اليوم أيها المجرمون من المؤمنين، وذلك أنه إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني اعتزلوا أيها الكفار من المؤمنين، فإنهم قد تأذوا منكم في الدنيا، فاعتزلوهم حتى ينجوا منكم. ويقال: إن المنادي ينادي أيُّها المجرمون امتازوا، فإن المؤمنين قد فازوا. وأيُّها المنافقون امتازوا، فإن المخلصين قد فازوا. وأيُّها الفاسقون امتازوا فإن الصالحين قد فازوا. وأيُّها العاصون امتازوا، فإن المطيعين قد فازوا"[٩٣٦].

"ثم يقول للكفار والمنافقين بعد ما امتازوا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ يعني ألم أبيّن لكم في القرآن؟ ويقال: ألم أوحي لكم؟ ﴿يَٰبَنِي ءَادَمَ﴾ بالكتاب والرسل. ﴿أَنْ لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ قال ابن عباس: من أطاع شيئاً فقد عَبَدَه. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُو مُّبِينٌ﴾ بَيِّنُ العداوة. ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِى﴾ أي أطيعوني، ووحدوني. ﴿هَذَا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[يعني هذا التوحيد طريق مستقيم][٩٣٧]. ويقال:دين الإسلام هو طريق مستقيم لا عوج فيه، وهو طريق الجنة.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جبِلًّا كَثِيرًا﴾ يعني خلقاً كثيراً. ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ ما فعل بمن كان قبلكم، فتعتبروا، ولم تطيعوه، فلما دنوا من النار، قالت الخزنة: ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ

---

[٩٣٦] *التيسير في التفسير*،١٢/٣٧٢.

[٩٣٧] سقط من الأصل، وكتبتها من *بحر العلوم*،٣/١٢٩.

تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا، فلم تصدقوا بها. ﴿ٱصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾ يعني ادخلوها اليوم. ﴿بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ يعني عقوبة لكم بما كفرتم في الدنيا"[٩٣٨].

[فصل في التفسير بالرأي]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ "يحتمل وجوها: أحدها: في شغل عن هول اليوم بأخذ ما آتاهم الله من الثواب، فما عندهم خبر من عذاب ولا حساب. ﴿فَاكِهُونَ﴾أي شغلوا عنه باللذة والسرور، لا بالويل والثبور. وثانيها: أن يكون ذلك بياناً لحالهم. ولا يريد أهم شغلوا عن شيء، بل يكون معناه هم في عمل، ثم بيّن عملهم بأنه ليس بشاق، بل هوملذ محبوب. وثالثها: في شغل عما توقعوه، فإنهم تصوروا في الدنيا أموراً، وقالوا نحن إذا دخلنا الجنة لا نطلب إلا كذا وكذا، فرأوا ما لم يخطر ببالهم فاشتغلوا به. وفيه معنى لطيف، وهو أنه أشار بقوله: ﴿فِى شُغُلٍ﴾ عن عدمهم الألم فلا ألم عندهم، ثم بيّن بقوله: ﴿فَاكِهُونَ﴾ عن وجدانهم اللذة، وعادم الألم قد لا يكون واجداً للذة. فبيّن أنهم على أتمّ حال.

ثم بيّن الكمال بقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ والأزواج يحتمل وجهين: أحدهما: أشكالهم في الإحسان، وأمثالهم في الإيمان. كما قال تعالى: ﴿مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾[ص: ٥٨]. وثانيهما: الأزواج هم المفهومون من زوج المرأة وزوجة الرجل، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾[المعارج:٣٠]. قوله: ﴿فِى

---

[٩٣٨] بحر العلوم،١٢٩/٣.

ظِلَٰلٍ﴾ جمع ظلل، والمراد به الوقاية عن مكان الألم، فإن الجالس تحت كِنٍّ لا يخشى المطر، ولا حرّ الشمس، فيكون به مستعداً لدفع الألم، فكذلك لهم من ظل الله ما يقيهم الأسوء، كما قال: ﴿لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[فاطر:٣٥]، وقال: ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا﴾[الإنسان:١٣] إشارة إلى عدم الآلام.

وقوله: ﴿فِى شُغُلٍ فاكهون﴾ إشارة إلى أنهم ليسوا في تعب. وقال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ إشارة إلى عدم الوحدة الموحشة. وقال تعالى: ﴿فِى ظِلَٰلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ إشارة إلى المكان.

وقال: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ﴾، وبقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ إشارة إلى أن لا جوع هناك، وليس الأكل لدفع ألم الجوع، وإنما مأكولهم فاكهة، ولو كان لحماً طرياً. وبقوله: ﴿وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ﴾ ويطلبون، وطلبه هو أن يكون ما يدعون، بمعنى ما يصح أن يطلب ويدعى، يعني كل ما يصح أن يطلب ويدعى فهو حاصل عندهم قبل الطلب.

وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ هو أكمل الأشياء، وهو آخرها، الذي لا شيء فوقه. وقوله: ﴿سَلَامٌ﴾ مبتدأ، وخبره محذوف، تقديره: سلام عليهم. فيكون ذلك إخباراً من الله تعالى في يومنا هذا، كأنه تعالى حكى لنا وقال: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ﴾، ثم لما بيّن كمال حالهم، قال: سلام عليهم. وبقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ يكون لبيان أن السلام منه، أي سلام عليهم من ربٍّ رحيم. وقوله: قَوْلًا، يحتمل أن يقال على هذا إنه تمييز، لأن السلام قد يكون قولاً، وقد يكون فعلاً. ثم قال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ وفيه وجوه: الأول: امتازوا في أنفسكم وتفرقوا، أي بعضهم من بعض، غير أن تميزهم من الحسرة والندامة. والثاني: امتازوا عن المؤمنين، وذلك لأنهم يكونون مشاهدين لما

يصل إلى المؤمن من الثواب والإكرام، ثم يقال لهم: تفرقوا وادخلوا مساكنكم من النار، فلم يبق لكم اجتماع بهم أبداً. والثالث: امتازوا بعضكم عن بعض، على خلاف ما للمؤمن من الاجتماع بالإخوان الذي أشار إليهم بقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ فأهل النار يكون لهم العذاب الأليم، وعذاب الفرقة أيضاً، ولا عذاب فوق الفرقة، بل العقلاء قالوا بأن كل عذاب فهو بسبب تفرق اتصال، فإن من قطع يده، أوأحرق جسمه، فإنه يتألم بسبب تفرق المتصلات بعضها عن بعض، لكن التفرق الجسمي دون التفرق العقلي. والرابع: امتازوا عن شفعائكم وقرنائكم، فما لكم اليوم حميم ولا شفيع. والخامس: امتازوا اليوم أيها المجرمون، والمجرم هو الذي يأتي الجريمة، ويحتمل أن يقال: إن المراد منه أن الله تعالى يقول: امتازوا، فيظهر عليهم سيماهم يعرفون به، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾[الرحمن:٤١]، وحينئذ يكون قوله تعالى: امتازوا، أمر تكوين، كما أنه يقول: كُنْ فيكون، فيتميزون بسيماهم، ويظهر على جباههم أو في وجوههم سواد.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِي ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَٰنَ﴾ لما ذكر الله تعالى حال المؤمنين والمجرمين، كان لقائل أن يقول: إن الإنسان كان ظلوماً جهولاً، والجهل من الأعذار، فقال الله تعالى ذلك عند عدم الإنذار، وقد سبق إيضاح السبيل بإفصاح الرسل، وعهدنا إليكم وتلونا عليكم ما ينبغي أن تفعلوه وما لا ينبغي. وفي معنى ﴿أَعْهَدْ﴾ وجوه: الأول: أنه هو العهد الذي كان مع أبينا آدم، بقوله: ﴿وَعَهِدْنَا إلى ءَادَمَ﴾[طه: ١١٥]، الثاني: هو الذي كان مع ذرية آدم، بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾[الأعراف:١٧٢]، فإن ذلك يقتضي أن لا نعبد غير الله. الثالث: هو الأقوى، أن ذلك مع كل قوم على لسان رسول

الله ﷺ. قوله: ﴿أَنْ لاَّ تَعْبُدُواْ﴾[٩٣٩] معناه أن لا تطيعوا. ثم إنه تعالى لما نهى عباده عن عبادة الشيطان، ذكر ما يحملهم على قبول ما أمروا به، والانتهاء عما نهوا عنه، بقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وسبب العداوة بين الشيطان والإنسان، أنه تعالى كرّم آدم،ولما رأى إبليس – لعنه الله – تكريم الله آدم فعاداه. وإذا كان الشيطان للإنسان عدواً مبيناً فما بال الإنسان يميل إلى مراضيه من الشرب والزنا، ويكره مساخطه من المجاهدة والعبادة؟ وذلك أن سبب العداوة استعانة الشيطان بأعوان من عند الإنسان، وترك استعانة الإنسان بالله، فيستعين بشهوته التي خلقها الله تعالى فيه لمصالح بقائه وبقاء نوعه، ويجعلها سبباً لفساد حاله، ويدعوه بها إلى مسالك المهالك، وكذلك يستعين بغضبه الذي خلقه الله فيه لدفع الفساد عنه، ويجعله سبباً لوباله وفساد أحواله، وميل الإنسان إلى المعاصي كميل المريض إلى المضار، وذلك حيث ينحرف المزاج عن الاعتدال، وترى المحموم يريد الماء البارد وهو يزيد في مرضه. ومن به فساد المعدة فلا يهضم القليل من الغذاء، يميل إلى الأكل الكثير، وهولا يشبع بشيء وهو يزيد في معدته فساداً، وصحيح المزاج لا يشتهي إلا ما ينفعه فالدنيا كالهواء الذي لا يستغني الإنسان فيه [عن استنشاق الهواء وهو المفسد لمزاجه ولا طريق له غير إصلاح الهواء بالروائح الطيبة والأشياء الزكية والرش بالخل والماورد من جملة المصلحات، فكذلك الإنسان في الدنيا][٩٤٠] لا يستغني عن أمورها وهي المعينات للشيطان، وطريقه ترك الهوى تقليل التأمين وتحريف الهوى

---

[٩٣٩] سقط من الأصل كلمة (أن)، وهو خطأ في كتابة الآية.

[٩٤٠] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٣٠٠.

بالذكر الطيب والزهد، فإذا صح مزاج عقله لا يميل إلا إلى الحقّ، ولا يبقى عليه في التكاليف كلفة ويحصل له مع الأمور الإلـٰـهية ألفة، وهنالك يعرف الشيطان بأنه ليس له عليه سلطان.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ لما منع عبادة الشيطان، حمل على عبادة الرحمن، والشارع طبيب الأرواح، كما أن الطبيب طبيب الأشباح، وكما أن الطبيب يقول للمريض لا تفعل كذا ولا تأكل من ذا، وهي الحمية التي هي رأس الدواء لئلا يزيد مرضه، ثم يقول له تناول الدواء الفلاني تقوية للمريض، كذلك الشارع منع من المفسدة وهو اتباع الشيطان، وحمل على المصالح وهو عبادة الرحمن.

ثم إن الله تعالى ذكر ما يبينه لعداوة الشيطان بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾، وفي الجِبِلّ ست لغات: كسر الجيم والباء مع تشديد اللام، وضمهما مع التشديد، وكسرهما مع التخفيف، وضمهما معه، وتسكين الباء وتخفيف اللام مع ضم الجيم ومع كسره.

الجيم والباء واللام لا تخلو في معنى (الجِبِلّ) لا يخلو عن معنى [الاجتماع][٩٤١]، والجبل فيه اجتماع الأجسام الكثيرة، وجبل الطين فيه اجتماع أجزاء الماء والتراب، وشاةٌ لَجْبَاء: إذا كانت مجتمعة اللبن الكثير.

ثم بيّن مآل أهل الضلال بقوله: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وحال الضالّ كحال شخص خرج من وطنه مخافة عدوه فوقع في مشقة، ولوأقام في مقامه لعل ذلك العدو

---

[٩٤١] في الأصل (الإجماع)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/ ٣٠١.

كان لا يظفر به. كذلك حال من لم يتحرك لطاعة ولا عصيان كالمجانين، وهم من أهل النجاة. وكذلك حال من استعمل عقله فأخطأ الطريق. وقد قيل بأن البلاهة أدنى إلى الخلاص، وذلك ظاهر في المحسوس فإن من لم يعرف الطريق إذا أقام بمكانه لا يبعد عن الطريق كثيراً، ومن سار إلى خلاف المقصد يبعد عنه كثيراً.

ثم بيّن أنهم واصلون إليها، حاصلون فيها، بقوله: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وفي هذا الكلام ما يوجب شدّة ندامتهم وحسرتهم من ثلاثة أوجه: أحدها: قوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ فإنه أمر إهانة، كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[الدخان:٤٩]، والثاني: قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني العذاب حاضر، ولذّاتك قد مضت، وأيامها قد انقضت، وبقي اليوم العذاب. الثالث: قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فإن الكفر والكفران ينبيء عن نعمة كانت فكفر بها، وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام، ولهذا كثيراً ما يقول العبد المجرم: افعلوا بي ما يأمر به السيد، ولا تحضروني بين يديه"[٩٤٢].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ "وفيه إشارات: منها: إنه لما كان الغالب عليهم طلب الجنة والأخذ بمجامع قلبهم أَمْرُها، أضيفوا إليها، قيل لهم: أصحاب الجنة. كما أن من الغالب عليه طلب الدنيا، وهو في أسْرِها أضيف إليها، وقيل له: صاحب الدنيا.

---

[٩٤٢] *مفاتيح الغيب*، ٢٩٤-٣٠٢.

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ﴾ إذ إن مثلكم يستحق بعبادة مثلي، فإني أنا العزيز الغفور، وإني خلقتكم لنفسي، وخلقت المخلوقات لأجلكم، وعززتكم، وأكرمتكم، وكم وصلت لكم القول، ولم تقبلوا نصحي، ولم تتعظوا بوعظي، ولم تعملوا بأمري، وعملتم بأمر الشيطان، وقبلتم إغواءه إياكم.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ﴾ عن صراط مستقيم عبوديتي، وأبعدكم عن جواري وقربتي، ﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ لتعلموا أن الرجوع إلى الحق أولى من التمادي في الباطل، فلا تظلموا أنفسكم وارجعوا إلى ربكم، قبل أن يقول لكم خزنة جهنم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي استعدوا لجهنم الفراق إذ كفرتم بنعمة الوصال، وذوقوا عذاب شديد الكفران إذ رضيتم عن الوصلة بالهجران"[٩٤٣]. والله أعلم بالحقائق.

[فصل في التفسير بالرواية]

"ثم أخبر عن اعتراف الأركان، وختم اللسان، بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، وذلك حين قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، أي يقولون بأفواههم ما لا يمكنهم معه أن يتكلموا بألسنتهم. ﴿وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ﴾ أي تخبر بما امتدّت إليه في المعاصي. ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ بما خطوا به إلى الباطل، وهو قوله: ﴿بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني بما كانوا يعملون من الشرك والمعاصي.

---

[٩٤٣] *التأويلات النجمية*، ٥/١٤٨–١٥١.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ أي في الدنيا. ﴿لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ أي على أعين هؤلاء الكفار، أي لأعميناهم. ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي فبادروا في أول العمى إلى الطريق ليسلكوه إلى منازلهم، أو مقصد آخر فلم يقدروا على ذلك. ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ أي فكيف يبصرون بعد ما أعميناهم؟ كما فعلنا بقوم لوط حين كذبوه وراودوه عن ضيفه. وقال في آية أخرى: ﴿حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ..﴾الآية،[فصلت:٢٠]، وقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ..﴾ الآية،[النور:٢٤]. فكذلك شهادة الألسن في هذه الآية، مع ذكر الختم على الأفواه، وذكروا له وجوها وأوضحها قول الإمام أبي منصور – رحمه الله –: أنهم إذا جحدوا نطق الله الجوارح، فشهدت بها، ثم أنطق الله ألسنتهم حتى يعاتب الجوارح على نطقها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا..﴾ الآية،[فصلت:٢١]، وفيه دليل أن النطق الذي يكون من اللسان لا يكون لأنه لسان، ولكن للطف الذي يجعله الله في اللسان فينطق، فحينما جعل الله تعالى ذلك اللطف نطق. والمعنى في أي جارحة جعل ذلك اللطف نطقت، ولو كان النطق لنفس اللسان، لكان يجب أن ينطق لسان كل ذي لسان، فإذا لم ينطق دلّ أنه للطف الذي جُعل فيه، وكذلك عمل كل جارحة من السماع، والبصر، والذوق، والشمّ، وغير ذلك. اختص كل جارحة بشيء من ذلك اللطف الذي جُعل فيه لذلك.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ أي لبدّلنا خلقتهم، وقلبنا بُنيتهم فصيّرناهم جمادا. ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ أي على مكانهم كالمقام والمقامة. ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ يعني لا يتقدمون ولا يتأخرون. وقال الكلبي: يعني لو نشاء لجعلناهم قردة وخنازير. ﴿فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾ يعني من أطلنا عمره في الدنيا. ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ يعني نردُّه إلى أرذل العمر، فلا يعقل فيه كعقله الأول. ومعناه: من أطلنا عمره، نكسنا خلقه، فصار بدل القوة ضعفاً، وبدل الشباب هرماً. ﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾ يعني أفلا يفهمون أن الله هو يفعل ذلك، فيوحدوه، وليس لمعبود قدرة على ذلك. فمن قدر على رد اللسان في كبره إلى أول حاله، قدر على إعادته بالبعث إلى أول حاله، وقدر على طمس عينه، ومسخ خلقه. ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ يعني أن الذي علمناه محمداً مما يتلوه عليكم ويحاجكم به ليس بشعر كما يقوله بعضكم"[٩٤٤]. "قال مقاتل: نزلت في عقبة بن أبي معيط – لعنه الله – قال: إن ما يقوله محمد شعر. فأنزل الله تعالى هذه الآية، وما ينبغي له أن يقول الشعر، ولو كان شاعراً لدخلت الشبهة على كثير من الناس في أمره"[٩٤٥]. "﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي ما القرآن إلا ذكر، ذكركم الله به. وقيل: شرف لكم لأنه لسانكم. ﴿وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ﴾ أي وكتاب [يقرأ][٩٤٦] ما يحتاجون إليه.

﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي ليخوّف من كان حيّ القلب، أي هو الذي ينتفع به. ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي وليتحقق وعد الله بالعذاب على الكافرين. وسئلت عائشة

---

[٩٤٤] *التيسير في التفسير*، ١٢/٣٧٤–٣٧٧.

[٩٤٥] مقاتل: *تفسير مقاتل*، ٣/٥٨٤.

[٩٤٦] في الأصل (لقرآن مبين)، وصححتها من *التيسير*.

- رضي الله عنها - هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان الشعر أبغض الحديث إليه، و لم يتمثل بشيء من الشعر، إلا ببيت [أخي بني قيس بن طرفة][٩٤٧]:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْت جَاهِلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد[٩٤٨]

فجعل يقول: وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ بِالأَخْبَارِ. فقال أبو بكر: ليس هكذا يا رسول الله. فقال: "إنّي لَسْتُ بِشَاعِرٍ وَلا يَنْبَغِي لِي"[٩٤٩]. وروي عنه أنه كان يتكلم بالشعر، لأنه ذكر أنه قال:

أَنَــا النَّبِــيُّ لا كَــذِب أَنَــا ابْــنُ عَبْــدِ الْمُطَّلِــبْ[٩٥٠]

وذكر أنه عَثَرَ يوماً فدميت أصبعه، فقال:

هَــلْ أَنْتِ إلاَّ إِصْبَــعٌ دَمِــيت [وفِــي كِتَــابِ اللهِ مَا لَقِيــت][٩٥١]

وذكر أنه قال يوم الخندق:

بِسْــمِ اللهِ وَبِــهِ بَــدَأْنَــا وَلَــو عَبَــدْنَــا غَيْــرَهُ شقِينَــا[٩٥٢]

قيل له: هذه كلمات تكلم بها فصار موافقا للشعر، وليس بشعر. وفي القرآن مثل هذه كثير، كقوله تعالى: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾[التوبة:١٤].

---

[٩٤٧] سقط من الأصل، وكتبتها من *بحر العلوم*،٣/١٣٠.

[٩٤٨] أبو عمرو: *ديوان طرفة بن العبد*، ص ٢٩.

[٩٤٩] سبق تخريجه.

[٩٥٠] سبق تخريجه.

[٩٥١] سقط من الأصل، وكتبتها من *بحر العلوم*،٣/١٣١. والحديث سبق تخريجه.

[٩٥٢] سبق تخريجه.

ثم وعظهم ليعتبروا فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ﴾ يعني أو لم ينظروا فيعتبروا بما أنعم الله عليهم. ﴿أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعَامًا﴾ يعني خلقنا لهم بقوتنا، وقدرتنا. ويقال: صارت بأمرنا، ﴿أَنْعَامًا﴾ يعني الإبل، والبقر، والغنم. ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ يعني الأنعام.

﴿وَذَلَّلْناها لَهُمْ﴾ يعني سخرناها لهم، فيحملون عليها، ويسوقونها حيث شاؤوا، فلا تمتنع منهم ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ في انتفاعهم. ﴿وَمِنْها يَأْكُلُونَ﴾ من البقر، والغنم، والإبل.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنافِعُ﴾ في الأنعام في الركوب، والحمل، والصوف، والوبر. ﴿وَمَشارِبُ﴾ يعني ألبانها. ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ ربّ هذه النعمة، فيوحّدونه. ومعناه: أن يشكروه ويوحدوه.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً﴾ مع ما رأوا من آياتنا في خلقنا. ﴿لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يعني لعلّ هذه الآلهة تمنعهم من العذاب في ظنهم.

يقول الله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يعني منعهم من العذاب. ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ يعني الكفار للأصنام جند يتعصبون لها، ويحضرونها في الدنيا. ويقال: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ وهم لآلهتهم كالعبيد، والخدم، قيام بين أيديهم. وقال الحسن: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ في الدنيا مُحْضَرُونَ﴾ في النار.

﴿فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ يعني لا يحزنك يا محمد تكذيبهم إياك. ﴿إِنَّا نَعْلَمُ﴾ أي بأنّا نعلم. ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ من التكذيب. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يعني وما يظهرون لك من العداوة. ويقال: فلا يحزنك يا محمد قولهم فيك أنك شاعر، وساحر، وكاهن، وكاذب، وسائر وجوه

الأذى بالقول. ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي إنا نعلم سرّهم، وعلانيتهم، إضمارهم، وإظهارهم بك، وسنكافئهم على ذلك"[٩٥٣].

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦)﴾

[فصل في التفسير بالرأي]

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ "وفي الترتيب وجهان: الأول: أنهم حين يسمعون قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[الأحقاف:٣٤]، يريدون ينكرون كفرهم، كما قال عنهم: ما أشركنا، وقالوا آمنا به، فيختم الله على أفواههم. الثاني: لما قال الله تعالى لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ لم يكن لهم

---

[٩٥٣] *التيسير في التفسير*، ١٢/٣٧٨-٣٨١.

جواب فسكتوا، وتكلمنا أعضاؤهم غير اللسان. ومعنى الختم على الأفواه: وهو أن الله تعالى يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها، وتنطق جوارحهم، فتشهد عليهم. وإنه في قدرة الله يسير، أما الإسكات فلا خفاء فيه، وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة، فكما جاز تحركه بها، جاز تحرك غيره بمثلها، والله قادر على الممكنات. وإنما جعل الشهادة للأرجل، والكلام للأيدي، لأن الأفعال تسند إلى الأيدي، قال تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾[يس:٣٥]، أي ما عملوه. وقال: ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾[البقرة:١٩٥]، أي ولا تلقوا بأنفسكم، فإذا الأيدي كالعاملة، والشاهد على العامل ينبغي أن يكون من غيره، فجعل الأرجل من جملة الشهود.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾، وفي الآية إشارة إلى شاؤوا، أراد عماء بصائرهم، يعني أنه تعالى لو شاء طمس أعينهم وما اهتدوا إلى طريقتهم الظاهرة، ولو اختار سلب عقولهم فزلوا، فلو شاء سلب قوة أجسامهم ومسخهم لما قدروا على تقدم ولا تأخر، ولو شاء لمسخهم، وسلب قوتهم بالكلية لا يهتدون إلى الصراط بوجه من الوجوه، ولا يستطيعون مُضِيًّا ولا أقل من ذلك وهو الرجوع الذي هو أهون من المُضِيّ.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ واعلم أنه قد ذكر أن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ قطع للأعذار بسبق [الإنذار][٩٥٤]، ثم لما قرر ذلك [وأتمّه،

---

[٩٥٤] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٣٠٤.

شرع][٥٥٥] في قطع عذر آخر، وهو أن الكافر يقول: لم يكن لبثُنا في الدنيا إلا يسيراً، ولو عمرتنا لما وجدت منا تقصيراً. فقال الله تعالى: أفلا تعقلون أنكم كلما دخلتم في السن ضعفتم، وقد عمرناكم مقدار ما تتمكنون من البحث والإدراك. كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[فاطر:٣٧]. ثم إنكم علمتم أن الزمان كلما يعبر عليكم يزداد ضعفكم، فلو عمرناكم أكثر من ذلك لكان زمان الإزمان، ومن لم يأت بالواجب زمان الإمكان ما كان يأتي به زمان الإزمان.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ واعلم أنه قد ذكر أن الله تعالى في كل موضع ذكر أصلين من الأصول الثلاثة، وهي الوحدانية، والرسالة، والحشر. أما الوحدانية ففي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِى ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ الشَّيْطَٰنَ﴾، وفي قوله: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾. وأما الحشر ففي قوله تعالى: ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾، وبقوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾. فلما ذكرهما وبيّنهما، ذكر الأصل الثالث، وهو الرسالة، فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾. وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ الشِّعْرَ﴾ إشارة إلى أنه معلّم من عند الله فعلّمه ما أراد، ولم يعلّمه ما لم يرد. وإنما خصّ الشعر بنفي التعليم، مع أن الكفار كانوا ينسبون إلى النبي ﷺ أشياء من جملتها السحر، ولم يقل: وما علمناه السحر. وكذلك كانوا ينسبونه إلى الكهانة، ولم يقل: وما علمناه الكهانة. أما الكهانة فكانوا ينسبون النبي ﷺ إليها عندما كان يخبرهم عن الغيوب،

---

[٥٥٥] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٣٠٤/٢٦.

ويكون كما يقول. وأما السحر فكانوا ينسبونه إليه عندما كان يفعل ما لا يقدر عليه الغير، كشَقِّ القمر، وتكلُّم الحصى، والجذع، وغير ذلك. وأما الشعر فكانوا ينسبونه إليه عندما كان يتلوا القرآن عليهم، لكنه ﷺ ما كان يتحدى إلا بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[البقرة:٢٣] إلى غير ذلك. ولم يقل: إن كنتم في شكٍّ من رسالتي، فأنطِقُوا الجذوع، أوأشبِعُوا الخلق العظيم، أوأخبِرُوا بالغيوب، فلما كان تحديه ﷺ بالكلام، وكانوا ينسبونه إلى الشعر عند الكلام خُصَّ بنفي التعليم.ومعنى قوله: ﴿وَمَا يَنبَغِى لَهُ﴾ يعني ما كان يليق به ولا يصلح، وذلك لأن الشعر يدعوإلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن، فالشارع: يكون اللفظ منه تبعاً للمعنى، والشاعر: يكون المعنى منه تبعاً للفظ، لأنه لا يقصد لفظاً به يصح وزن الشعر أوقافيته، فيحتاج إلى التحيل لمعنى ما أتى به لأجل ذلك اللفظ. وعلى هذا الشعر هو الكلام الموزون الذي قصد إلى وزنه قصداً أولياً، وأما من يقصد المعنى فيصدر موزوناً مقفى لا يكون شاعراً. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران:٩٢] ليس بشعر، والشاعر إذا صدر منه كلام فيه متحركات وساكنات بعدد ما في الآية يقطعه بفاعلات فاعلات فاعلات فاعلات، يكون شعراً، لأنه قصد الإتيان بألفاظ حروفها متحركة وساكنة كذلك، والمعنى تبعه، والحكيم قصد المعنى فجاء اللفظ موافقا لذلك المعنى. قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ يحقق ذلك المعنى، أي هو ذكر وموعظة للقصد إلى المعنى، فجاء اللفظ موافقا له.

ثم قوله: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ في علم الله فينذره به فيؤمن. والثاني: أن يكون المراد لينذر به من كان حياً في نفس الأمر، أي من آمن فينذره بما على المعاصي من العقاب، وبما على الطاعة من الثواب. ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وقد تقدم الكلام فيه.

ثم إنه تعالى أعاد الوحدانية، والدلائل الدالة عليها، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ أي ما عملناه من غير معين ولا ظهير، بل عملناه بقدرتنا وإرادتنا.وقوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ إشارة إلى إتمام الإنعام في خلق الأنعام، فإنه تعالى لو خلقها وما تملكها الإنسان المملوك إذا كان آبياً متمرداً لا ينفع.

وقوله:﴿وذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ بيان لمنفعة التذليل، إذ لولا التذليل لما وجدت المنفعة.

ثم بيّن غير الركوب والأكل من الفوائد بقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾ وذلك لأن من الحيوانات ما لا يُركب كالغنم، فقال: المنافع تعمها، والمشارب كذلك عامة. ثم قال: ﴿أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم فإنها توجب العبادة شكراً، ولو شكرتم لزادكم من فضله، وإن كفرتم سلبها منكم.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ إشارة إلى زيادة ضلالتهم ونهايتها، فإنهم كان الواجب عليهم عبادة الله شكراً لأنعمه، فتركوها وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع. وقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ إشارة إلى الحشر

بعد تقرير التوحيد، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[الأنبياء:٩٨]، وقوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[الصافات:٢٢-٢٣]، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾[سبأ:٣٨].

ومعنى قوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ قد تقدم الكلام فيه. وفيه معنى لطيف وهو أنه تعالى لما قال: ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أكّدها بأنهم لا يستطيعون نصرهم حال ما يكون جنداً لهم ومحضرون لنصرتهم فإن ذلك دال على عدم الاستطاعة، فإن من حضر واجتمع، ثم [عجز][٩٥٦] عن النصرة يكون في غاية الضعف، بخلاف من لم يكن يتأهب و لم يجمع أنصاره.

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ إشارة إلى الرسالة، لأن الخطاب معه بما يوجب تسلية قلبه دليل اجتبائه واختياره إياه.وقوله: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يحتمل وجوهاً: أحدها: أن يكون ذلك تهديداً للمنافقين والكافرين. فقوله: ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ من النفاق، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الشرك. والثاني: ما يُسِرُّون من العلم بك، وما يعلنون من الكفر بك. الثالث: ما يُسِرُّون من العقائد الفاسدة، وما يعلنون من الأفعال القبيحة"[٩٥٧].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

---

[٩٥٦] في الأصل (حضر)، وصححتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٣٠٧.

[٩٥٧] *مفاتيح الغيب*،٢٦/٣٠٣-٣٠٧.

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ "يشير إلى أن الغالب على الأفواه الكذب. كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[آل عمران:١٦٧]. والغالب على الأعضاء الصدق، فلا تُسأل الأفواه فإنها كثيرة الكذب، وتسأل الأعضاء فإنها كثيرة الصدق، تشهد بالحقّ، أما الكفار فشهادة أعضائهم عليهم بالكفر، وأما العصاة من المؤمنين الموحدين قد تشهد عليهم أعضاؤهم بالعصيان، ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضا لهم بالإحسان، وفي بعض الأخبار المرويّة المستندة: أن عبداً تشهد أعضاؤه عليه بالزلّة، فتتطاير [شعرة][٩٥٨] جفن عين عبدي، فتشهد له بالبكاء من خوفه فيغفر له، فينادي منادٍ هذا عتيق الله من النار.

وبقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ فيشير إلى طمس عين الظاهر بحيث لا يكون لها شق، فكيف تبكي حتى تشهد بالبكاء على صاحبها؟! ويشير أيضاً إلى طمس عين الباطن، فإذا كانت مطموسة كيف يبصر بها الحقّ والباطل، ليرجع من الباطل إلى الحقّ؟! وإذا لم يبصر بها الحقّ، كيف يخاف من باطله ليحرق قلبه بنار الخوف؟! فيسيل منه الدمع ليشهد له بالبكاء من الخوف.

وبقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ يشير إلى أن تحول صفاتهم الإنسانية، بصفات السبعية والشيطانية. ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ لا يقدرون على إزالة هذه الصفات، ولا يقدرون على رجوعهم إلى صفاتهم الإنسانية، فمن مَسَخه الله في الدنيا

---

[٩٥٨] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*،٥/١٥٢.

بالصفات، حشره الله في صورة صفته الممسوخة، كما جاء في الحديث الصحيح: "إن آذر يحشر على صورة ضبع".

وبقوله: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ يشير إلى أن الإنسان كما لو عَمَّر يرده الله إذا استوى شبابه وقوته إلى العكس، حتى يأخذ في النقصان من الزيادة كما كان يزداد في القوة إلى أن يبلغ أرذل العمر في السن، فيصير إلى حال مثل حال الطفولة في الضعف، ثم لا يبقى على النقصان شيء. فكذلك لو عَمَّر السالك لطريق الحقّ تعالى في السير عن وجوده [بعد السير في وجوده إلى أقصى مراتب الروحانية، ثم تفنى روحانيته في ربوبية الحقّ تعالى إلى ألاّ يبقى منه ما يسند الفعل إليه][٩٥٩]، كما قال تعالى: فَبي يسمع، وبِي ينطق، وبِي يبطش، وبِي يمشي.

وبقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُۥٓ﴾ يشير إلى أن كل أقوال وأعمال وأحوال تجري على العباد في الظاهر والباطن، كلها تجري بتعليم الحقّ، حتى الحِرَف والصنائع، وذلك من قوله تعالى:﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[البقرة:٣١]، وتعليمه الصنائع لعباده على ضربين: [بواسطة][٩٦٠]، وبغير واسطة. أما بالواسطة فتعليم بعضهم بعضاً، وأما بغير واسطة فكما علم داود – عليه السّلام – صنعة لبوس، وكل حرفة وصنعة يعمل الإنسان من قريحته بغير تعليم أحد، فهومن هذا القبيل. وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى أنه

---

[٩٥٩] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*،٥/١٥٣.

[٩٦٠] سقط من الأصل، وكتبتها من *التأويلات النجمية*،٥/١٥٣.

تعالى ما علمه الشعر، ولكنه علمه الذكر والقرآن، كما قال:﴿ٱلرَّحۡمَـٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[الرحمن: ١-٢].

وبقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يشير إلى أن كل قلب تكون حياته بنور الله، وروح منه يفيده الإنذار ويتأثر به، وأمارة تأثيره: الإعراض عن الدنيا، والإقبال على الآخرة والمولى. ووجب القول إلى كل الكافرين بموت قلوبهم وقساوتها فلا تتأثر بالإنذار.

ثم أخبر عن قدرته، ومنَّ علينا بنعمته، بقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمًا﴾ يشير إلى أنه تعالى خلق للإنسان جميع ما خلق بالوسائط وغير الوسائط، خلق لهم أنعاماً. ذَكَر عظيم مِنَّتِه عليهم، وجميل نعمته لديهم بما خلق لهم المخلوقات، وبما سخر لهم من الأنعام التي ينتفعون بها بوجوه من الانتفاع فهم لها مالكون، لينتفعوا بركوبها، وأكل لحومها وشحومها، وبشرب ألبانها، وما يُحمل عليها، وبالتقرب بها في قطع المسافة البعيدة إلى الزيارات، والمواضع الشريفة، والمزارات المتبركة، ثم بأصوافها، وأوبارها، وأشعارها.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ فطالبهم بالشكر عليها فوجدهم مقصرين في أدائها، ثم شكا عنهم مع حبيبه ﷺ فقال مع كل هذه الوجوه من الإحسان: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ أكلوا نعمتي وانتفعوا بها وعبدوا غيري. ﴿لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ﴾ ولا نصر أنفسهم. ﴿وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ في العذاب، ليذوق بعضهم وبال بعضهم.

ثم عزّى نبيّه ﷺ بقوله: ﴿فَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ يشير إلى كلام الأعداء الصادر من العداوة والحسد جدير أن يحزن قلوب الأنبياء مع كمال قوتهم، وأنهم ومتابعيهم مأمورون بعدم الالتفات له، وتطييب القلوب في مقاساة الشدائد في الله بأن لها ثمرات [كريمة][٩٦١] عند الله، وللحساد مطالب بها عند الله كما قال: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من الحسد، والضغائن. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من العداوة، والطعن، وأنواع [الجفاء[٩٦٢]]"[٩٦٣] . والله أعلم بسرائر الأمور.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾

[فصل في التفسير بالرواية]

ثم أخبر عن عناية الرحمن، وغواية الإنسان، بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾، "روى سفيان عن الكلبي عن مجاهد أنه قال: قام أُبيّ بن خلف الجمحيّ إلى النبي ﷺ بعظم بالٍ قد أتى عليه حِيْنٌ فَفَتَّهُ بيده، ثم قال: يا محمد أتعدنا أنا إذا متنا وكنا ترابا مثل

---

[٩٦١] في الأصل (كريهة)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٥٤.

[٩٦٢] في الأصل (الخفايا)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٥٤.

[٩٦٣] *التأويلات النجمية*، ٥/١٥١-١٥٤.

هذا العظم بعثنا؟! فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾[٩٦٤]. يعني أو لم يعلم هذا الكافر أنا خلقناه أول مرة من نطفة؟! ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ يعني جدلاً بالباطل. ويقال: خصيم، يعني بيّن الخصومة فيما يخاصم.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ يعني وصف لنا شبهاً في أمر العظام. ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ يعني وترك ابتداء خلقه من نطفة. ويقال: ترك النظر في خلق نفسه فلم يعتبر. ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ والرميم: العظم البالي.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ﴾ يعني قل يا محمد يحيي العظام [الذي خلقها أول مرة][٩٦٥]. ﴿أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني خلقها ولم تكن شيئا. ثم قال عز وجل: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يعني عليم ببعثهم وبخلقهم في الدنيا.

ثم قَرَنَ هذا بما هو أبلغ في الدلالة على كمال القدرة: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ أي جعل من الشجر الرطب ناراً. فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ أي من الشجر. ﴿تُوقِدُونَ﴾ قال الكلبي: كل شجر يقدح منها النار إلا شجرة العناب، ومن ثَمّ القصارون يوقدون عليه. وقوله: ﴿تُوقِدُونَ﴾ أي تقدحون. يعني هو الذي يقدر على أن يبعثكم. ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ في الآخرة. فالكلام يخرج على لفظ

---

[٩٦٤] ابن أبي حاتم: *تفسير القرآن العظيم*، ٣٢٠٢/١٠، رقم (١٨١٢١). السمرقندي: *بحر العلوم*، ١٣٢/٣. السيوطي: *الدر المنثور*، ٧٥/٧.

[٩٦٥] سقط من الأصل، وكتبتها من *بحر العلوم*، ١٣٣/٣.

الاستفهام، ويراد به التقرير. ﴿بَلَى﴾ هو قادر على ذلك. ﴿وَهو الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ يعني الباعث العليم ببعثهم.

﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئًا﴾ في أمر البعث وغيره. ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ خلقاً"[966].

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ "يعني نزهوا الله عما أضافه هؤلاء المشركون، فهو الذي ملكوت كل شيء. أي هو مالك شيء. ويقال: خزائن كل شيء. ويقال: له القدرة على كل شيء. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت، فيجازيكم بأعمالكم، أي على طاعاتكم ومعاصيكم، فهو الآخذ في الدنيا والآخرة بنواصيكم"[967].

[فصل في التفسير بالرأي]

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ "قيل: المراد بالإنسان (أُبَيّ بن خلف) لأنه وردت فيه، حيث أخذ عظماً بالياً، وأتى النبي ﷺ وقال: إنك تقول إن إلــٰهك يُحيي هذه العظام. فقال رسول الله ﷺ: "نعم، ويدخلك جهنم"[968]. وقد ثبت في أصول الفقه (الاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب)، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِها﴾[المجادلة:١]، نزلت في واحدة، وأراد الكلّ في الحكم. وكذلك كل إنسان شكا الله، والحشر بهذه الآية ردّ عليها إذا علمت عمومها.

---

[966] بحر العلوم، ٣/١٣٣-١٣٤.

[967] التيسير في التفسير، ١٢/٣٨٣.

[968] سبق تخريجه.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ كلام أعمّ من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، لأنه دليل أن النفس أشمل، وأكمل، وأتمّ، وألزم. فإن الإنسان قد يغفل عن الإنعام وخلقها، فما باله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهو أتمّ نعمه، فإن سائر النعم بعد وجوده. وقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ إشارة إلى وجه الدلالة، وذلك لأن خلقه لو كان من أشياء مختلفة الصور، كان يمكن أن يقال: العظم خلق من جنس صلب، واللحم من جنس رخو، وكذلك الحال في كل عضو، ولما كان خلقه من نطفة متشابهة الأجزاء وهومختلف الصور، دلّ على الاختيار والقدرة، وإلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ فيه لطيفة غريبة، وهي أنه تعالى قال اختلاف صورة أعضائه مع تشابه أجزاء ما خلق منه آية ظاهرة ومع هذا فهنالك ما هو أظهر، وهونطقه وفهمه، لكن القوة الناطقة والقوة الفاهمة من أين تقتضيهما النطفة؟ فإبداع النطق والفهم أعجب وأغرب من إبداع الخلق والجسم، وهو إلى إدراك القدرة والاختيار منه أقرب، وقوله: ﴿خَصِيمٌ﴾ أي ناطق، وإنما ذكر الخصيم مكان الناطق، لأنه أعلى أحوال الناطق، [فإن الناطق مع نفسه][٩٦٩] لا يبين كلامه مثل ما يبينه وهو يتكلم مع غيره، والمتكلم إذا لم يكن خصماً لا يبين مثل ما يبينه، وهو يتكلم مع غيره ولا يجتهد مثل ما يجتهد إذا كان كلامه مع خصمه. وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى قوة عقله، لأن العاقل عند الإفهام أعلى درجة منه عند عدمه. وقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ إشارة إلى أدنى ما كان عليه. وقوله: ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى أعلى ما حصل عليه. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ إشارة إلى التغيرات في الجسم. وقوله: ﴿ثُمَّ

---

[٩٦٩] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٣٠٨.

أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾[المؤمنون:١٤] إشارة إلى ما أشار إليه فهو: ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي ناطق عاقل.

ثم قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ إشارة إلى بيان الحشر، واعلم أن المنكرين للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلاً، واكتفى بالاستبعاد، وادعاء الضرورة، وهم الأكثرون. ويدل عليه قوله تعالى حكاية عنهم في كثير من المواضع بلفظ الاستبعاد كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[السجدة:١٠]، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِيْنُوْنَ﴾[الصافات:٥٣] إلى غير ذلك، فكذلك ههنا قال: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ على طريق الاستبعاد، فبدأ أولاً بإبطال استبعادهم بقوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي نسي أنا خلقناه من تراب، ومن نطفة متشابهة الأجزاء، ثم جعلنا لهم من النواصي إلى الأقدام أعضاء مختلفة الصور والقوام، وما اكتفينا بذلك حتى أودعناهم ما ليس من قبيل هذه الأجرام، وهو النطق والعقل، الذين بهما استحقوا الإكرام، فإن كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة لم تكن محل الحياة أصلاً، ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محل كانا فيه، ثم إن استبعادهم كان من جهة ما في المعاد من التَّفتُّت والتفرق حيث قالوا: ﴿مَن يُحْيِ الْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ اختاروا العظم للذكر، لأنه أبعد عن الحياة، لعدم الإحساس فيه، ووصفوه بما يقوي جانب الاستبعاد من البلى والتَّفتُّت، والله تعالى دفع استبعادهم من جهة ما في المعيد من القدرة والعلم، فقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أي جعل قدرتنا كقدرتهم، ونسي خلقه العجيب، وبدأه الغريب، ومنهم من ذكر شبهة إن كان في آخرها تعود إلى مجرد الاستبعاد، وهي على وجهين أحدهما: أنه بعد العدم ولم يبقَ شيئاً

فكيف [يصحّ] [٩٧٠] على العدم الحكمُ بالوجود، وأجاب عن هذه الشبهة بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني كما خلق الإنسان و لم يكن شيئاً مذكوراً، كذلك يعيده وإن لم يكن شيئاً مذكوراً. وثانيها: أن من تفرق أجزاؤه في مشارق العالم ومغاربه، وصار بعضه في أبدان السباع، وبعضه في جدران الرباع، كيف يجمع؟ وأبعد من هذا هو أن إنساناً إذا أكل إنساناً، وصار أجزاء المأكول في أجزاء الآكل، فإن أعيد، فأجزاء المأكول إما أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاء، وإما أن تعاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء. فقال تعالى في إبطال هذه الشبهة: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ووجهه هو أن في الآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية، وفي المأكول كذلك، فإذا أكل إنسان إنساناً صار الأصلي من أجزاء المأكول فضلياً من أجزاء الآكل والأجزاء الأصلية للآكل هي ما كان له قبل الأكل. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم الأصلي من الفضلي، فيجمع الأجزاء الأصلية للآكل، وينفخ فيها الروح، ويجمع الأجزاء المتفرقة الفضلية للمأكول، بحكمته الشاملة، وقدرته الكاملة، وينفخ فيها.

ثم إنه تعالى عاد إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم، وإبطال إنكارهم وعنادهم، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ ووجهه هو أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به وحياة سارية فيه، وهي كحرارة جارية فيه فإن استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه، فإن النار في الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب، وأنتم

[٩٧٠] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*، ٢٦/٣٠٩.

تحضرون حيث منه توقدون، وإن استبعدتم خلق جسمه، فخلق السماوات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّٰقُ الْعَلِيمُ﴾ وقدم ذكر النار في الشجر على ذكر الخلق الأكبر، لأن استبعادهم كان بالصريح واقعاً على الأحياء حيث قالوا: ﴿مَن يُحيِ العِظَٰمَ﴾ ولم يقولوا من يجمعها ويؤلفها، والنار في الشجر تناسب الحياة.

وقوله: ﴿وَهُوَ الخَلَّٰقُ﴾ إشارة إلى أنه في القدرة كامل. وقوله: ﴿الْعَلِيمُ﴾ إشارة إلى أنه بعلمه شامل، ثم أكد بيانه بقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ هذا إظهار فساد تمثيلهم، وتشبيههم، وضرب مثلهم حيث ضربوا لله مثلاً، وقالوا لا يقدر أحد على مثل هذا قياساً للغائب على الشاهد، فقال في الشاهد الخلق يكون بالآلات البدنية والانتقالات المكانية ولا يقع إلا في الأزمنة الممتدة، فالله يخلق بكن فيكون، فكيف تضربون المثل الأدنى وله المثل الأعلى من أن يدرك.

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لما تقررت الوحدانية والإعادة وأنكروهما وقالوا: بأن غير الله آلهة، قال تعالى وتتره عن الشريك: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فكل شيء ملكه فكيف يكون المملوك للمالك شريكاً، وقالوا: بأن الإعادة لا تكون، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ رداً عليهم. ﴿فَسُبْحَٰنَ﴾ علم للتسبيح، والتسبيح

هو التنزيه، والملكوت مبالغة في المُلك"[٩٧١]. ثم إن النبي ﷺ قال: "إنّ لكلّ شيء قلباً، وقلب القرآن يـــس"[٩٧٢]. "فقال الغزالي فيه: لأن الإيمان صحته بالاعتراف بالحشر، والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه، فجعله قلب القرآن لذلك. ويمكن أن يقال بأن هذه السورة ليس فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة بأقوى البراهين، فابتداؤها بيان الرسالة بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، ودليلها ما قدمه عليها بقوله: ﴿وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ﴾، وانتهاؤها بيان الوحدانية والحشر فقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ إشارة إلى التوحيد، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إشارة إلى الحشر. وليس في هذه السورة إلا هذه الأصول الثلاثة ودلائله وثوابه، ومن حصل من القرآن هذا القدر فقد حصل نصيب قلبه وهو التصديق الذي بالجنان. وأما وظيفة اللسان التي هي القول، فكما في قوله تعالى: ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[الأحزاب:٧٠]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾[فصلت:٣٣]، وقوله تعالى: ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾[إبراهيم:٢٧]، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾[الفتح:٢٦]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[فاطر:١٠] إلى غير هذه مما في غير هذه السورة، ووظيفة الأركان وهو العمل، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[البقرة:١١٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَى... وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ﴾[الإسراء:٣٢-٣٣]، وقوله: ﴿وَاعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾[المؤمنون:٥١]، فلما كان فيه أعمال القلب لا غير سماها قلباً، ولهذا ورد في الأخبار أن النبي ﷺ ندب إلى تلقين يـــس لمن دنا منه الموت، وقراءتها عند رأسه، لأن في ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف

---

[٩٧١] *مفاتيح الغيب*،٢٦/٣٠٧-٣١١.

[٩٧٢] سبق تخريجه.

القوة، والأعضاء الظاهرة ساقطة [البنية][٩٧٣]، لكن القلب يكون قد أقبل على الله ورجع عن كل ما سواه، فيقرأ عند رأسه ما يزداد به قوة قلبه، ويشتد تصديقه بالأصول الثلاثة، وهي شفاء له. وأسرار كلام الله تعالى، وكلام رسول الله ﷺ لا يعلمها إلا الله ورسوله، وما ذكرناه ظن لانقطع به، ونرجوالله أن يرحمنا وهو أرحم الراحمين"[٩٧٤].

[فصل في التفسير الصوفي الإشاري]

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾، "وهذا يشير إلى كمال عنايته في خلق الإنسان أنه أفرغ سجال نعمه، إذا كان نطفة من ماء مهين فجمع نشره، وسوّى أعضاءه، وركب أجزاءه، ونفخ فيه من روحه، وأودعه العقل والتمييز، ثم إنه جاء كافراً لأنعمه ينازعه في خطابه، ويعترض عليه في أحكامه بزعمه في استصواب رأيه.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أو لم يتفكروا في بدء خلقه، إنا أنشأناه من الذرة التي استخرجناها من صلب آدم، وهي أصغر من العظم، ثم أودعنا النطفة وهي في صلب آدم مودعة، ثم أودعناها في رحم أُمِّه وهي ميِّتة، ثم أنشأناها خلقاً آخر حيًّا.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ الذي علم قبل أن يخلق آدم من تراب بلا أب وأمّ، وأن يخلق حواء بلا أمّ، ويخلق عيسى بلا أب.

---

[٩٧٣] سقط من الأصل، وكتبتها من *مفاتيح الغيب*،٢٦/٣١٢.

[٩٧٤] مفاتيح الغيب،٢٦/٣١١-٣١٢.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ أي:من شجر أخضر البشرية نار المحبة. ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ شجرة بشريتكم، ومصباح قلوبكم.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾، بهذه الإشارات مهد سبيل الرشاد إلى الاستدلال، وقال: إن الإعادة في معنى الابتداء، فإذا قدر في الابتداء بقي جواز الإعادة في الانتهاء؟ ثم قال: الذي قدر على خلق النار في الأغصان الرطبة قادر على خلق الحياة في الرمة البالية، ثم زاد في البيان بأن قال: إن القدرة على مثل الشيء كالقدرة عليه، وأنه يحيي النفوس بعد موتها، كما يحيي العظام من النطفة، والطير من البيضة، ويحيي القلوب بالعرفان لأهل الإيمان، كما يحيي نفوس أهل الكفر بالهوى والطغيان. وبقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ يشير إلى أن الإرادة الأزلية لما تعلقت بإيجاد المكونات، تعلقت القدرة الأزلية على وفق الحكمة الأزلية بالمقدورات إلى الأبد على وفق الإرادة بإشارة أمر: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ إلى الأبد ما شاء في الأزل. ثم نزَّه ذاته تعالى عن وهم العجز عما يريد كينونته، وقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أثبت لكل شيء ملكوتاً، وملكوت الشيء: ما هو الشيء به قائم، ولو لم يكن بشيء ملكوت يقوم به لما كان شيئاً، [والملكوتيات][٩٧٥] قائمة بيد قدرته.﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالاختيار أهل القبور، وبالاضطرار أهل الردّ، عصمنا الله من الردّ بفضله وكرمه"[٩٧٦]، والله أعلم بالسرائر.

---

[٩٧٥] في الأصل (والمكونات)، وصححتها من *التأويلات النجمية*، ٥/١٥٦.

[٩٧٦] *التأويلات النجمية*، ٥/١٥٤-١٥٦.